# طاووس ملك
# اليزيدية



الليدي درور

# The Peacock Angel

***By: Lady Drower***

# طاووس ملك
# اليزيدية


تأليف:

**ليدي درور**

ترجمة:

**رزق الله بطرس**

مراجعة وتعليق:

**د. صباح جمال الدين - الأب سهيل قاشا**




* اسم الكتاب: طاووس ملك ـ اليزيدية.
* تأليف: ليدي درور.
* ترجمة: رزق الله بطرس
* مراجعة وتعليق: د. صباح جمال الدين ـ الأب سهيل قاشا
* الطبعة الأولى لشركة دار الوراق للنشر المحدودة: 2008.

* تصميم الغلاف: جبران مصطفى.
* صورة الغلاف: معبد يزيدي في بعشيقا.
* الناشر: شركة دار الوراق للنشر المحدودة.

First edition by Alwarrak Publishing Ltd. 2008

**www.alwarrakbooks.com**

**التوزيع**

**Alwarrak Publishing Ltd.**
Suite 500, 56 Gloucester Road,
London SW7 4UB. UK
Fax: 0044-207 581 9213
Tel: 0044 208-7232775
warraklondon@hotmail.com

**الفرات للنشر والتوزيع**
بيروت ـ الحمرا ـ بناية رسامني ـ طابق سفلي أول
ص. ب 113-6435 بيروت ـ لبنان
هاتف: 00961-1-750054
فاكس: 00961-1-750053
e-mail: info@alfurat.com

# المحتويات

# مقدمة النسخة العربية

لم تنل طائفة دينية، أو جماعة مذهبية، كما نالته اليزيدية/ الأيزيدية من البحث العلمي والسردي، واستقصاء الأخبار وتدقيقها مع التحقيق في صوابها، والجهد الكبير في الغوص بتاريخ وجودها ومجتمعها بعاداته وتقاليده الغريبة بعض الشيء عن جيرانها المسيحيين والمسلمين في شمال العراق. والأكراد والعرب من مواطنيها العراقيين.

قلنا عُني الباحثون من عرب ومستشرقين باليزيدية عناية كبيرة، فكتبوا في أحوال ماضيها وحاضرها، معتقداتها وتقاليدها، مجتمعها الروحي والمدني، فوضعوا أبحاثاً عديدة، بالرغم من أنها فرقة دينية قليلة العدد، فقيرة الحال، يقطن أبناؤها اليوم في قرى قضاءي الشيخان «الموصل» من شمال العراق، وفي بعض أنحاء سورية، وجنوب تركيا وفي مواطن أخرى من إيران والقفقاس والمهجر.

واليوم إذ نقدّم لكتاب «اليزيدية» لليدي درورِ التي أدلَت بدلوها في بئر هذه الطائفة العميقة لتسبر غورها عن قرب حيث زارت المنطقة شخصياً وسكنت فيها وعاشرت شعبها عن قرب وعن بعد، والتقت بالعديد من أبنائها لقاء مباشراً فدوّنت أحاديثها وكأنها تصوّر بعدسة أسلوبها الهيّن الهادىء سيما وأنّه عرّب عن الإنكليزية بقلم

مترجم دقيق التعبير والتصوير، إلّا من بعض التحقيق والتدقيق وهو السيد بطرس.

وبهذا أتى الكتاب كشريط فيلم سينمائي يقرّب الحدث ويجسّده أمام القارىء سيما العارف بالمنطقة والطائفة.

ونزولاً عند رغبة الصديق «الناشر» أقدمت على وضع هذه الأسطر المتواضعة لكتاب الليدي درور الإنكليزية التي لها دراسة أخرى رائعة ومفيدة وأيضاً عن قرب عن «المندائيين/ الصابئة» مسلطة حزمة ضوء كاشف عن أحوال «اليزيدية» الدينية في معتقداتها وأحوالها، وفي مجتمعها وعاداتها وتقاليدها، وفي تاريخها قديماً وحديثاً، علّها تروي لهفة المتتبعين من الدارسين والمثقفين لهكذا مواضيع انثروبولوجية.

وفي الحق أنه كتاب جدير بالمطالعة ويأخذ مكانه في المكتبة العراقية والعربية كما أخذ مكانه في المكتبات العالمية بطبعته الإنكليزية.

والله وليّ التوفيق.

س.ق

2008

# شكر

أقدم الشكر الخالص لوزارة الخارجية ـ بغداد ـ وإلى متصرف الموصل وإلى سمو أمير اليزيدية والرائد كوري من الشرطة العراقية. كما تكرم علينا السيد إيفان غست لطيفاً وزودنا بالأسماء العلمية للنباتات في هذا الكتاب.

عليَّ أيضاً أن أضيف شكري الجزيل إلى ابنتي الآنسة م.س. دراور لتصحيحها المسودات. ولما لم أكن في انكلترا، فقد كان من المستحيل عليَّ أن أقوم بالعمل بنفسي.

**ملاحظة**: الشواهد المذكورة في مقدمة الفصول مأخوذة (باستثناء واحد منها) من ترجمات أندرو لانغ للشعراء اليونان: ثيوكريتوس (THEOCRATIS) وبايون (BION) وموشوش (MOSCHUS)، (ماكميلان 1889).

# مقدمة

«عندما يزأر المحيط العتيق، ويكسر الزبدُ البحرَ، وتصخب الأمواج العالية، عندئذ أرفع عينيَّ إلى الأراضي والأشجار....».

(موشوس/الأنشودة الرعوية V)

كنت قد دَعَوْتُ الأميرة اليزيدية كي تتناول غداءها معي، في منزلنا على ضفة نهر الدجلة في بغداد. هتفت لي من فندقها لتجيب. قلت: «من المتكلم؟» أجابني صوت قائلاً: «ونسة، أنا ونسة أتكلم». «هل تلقيتِ رسالتي، أيتها الأميرة ونسة؟»، «نعم شكراً جزيلاً أيتها السيدة سوف آتي. سيدتي أنت لطيفة جداً». كانت قد تعلمت بعض الإنكليزية والفرنسية في بيروت. لذلك كان ما تعنيه هو: «لقد كان لطفاً منك أن تطلبي إليَّ الحضور».

كانت هذه الفتاة قد طُردت من سوريا. عندما هربت من زوجها ـ الأمير حاكم اليزيديين ـ عبرت الحدود بطريق جبل سنجار، موطنها الحقيقي، كي تحتمي مع بعض أبناء دينها في سوريا، لأن القتل كان سيكون قدرها المؤكد لو أنها بقيت. في سن الرابعة والعشرين تحلو الحياة، بالرغم من أن الزواج الذي كان قد رتّبه والدها ـ إسماعيل بيك ـ كان غلطة مأساوية، وبالرغم من أنها فقدت ابنتها الوحيدة

ليلى أيضاً. تحدثت عنها والدموع في عينيها. «سيدتي كنت أحبها كثيراً». حصدت الملاريا ـ وهي لعنة التلال الكردية ـ ضحيتها الصغيرة وبذا اختطفت الرابطة الوحيدة بين الأميرة الصغيرة وزوجها.

لم يكن لدى هذه اللاجئة جواز سفر في زمن الحرب، وكانت السلطات الفرنسية مرتابة بأمرها. جرى وضعها في فندق تحت الإشراف العسكري، ولم يكن من المستحسن السماح لهذه الصبية الساحرة التي كان اسمها يعني «تسلية» (ونسة) ـ أن تبقى في البلاد. وبالنظر إلى تلك الظروف كان هذا أمراً طبيعياً. ولأنها قدمت من بلاد تأخذ فيها الوطنية شكل اهتمام نشيط في سياسة البلدان المجاورة، فقد أصبحت موضع شكوك. وأخيراً «بصفتها تهديداً للأمن العام»، تمّ إرسال «ونسة الأميرة اليزيدية» عبر الحدود من جديد ووضعت نفسها تحت حماية «الحكومة العراقية». نزلت في فندق في بغداد، مع والدتها وأخيها؛ ولم تكن دون رفاق لأن عدة زميلات دراسة في بيروت «من أصل عراقي» كنّ يعشن في تلك المدينة. لكن أينما ذهبت كانت ترافقها حراسة لأن الاغتيال كان بانتظارها حتى وهي في بغداد، كما أن العودة إلى قومها ستكون انتحاراً. عندما جاءت تزورني انتظر الشرطي المكلف بمرافقتها عند المنزل حتى خرجت. ومع ذلك فهي مشتاقة إلى تلالها، مثل تلك الأميرة الميدية (من بلاد ميديا القديمة شمال غرب إيران) التي بنى زوجها الملك البابلي جبلاً اصطناعياً سماه «الحدائق المعلّقة» وهو اسم مشوش (الحدائق المعدّة للشنق).

تحدثت إليّ من منزلها في سنجار، وأجابت عن جميع أسئلتي عن عادات وطباع قومها مع تقدير النقاط التي كانت تدل على ذكاء مثقف. كانت أول امرأة يزيدية تتعلم. لقد خرج والدها إسماعيل

ـ وهو من العائلة الأميرية ـ عن التقاليد بإرسالها إلى المدرسة، وقد جعل فشل زواجها التالي من الأمير الحاكم ـ وهو رجل أكبر منها وغير متعلم ـ مدّعيّ العلم يهزون رؤوسهم قائلين: «أرأيتم لقد قلنا إنه لن ينتج أي خير من تعليم القراءة للمرأة».

عندما زرت اليزيديين للمرة الأولى في الشمال منذ حوالي ثماني عشرة سنة لم يكن هناك أي ولد يزيدي يذهب إلى المدرسة بالفعل، ولم يكن هناك إلا القليل من شيوخ الدين يستطيعون القراءة. كان التعليم ممنوعاً. أما الآن فالأمر مختلف في قربة بعشيقا ـ حيث أمضيت قسماً من نيسان هذا العام، يذهب كثير من الأولاد اليزيديين إلى المدارس المحلية الحكومية. في الواقع هناك معلم واحد في جبل سنجار. والآباء ـ ومعظمهم من المزارعين ـ لا يزالون غير متحمسين. فهم يخشون ـ لسبب ما ـ أن أولادهم إذا ذهبوا إلى المدارس فسيجدون العمل الزراعي يحطّ من قدرهم وسيتشوقون ـ وهذا ما يحدث غالباً ـ إلى أن يصبحوا كتبة في محال تجارية أو موظفين حكوميين. كان من واجب المدارس إزالة هذه المخاوف، وآمل أن يستطيع المعلمون اليزيديون، وهم الذين تربّوا في المدن، أن يغرسوا في تلامذتهم فخراً حقيقياً في العمل في الأرض التي ربتهم، بالإضافة إلى الاهتمام في أي شيء قد يحسن طرق الحراثة التقليدية. وستكون الاستعاضة عن تراثهم الطبيعي بكرسي المكاتب والمقاهي ـ بحياة الأفندي الفارغة ـ صفقة يُرثى لها. وفي أغلب الأحيان، يجد معلمو المدارس المتحمسين في نتائج الامتحانات الناجحة والوظيفة المكتبية هدفاً لكل متعلم، مهما كان أصله ـ وتكون النتيجة أن يترك ابن الفلاح قريته ويصبح سلعة كاسدة في المدن. وهذا ما يثير الشكوك حول

ذهب الجنيات الذي يضعه الأقزام عند باب الكوخ، وتكون عقوبته أن الذهب يتحول إلى فحم أسود.

أما بالنسبة للبنات فإن وقتهن سيأتي: وفي أثناء ذلك أتساءل كم تخسر هؤلاء النسوة الفلاحات لكونهن غير قادرات على كتابة أسمائهن أو قراءة عناوين السينما، هذه الأعمال التي غالباً جداً ما تكون النتيجة الوحيدة للتعليم في بلاد يندر فيها أن تفتح امرأة كتاباً أو تقرأه بعد ترك المدرسة ما لم تحصل على مهنة. لا، إن هؤلاء النسوة اليزيديات لا يعرفن القراءة. لا يستطعن قراءة جرائد الأزياء أو أعمدة الأخبار أو حتى الإعلانات عن العقارات المسجلة. لكنهن يطحنَّ الحبوب التي يجنيها أزواجهن، ويعملن في الحقول، ويخبزن ويطبخن ويحلبن المواشي، ويصنعن الزبدة، ويحكن ويصبغن وينظفن ويخطن ويغسلن الثياب. وفي كل يوم طيلة النهار يسمع المرء في القرى اليزيدية طرطقة العصي الخشبية بينما هن يخبطن غسيل العائلة عند ينابيع الماء، وهناك قطع كبيرة من الصابون المصنوع محلياً من زيت الزيتون، بجانبهن على الحجارة، بينما الأثواب والبذلات منشورة على الصخور الحارة كي تجف. وبرك الغسيل هي نوادي النساء: هنا يثرثرن وهنا يصنعن سمعتهن أو يفقدنها. كل هذا إضافة إلى عملية إنجاب وإرضاع الأطفال الذي لا تتهرب منه أو تتجنبه أي امرأة. سمعت عن كثير من التعاويذ لشفاء العقم، لكنني لم أسمع وسيلة أو تعويذة لمنعه.

قصدت أن أزور اليزيديين للمرة الثانية منذ عدة سنوات، لكن لا كمسافرة مستعجلة، بل لأبقى معهم مدة تكفي للتعرف على حياتهم وأعمالهم اليومية. في ربيع عام 1939، كنت على وشك الانطلاق عندما سرت شائعة انطلقت من البازارات بعد موت الملك الشاب

غازي المفاجئ والعرضي، أدت إلى حدوث مشاكل في الشمال. كانت المشاعر المعادية للبريطانيين سائدة هناك في المدارس، وفي الموصل قاد أولاد المدارس هجوماً على القنصلية البريطانية. لكن قبل ذلك بوقت قصير، كان هؤلاء الطلبة أنفسهم ضيوفاً على القنصل، وكانت ثقته بودهم هي ما دفعه للنزول إليهم دون سلاح، وأدى إلى هذا الهجوم الوحشي الذي سبب قتله. لم يكن ذلك العمل غلطتهم... كانوا يعتقدون أننا قتلنا ملكهم بطريقة خادعة، وردوا على الخيانة المزعومة بالخيانة. ولا تزال الكذبة تراوح مكانها، لأن الحقيقية شديدة البساطة بحيث لا يمكن تصديقها من قبل جيل تعوّد أن يتوقع المؤامرة من كل أوروبي. من سيئات الحقيقة في أي بلد شرقي أنها عارية. يتوقعون منها أن تكون ككل امرأة محتشمة مغطاة على نحو جيد ومحجّبة. ولهذا السبب لا يكون للتصريحات الحقيقية الواضحة على المذياع إلا فرصة قليلة من التصديق. يهز مدّعو العلم المغرورون من رواد المقاهي رؤوسهم: «كل هذا دعاية. لكل من الجانبين دعايته. كلا الجانبين يكذب هذا أمر طبيعي».

ولأن الموصل كانت نقطة انطلاقي، فقد أفسدت عليّ هذه القضية التعيسة خططي، ولم يحدث حتى ربيع هذا العام ـ 1940 ـ في الهدوء الذي سبق العمل الألماني العدائي، أن كنت قادرة على القيام بها. جاءت زيارة ونسة إلى بغداد في وقتها، لأنها بكل طيب أعطتني رسالة إلى بعض الأصدقاء في بعشيقا إضافة إلى أنها أشبعت فضولي حول كثير من الأشياء التي كنت أود معرفتها.

هنا عليَّ أن أعتذر عن هذا الكتاب، فهو ليس مساهمة أدبية جادة عن هذه الطائفة، بالرغم من أنني عندما ذهبت كان السبب

الظاهري لزيارتي أن أرى كم كان احتفال الربيع اليزيدي مشابهاً للنماذج الأخرى من الاحتفالات الربيعية في بلاد قديمة ومحافظة. لكن عندما كنت هناك، قادني الفضول الأنثوي إلى طرقات فرعية بحيث إن من يريد حقاً دراسة هذا الشعب المثير للاهتمام على نحو علمي وكامل، قد يجد هنا نبذات ونتفاً من معلومات قد تكون مفيدة لهم. آمل بكل إخلاص أن يضطلع متحقق ما مخلص وذو خبرة بالمهمة، لأنني مقتنعة أن معظم ما كتب حتى الآن عن اليزيديين ليس إلا خدوشاً سطحية، ـ غير صحيحة في معظمها ـ تعتمد على التقوّلات، وليس على بحث مباشر مستفيض. ومن دون معرفة جيدة للغة الكردية قد يكون مستحيلاً الحصول على ثقة الزعماء الدينيين أو فهم الأغاني التي ينشدها القوالون (Qawwals).

في الكتاب الذي كتبته منذ ثمانية عشر عاماً، كررت كثيراً من الحكايات عن اليزيديين، والتي كانت شائعة بين جيرانهم، وأخذتْ حكاياتٌ أخرى مادتها من مصادر مشابهة، وفي بعض الأحيان استعرت من فصول كتابي. إلى جميع هذه الحكايات والتقارير والحكايات الحالية أنظر بحذر وريبة شديدين. لقد علمتني السنوات التي قضيتها في دراسة أقلية أخرى وديانة سرية أخرى كم تكون الإشاعات المسموعة غير دقيقة. لذلك لا أكرر في هذا الكتاب إلا ما أجمعه من اليزيديين أنفسهم الذين يتحدثون اللغة العربية أو ما رأيته بأم عيني.

يقال عن اليزيديين إنهم عبدة الشيطان. وبغضّ النظر عن كون شيخهم «عَدِيُ بْنُ مُسَافِرْ»[1] ـ وهو قديسهم الرئيس ـ كان يُعرف في

(1) جاء في كتاب الأعلام للزركلي تاريخ المولد: (1074 ـ 1162) ميلادي =

عصره أنه مسلم سنّي، فإن انطباعاتي الشخصية مناقضة لذلك. لا أستطيع أن أصدق أنهم يعبدون الشيطان أو حتى يستعطفون روح الشر. وبالرغم من أن رئيس الملائكة السبعة، المكلفين - بحسب عقائدهم السديمية - بحكم الكون، واحد ممن يسمونهم «طاووس ملكي» (The Peacock Angel) فهو ملاك النور وليس ملاك الظلمة.

«يتحدثون عنا على نحو خاطئ». قال القوال لي في إحدى الأمسيات، «إننا نعبد واحداً شريراً». في الواقع، يمكن أن اليزيديين أنفسهم، بمنعهم أي ذكر لاسم الشيطان (Satan)، كتشهير بهذا الملاك، عزّزوا الفكرة بأن «طاووس ملكي» مشابه للملاك الأسود الساقط الذي كان جميع الناس يدعونه «الشيطان المغوي»[1]. في واحد من الكتب المقدسة للصابئة المندائيين

---

= والوفاة (467 - 557) هجري:
عَدِيُ بْنُ مُسَافِرْ: هو عدي بن مسافر بن اسماعيل الهكاري، شرف الدين أبو الفضائل من ذرية مروان بن الحكم الأموي، من شيوخ المتصوفين، تنسب إليه الطائفة العدوية. كان ناسكاً مشهوراً، ولد في بيت قار من أعمال بعلبك، وجاور بالمدينة أربع سنوات، وبنى زاوية في جبل الهكارية من أعمال الموصل، فانقطع للعبادة، وتوفي ودفن بها.
انتشرت طريقته في أهل السواد والجبال، وغالى أتباعه (العدوية) في اعتقادهم فيه، وأحرق قبره سنة 817 هجرية 1414 ميلادية، فاجتمع العدوية عليه، واتخذوه قبلة لهم.
ويذكر اسماعيل بك جول في كتابه (اليزدية قديماً وحديثاً): ذاكراً غلوّ اليزيدية فيه، أنهم يقولون: إنَّ زيارة تربته في جبل لاليش أفضل من الحج وزيارة القدس.
في كتاب الشرفنامه الكردية ص23 دفن في جبل الألش من أعمال الموصل.

(1) أَلْمُغْوِيْ = الغاوي. (اسم الفاعل) من غوى يغوي.

( Mandaeans) يُرسم الطاووس الملك، الذي يدعى «مالكا تاوسا»، كملاك مكلف بمصير العالم، أمير عالم النور الذي غرق في ظلمة المادة بسبب قَدَره المقرر من الله. تحدثت في هذا الشأن مع رئيس القوالين في بعشيقا ـ هذا الرجل الشريف ـ الذي لم يكن صريحاً جداً في هذا الشأن، لأن إحدى مفاتن اليزيديين تكمن في أنهم ليسوا إيجابيين أبداً حول أمور اللاهوت. بدا لي من المحتمل ـ بعد هذا الحديث ـ أن الطاووس الملكي ـ على نحو ما ـ رمز للإنسان نفسه، وهو مبدأ إلهي يختبر تجسيداً للظلمة، التي هي المادة والعالم المادي. الشر يصدر عن الإنسان أو ربما من أخطائه وعثراته وولوجه العنيد عبر ممرات مغلقة فوق ممر الكون الشديد الانحدار. وفي تجسيدات متكررة يطرح أرضانيته ـ وشروره، أو إذا كان مرتبطاً بالمادة، ربما يفنى كما يفنى الزيف والوهم اللذان يكوّنانه.

أقول إن هذا يبدو لي تصوراً محتملاً، لكن ليس لدي أي ذرة من إثبات أن هذه هي النظرية اليزيدية، ولا أي دليل وثائقي أو أي رأي من الشيخ الكبير (Baba Shaikh)، الذي هو الرأس الديني الحي للأمة. شرح لي أحد اليزيديين النظرية الغريبة أن الخبرات المتراكمة لكثير من الناس الأرضيين تجمعت ـ في يوم البعث ـ في الروح الأعلى (over-soul)، الحقيقة المطلقة، لكن الأفراد الذين عاشوا في الماضي هذه الحياة استمروا ككيانات منفصلة، لكن لم يشرح لي كيف كان من الممكن حدوث ذلك.

لكنني كما ألمحت سابقاً، لست مهتمة بالعقائد اليزيدية، بل بهم أنفسهم وبشكل حياتهم اليومية كما رأيتها لذا لا ترى في هذا الكتاب تفصيل عن عقائدهم. ومهما كانت العقائد الغامضة

لزعمائهم الدينيين، فإن ديانتهم التي يمارسونها هي وحدة وجود صوفية (Mystical pantheism). فاسم الله «خودا» (Khuda) دائماً على ألسنتهم. والله بالنسبة لهم موجود في كل مكان، لكنه كالصابئة، والكواكب ونبع الجبل النقي، والشجرة الخضراء الحية؛ وحتى في الكهف وحجر المعبد المقدس تختبئ أسرار وأعاجيب الله.

أما بالنسبة لاستعطاف الشيطان، فإنني أستطيع القول بصدق أنني أجد بينهم من هذا الاستعطاف أقل من جيرانهم. فالمسلمون والمسيحيون يرتدون ثلاث تعويذات مقابل واحدة يزيدية، وبالرغم من أن اليزيدي لا يعارض ارتداء تعويذة ضد العين الشريرة، فإن كثيراً من أطفال عبدة الشيطان المزعومين هؤلاء يمضون من دون تعويذات، لكن قليلاً من الأمهات المسلمات أو المسيحيات يجرؤن أن يأخذن أطفالهن إلى الخارج من دون خياطة ثيابهم بأزرار زرقاء، أو ودعات صفراء، أو قطع من كتابات مقدسة، من القرآن أو الكتاب المقدس. والانطباع الثالث هو نظافتهم. ففي قرية بعشيقا لم يكن هناك أي نفايات أو وسخ أو أكوام من العلب الملقاة، أو الزجاجات المبعثرة. وكي أكون صادقةً، رأيت قليلاً من العلب الصدئة، لكنها كانت تجمع بعناية وتُملأ بالماء وتؤخذ إلى أحد المقامات الدينية لتترك هناك كتقدمة. كانت صفائح البترول تستعمل لخزن زيت الزيتون الثمين الذي تمّ عصره منزلياً، بحيث إن الأباريق والجرار لا تزال تستعمل لحمل الماء. نادراً ما كان يستعمل الورق. وما يشتريه واحدهم في البازار يؤخذ إلى البيت في منديل أو في زاوية ثوبه. ليس هناك أي رائحة مقززة لوسخ إنساني كما هو موجود في معظم القرى العربية في العراق

الأوسط أو الجنوبي أو في ضواحي المدن الأكبر، حيث يؤدي أي خندق أو جدار عمل المرحاض. ولأن الجرائد نادرة فإنك لا ترى أي مجموعة من الأوراق الملوثة. لا أعرف ماذا يفعلون بحيواناتهم النافقة، لكنني لم أرَ ولم أشم رائحة أي جثث متعفنة، لكن حتى في المدن الحديثة كبغداد كان السير في خارج منطقة المدينة قد يعني استنشاق الهواء الملوث، بسبب كسل عمال النظافة في البلدية الذين يلقون بالحيوانات الميتة خلف المدينة كي يوفروا على أنفسهم عناء مواقد الإحراق. مدحت مختار القرية على هذا وأجاب ببساطة أنهم أناس نظيفون[1]. لكن تعود للسلطات السمعة الحسنة بنقل الماء من النبع النقي عندما يخرج من الجبل عند رأس العين وجلبه بالأنابيب إلى مركز القرية بحيث تستطيع النسوة ملء أوانيهن بالماء الصالح.

عند الشيخ عدي أدركت كم يمكن أن يكون أناس مثلي خطراً على مثل هذا المكان عندما رأيت نتيجة إعطائي صفحة فيها صور من جريدة مصورة إلى أطفال حارس المزار المقدس. وسرعان ما تعبوا من النظر إلى هذه الصور، مزقوها إلى قطع وأحرقوها وحملتها الريح حول الساحات المملوءة بالأزهار في المقام المقدس.

وبالعودة إلى هذا الكتاب، سيكون أمراً متعباً سرد جميع المحادثات التي أدت إلى هذه المعلومات كالتي ذكرتها هنا عن الزواج والولادة ومثل تلك، لذلك حبكتها بطريقة أخشى أن تكون عشوائية إلى حد ما، لتصبح قصة كاملة. لذلك فالكتاب مجرد انطباع شخصي عن الأحداث والصداقات اليومية.

---

(1) يعلق لايارد على النظافة اليزيدية..

شكّلت إقامتي لمدة شهر في الربيع مع اليزيديين خبرة جميلة جداً، وإذا فشلت في نقل نكهتها وجودتها، فإن ذلك يعني أنني غير مؤهلة. إن هروبي في وسط حرب أوروبية إلى أماكن أمان وجمال مطلق خبرة يتقاسمها المرء مع الآخرين بسرور.

أخبرني أحد أصدقائي القدامى في مدينة بغداد، مكرراً من دون أن يدري اعتقاداً قديماً، أنه إذا كان بالإمكان تخليص الأذن والروح من جبلة هذا العالم فإن المرء يستطيع أن يسمع في لحظات نادرة ومميزة الأنغام المنفصلة التي يطلقها العالم والشمس والأرض والقمر والنجوم بينما هي تتحرك وتهتز طبقاً لقانون وجودها(*). قال إن كل ذلك يختلط في تناغم تام ليكوّن أنشودة فرح رائعة. ومهما تكن هذه الموسيقى ومهما يكن هدفها أو عدم جدواها، فإنني تخيلت لحظة أو أكثر بقليل، أثناء أسابيع هروبي هذه، أنني قبضت على شعاع عابر، وصدى ضعيف لإيقاعات جميلة أبدية بعيدة جداً عن صليل وصخب الإنسان.

---

(*) هذه نظرية الاسماعيلية، انظر كتاب (إخوان الصفا) وهي مأخوذة عن الإغريق، حيث إن في كل سماء جرماً من الأجرام وحركتها تؤدي إلى هذه الأنغام السماوية الربانية. (المراجع).

## الفصل الأول

# بعشيقا (Baashika)(*)

«لا عن الحروب، ولا عن الدموع، بل عن بان Pan (إله الطبيعة) سيغنّي، وعن الرعاة غنّى غناءً حلواً...».

«ثيو كرتيوس»(**)

كان عليَّ أن أنزل عند أصدقاء لي في الموصل، وكان مضيفي الرائد «ك»، هو الذي تجشم عناء تدبير الإقامة لي، بإذن من السلطات، في القرية اليزيدية التي اخترتها لتكون مركزي الرئيس. ولا يمكن المرور على الطريق إليها في الطقس الماطر، وشعرت

(*) Pan: إله عُبد في أركاديا ثم انتشرت عبادته في كل أرجاء اليونان تعني كلمة بان: الكُل، وهو بالأصل حامي القطعان والرعاة والصيادين. كان بان ذا هيئة عفريتية برأس ذي قرون ولحية وله من التيس قدمان وذيل أما جذعه فجذع إنسان. عندما قدّمه أبوه (هرمس) إلى مجمع الآلهة في الأولمب أصبح موضع سخريتهم. وبان يُعدّ إلهاً للخصب أيضاً والقوة الجنسية. (المراجع).

(**) شاعر إغريقي عاش في القرن الثالث قبل الميلاد في صقلية، يُعتبر مؤسس الشعر الرعوي الريفي. (المراجع).

بالقلق عندما أراني الرائد «ك» حفراً يبلغ عمقها أكثر من بوصة واحدة في مساكب زهوره، ونباتات مسحوقة على الأرض بسبب البَرَد الذي هطل في اليوم السابق. كنت لا أزال أكثر قلقاً عندما ادلهمت السماء كما لو أن طيور رخ السندباد البحري كانت تقترب. وبالتأكيد تلا ذلك مطر غزير ومفاجئ لكن عائلة «ك» هدّأت من روعي. فالشمس في الصباح التالي، والريح الملائمة ستجفف الطريق في مثل هذا الوقت من السنة. هذا ما أكدوه لي.

وهكذا كان. استيقظت في نهار سماؤه زرقاء غسلته الأمطار. وبينما كنت أزور الحاكم والمختار، كانت الطرقات تجف تحت شمس ساطعة وريح منعشة، وهكذا كان كل شيء ملائماً لانطلاقنا. جعل التفكير الطيب المسؤولين المحليين يخصصون لي شرطياً يزيدياً حارساً ومرشداً. وهو شاب، يبدو أميناً، يتحدث الكردية كما يتحدث العربية لذلك استطاع أن يعمل كمترجم عندما كانت اللغة الأخيرة تفشل. لم يكن ضرورياً لي للحماية لكنه أثبت أنه مرافق سار. حمَّلنا أمتعته وأخذناه معنا في سيارة الأجرة وانطلقنا.

كانت الطريق إلى بعشيقا لا تُدعى هكذا إلا بحسب التقاليد فقط. فهي مسار غير فعلي عبر حقول القمح وكانت لا تزال طرية جداً وموحلة. كانت السيارة تنطلق باضطراب، وكان السائق من حين لآخر يسير بسرعة متزايدة عبر القمح لكي يتجنب إحدى السبخات. وفي أسوأ الأمكنة كنا نخرج من السيارة ونمشي، وكان ذلك ممتعاً، لأنه بالرغم من أن أحذيتنا أصبحت تحمل الطين عندما كنا نسير عبر حقول القمح والفول، كانت القبّرات تغني بمرح، والتلال وجبال الثلج تصبح أقرب ميلاً بعد ميل، والأزهار البرية تنمو بين الأعشاب. سررت عندما اكتشفت أن

«جِدّان» ( Jiddan) ـ شرطينا ـ قد نشأ بين التلال وكان يعرف أسماء الأزهار أحياناً بالعربية وأحياناً بالكردية. لم ينقطع عن الاستمتاع بلهفتي كي أعرف أسماء الأزهار والأشجار والأعشاب. ماذا يهم؟ وفي الواقع ماذا يهم ذلك؟ لكنني أحببت أن أصبح قادرة ـ على سبيل المثال ـ أن أعرف اسم النوفل (البرسيم)[1][*] الأصفر الحلو جداً، الذي كان ينمو في كل مكان، وأن أتعلم الأسماء المألوفة لنباتات الحقول وأعشابها التي يعرفها أبناء البلاد. ربما كانت حواء ـ في جنة عدن ـ هي التي تعطي الأزهار أسماءها، بينما كان آدم يعطي الحيوانات أسماءها.

كنت قد زرت بعشيقا من قبل. تقع عند سفوح تلال سلسلة جبال حمرين (Hamrin) بالضبط، وكانت قباب المقامات اليزيدية المخروطية والمطلية بالكلس ترتفع فوق بساتين الزيتون المحيطة بها. مررنا بجانب هذه البساتين، ثم بجانب كنيسة جديدة ومهيبة، لم تكن قبيحة أبداً لكنني اكتشفت أن المسيحيين اليعاقبة في القرية لم يكونوا يحبونها. يقولون: «لقد بناها البابا لطائفة اللاتين بأموال إيطالية. أما نحن فقد دفعنا لكنيستنا من مالنا الخاص». ربما عليَّ ألا أطلق عليهم اسم اليعاقبة، لأنهم يفضلون أن يُطلق عليهم اسم

---

(1) واحدة من ثلاثية الوريقات. يقترح السيد إيفان غست أنها Trefolium procumbens.

(*) البرسيم: هو النفل ويدعى أيضاً (رجل الأرنب): Tripolium Arvense أصفر الأزهار.

ومنه نوع يسمى: البرسيم الأحمر: Tripolium Pratense أحمر الأزهار.

ونوع آخر من النفل أو البرسيم: Tripolium Repens أبيض الأزهار.

من كتاب (النباتات الطبية) لأحد أساتذة كلية الزراعة بالعراق. (المراجع).

المسيحيين الأرثوذكس السوريين. ليس لهم أي علاقة بالبابا وليس للبابا علاقة بهم، ويعتبرون طائفتهم الشرقية القديمة أرفع من طائفة اللاتين. الكنائس الكاثوليكية الشرقية (Uniate) تُموّل ويقدّم العون المالي لها: والطوائف غير الشرقية (Non-Uniate) فقيرة لكنها تفخر باستقلالها.

نتحدث عن هذا فيما بعد. اهتممنا فوراً بالوصول والإقامة في البيت الصغير الذي خصصوه لنا. كان بيتاً مكنوساً ومزخرفاً. كان أثاثه سريرين وطاولة ومقعدين وأربعة كراسٍ. وكان ذلك كل ما تحتاج، وبالواقع أكثر مما تحتاج، فقد كان لديّ من قبل سرير مخيم وبعض الأواني والمقالي والأدوات المنزلية الضرورية. طلبت من «أ» أن تأتي وتقضي عدة أيام معي إن كانت تستطيع، وأوصيتها، إذا كانت ستأتي، أن تجلب معها فراشها وكأس الشرب وصحنها. كان البيت يتألف من مطبخ صغير وغرفة على مستوى الأرض، وغرفة معيشة وغرفة صغيرة خارجها، وكلتاهما على ارتفاع درجتين عن الساحة المعشوشبة. كان هناك درج يؤدي إلى السطح وفي منتصفه كالعادة المرحاض الشرقي، وهو حفرة في الأرض. هناك دور سفلي جاف مخصص لخادمي ـ مخائيل ـ والغرفة الصغيرة خارج غرفة الجلوس خصصت لـ «أ» إن كانت ستأتي، واختار «جدّان» أن ينام على السطح. وهكذا كنا جميعاً مرتاحين ومسرورين.

تناولت الغداء للتو، فتحت حقائبي وذهبت لأسلم على مختار القرية الذي كان جالساً مرتاحاً على مقعد أمام مركز الشرطة، عندما وصل الرائد «ك» الذي كان مستغرقاً في التفكير العميق، ومعه سجادة وبعض الستائر وشيء أو شيئان آخران ظن أنهما سيعززان راحتنا. لم

يكن لديه الوقت ليبقى. وضع أشياءه المفيدة وانطلق من جديد على الطريق الموحلة إلى الموصل. كان أول شيء يجب أن أفعله هو الاتصال باليزيديين أنفسهم. لذلك أخرجت رسالة كانت «ميرا ونسة» قد كتبتها إلى صديقها رشيد من أجلي وهو ابن «صديق». وذهبت أبحث عنه. كان لشارع القرية الرئيس خندق عميق يمر في وسطه لينقل سيول الشتاء، لكن بالرغم من أنه كان فارغاً فإنه لم يكن يستعمل كمقلب للنفايات. كان جدان يمشي باتزان خطوة أو اثنتين خلفي، وبالرغم من أننا كنا نتحدث طول الطريق، وكان الحديث يجري من فوق كتفي اليسرى.

كان منزل صديق يقع على الطرف البعيد من بعشيقا ولما كان رجلاً ذا ثروة فقد كان واحداً من البيوت الأكبر في ذلك المكان. قادنا ممر حجري مقنطر في ظله بعض المقاعد، إلى باحة أكبر فيها كثير من أشجار الفاكهة ويجري فيها جدول رائق في قاع مرصوف. على كلا جانبي هذه الباحة هناك غرف معيشة، تظلل ما كان منها على أحد الجانبين عريشة كرمة. خارج هذه الغرف كانت هناك سيدة عجوز ترتدي العمامة الكردية منشغلة في بعض الأعمال المنزلية. لم تكن تتكلم سوى الكردية لكن جدان كان يفسر لنا عندما اقتربت لتستقبلنا بحسن ضيافة وتضع الكراسي لنا في الظل، بينما ذهب أحدهم يبحث عن ابنها، أخبرتني أن زوجها صديق كان قد ذهب إلى أراضيه في جبل سنجار، وهي تأمل عودته في عيد الربيع. وبينما كانت تتحدث وصل ابنها رشيد. كان شاباً حسن الطلعة، يشع وجهه حيوية وذكاء، مما يجعل المرء يعبر له فوراً عن الحب والاحترام. سلمته رسالة «ميرا ونسة» لكنه اعترف فوراً أنه لا يعرف القراءة. لا يخجلون هنا من الاعتراف بالأمية.

فالقراءة والكتابة شيئان خاصان بالكهنة، لأن هذين الأمرين المكتبيين الهادئين كانا يعتبران بين القبائل ـ حتى الآونة الأخيرة ـ محتقرين من قبل الشيوخ، الذين كان عند كل واحد منهم كاتب خاص. وكما ذكرت سابقاً ـ كان التعليم في المدارس بين اليزيديين أمراً يمنعه الدين. لكن رشيد له أولاده الذين يتعلمون وله أخ يعمل معلماً في جبل سنجار. أخبرني وهو يضحك أن تعليم أخيه جعله محترماً جداً بحيث إنهم يأخذون رأيه في كل شيء. «لم يكن معلم مدرسة فقط، بل طبيباً ومحامياً وقاضياً وحتى أنهم كانوا يطلبون منه كتابة التعاويذ لهم».

شغل نفسه بتحضير الشاي لي، بإيقاد الخشب في كانون نار وغلي إبريق الشاي في ظل متغير لأشجار كرمة حديثة الأوراق، ثم صبّ الشاي البني الصافي في كؤوس فارسية مخصورة في الوسط يدعونها استكانات (Istikans). وفي تلك الأثناء قرأ جدان له الرسالة، وبعد ذلك حاولت أن أشرح له لماذا جئت. كنت أريد أن أرى احتفال الربيع، وطلبت إليه أن يدلني على أفضل مكان أكون فيه في أيام الاحتفال؛ بعشيقا أم الشيخ عدي؟ الشيخ عدي هي مكة اليزيديين، المقام الكبير الذي يسافر إليه الجميع مرة في الحياة على الأقل وفي كل عيد اجتماع إذا أمكن. كان عيد الاجتماع ـ الذي يدعى أحياناً العيد الكبير ـ يقع سنوياً في أوائل الخريف، لكن عيد الربيع «ساريسال» أو «سارصالح» (Sarisal أو Sarsaleh) يقع في أول يوم أربعاء من نيسان حسب التقويم الشرقي، وهو يتوافق في هذه السنة مع منتصف نيسان الغربي.

فكر رشيد وقال: «حضرتك جئت إلى شيخ عدي. لذلك أنت تعرفين أن في الشيخ عدي هناك المقام والوادي، ولكن ليس هناك أي

قرية. إنهم يحتفلون بالعيد هناك، هذا صحيح، لكن ليس بالشكل الذي نحتفل به هنا. هذا العيد هو عيد الشعب. وهنا الكثير من الناس ويأتي اليزيديون والأكراد من جميع التلال والقرى المجاورة ليروا العيد والطوافي ( tawwafi). هنا العيد أفضل بكثير من الشيخ عدي. حتى الناس من الموصل وكركوك يأتون للتفرج على الرقص».

أيّده جدان بالقول «من المعروف جيداً أن العيد في بعشيقا أفضل منه في أي مكان آخر».

ومن دون أن ألتزم بأي قرار بعد، حاولت أن أخبره غرضي الثاني ـ الذي هو ـ من دون فضول ـ أن أتعلم شيئاً عن شعبه وديانته». قلت «أنا متأكدة أن كثيراً مما يقوله الآخرون عنكم غير صحيح، ولقد تعلمت أن ما أراه بأم عيني وأتأكد منه بنفسي هو الصحيح!».

وعد رشيد أن يساعدني. قال: «أما بالنسبة للديانة فإنني لا أستطيع مساعدتك. لأننا نحن العلمانيين لا نعرف إلا القليل. قد يكون من الصعب عليك. سأحضر لك بعض القوالين لكن....». توقف عن الكلام بارتياب ثم أضاف: «لا شك أنك عندما تَصلين إلى الشيخ عدي سيخبرك الشاويش ( Shawish)(*) الكثير عن ديانتنا لأنه يتحدث العربية كالكردية ويسكن دائماً عند المزار».

هنا أجد لزاماً عليّ أن أشرح أن الكهنة اليزيديين متدرجون ومتفرعون. فالزعيم الديني ـ بابا الديانة ـ هو البابا الشيخ (Baba Shaikh) الذي يسكن في شيخان (عين سفني) (Ain Sifni). هو

(*) الشاويش = الشرطي برتبة العريف. (المراجع)

رئيس كل الشيوخ، الذين يشكّلون أعلى مراتب الكهنة. من المفروض أن الشيوخ هم السلالة المباشرة لرفاق الطائفة التي أسسها الشيخ عدي في أوائل القرن الثاني عشر، بالرغم من أنهم كانوا طاهرين ـ كما تقول الحكاية اليزيدية ـ بحيث إنهم خلقوا أولادهم من دون مساعدة النساء. لكن هؤلاء الأولاد الذين ولدوا على نحو عجائبي، أخذوا زوجات لهم وأسسوا عائلات. وعائلات الشيوخ من نموذج عرقي مختلف على نحو ملحوظ عن الأشخاص اليزيديين العلمانيين، فهم أكثر سمرة وأكثر سامية من ناحية المظهر. وهم يمارسون الحقوق الإقطاعية تقريباً على العلمانيين، وكل عائلة علمانية ترتبط بعائلة شيخية معينة. وطبقة الشيوخ فقط هي التي تُدَرَّس العقائد الداخلية للعقيدة، وحتى وقت متأخر لم يكن أحد يعرف القراءة والكتابة سوى الشيوخ وبصورة خاصة عائلة الشيخ حسن البصري. ينظم الشيوخ مهمة الزواج والولادة والوفاة، ومن قبيلة الشيوخ يختار كل علماني وعلمانية «أخاه الآخر» أو «أخته الأخرى» ومن المؤكد أنهما سيخدمان معاً في هذا العالم والعالم الآخر. وسنتحدث المزيد عن هذا في فصل لاحق. إضافة إلى ذلك لا يجوز للشيخ أن يتزوج من خارج طبقته، ويكون نصيب الابنة التي تتزوج خارجها الموت. هناك موظف فرعي لبابا شيخ يدعى بيش (Pesh Imam) إمام[1]. وتحت مرتبة الشيخ هناك البير (Pir). والبير يجب أن يكون حاضراً أيضاً في المناسبات الدينية، ويعمل إلى حد ما كبديل جاهز للشيخ، لأنه يمكن أن يأخذ مكانه إن لم يكن أي شيخ متوفراً. ويُعتقد أن

(1) يذكر ليسكوت خطأً أن بابا شيخ وبيش إمام هما شخص واحد.

له بعض القوى السحرية. ويشكل القوالون (Qawwals) المرتبة الدينية التالية. هم المنشدون كما يوحي بذلك اسمهم. وليست الأناشيد التي ينشدونها مع الموسيقى في كل المناسبات مكتوبة، بل هي كلمات وموسيقى تعلموها في شبابهم المبكر ويجري تناقلها من الأب إلى الابن. يجب أن يكونوا على خبرة باستخدام الدف وهو طارة كبيرة و(الشَبَّاب) وهو مزمار خشبي. والقوال مثله مثل الشيخ والبير يجب ألا يتزوج من خارج طبقته ولا يقص شعره أو لحيته. يعيش معظم القوالين في بعشيقا أو في بحزاني (Bahzane) - القرية الأخت لها - وهم الذين يسافرون إلى أمكنة قريبة وبعيدة ومعهم صورة الطاووس المقدس للزيارة، ويدفع المؤمنون لذلك أموالاً، بحيث إنهم رجال العالم، لأن رحلاتهم في الآونة الأخيرة شملت روسيا وتركيا وإيران وسوريا. والمرتبة الوراثية التالية هي الفقير (الفقراء) (Faqir) لكنني سأتكلم عنهم عندما أتحدث عن نزولي في الشيخ عدي. وهناك مراتب غير وراثية أيضاً، «الكوتشيك» (Kocheks) وهم نسَّاك لا يرتدون أي شيء سوى الأبيض، ويكرسون أنفسهم لخدمة المزارات ويُنسب إليهم رؤية تجليات وقدرات على التنبؤ. وأخيراً الراهبات الفقيرات (Faqriyat) اللواتي نذرن العزوبة يرتدين الثياب البيضاء ويقضين حياتهن في خدمة المزارات الدينية في الشيخ عدي. وبالنسبة للشاويش الذي تحدث عنه رشيد، يقيم هناك على نحو دائم، لكن طالما لم أره أو أتحدث إليه شخصياً، فإنني لست متأكدة من مهماته وقدراته.

ورشيد هذا - الحاضر للمساعدة - طلب فوراً قوالاً كان يسكن في القرية: وفي أثناء ذلك شرعت في سرد ما أريد. قلت إني كنت آمل أن أتعلم شيئاً عن الطرق اليزيدية، كيف كانت النساء يعشن

ويدبرن أمور بيوتهن ويربين أطفالهن، ويعشن حياتهم اليومية. قلت إنني أود أن أتحدث إلى الداية (القابلة) القروية وأن أذهب إلى عرس إذا كان هناك عرس. كانت الداية متوفرة، كما أجاب رشيد. قال إنه سيرسلها لي، لكنني ربما سمعت أنه في شهر نيسان القادم كان الزواج ممنوعاً؟ من المؤسف أنه كان هناك عرسان في القرية في الأسبوع السابق فقط.

قلت ضاحكة: «لا يمكنني طلب هذه الأمور؛ وإضافة إلى ذلك ساعدت مرة في عرس يزيدي عندما نزلت مع ميركم (mir) في «باعذري» (Ba'idri).

## الفصل الثاني

# عرس يزيدي

«في سبارطة، مرة، جاءت إلى بيت مينيلاوس(*)
ذي الشعر الأشقر، عذراوات وفي شعورهن زهرات
الياقوتية في ريعان جمالها ..... ».

ثيوكرتيوس/الأنشودة الرعوية XVIII

لن أنسى بسهولة ما رأيت عندما حضرت بالمصادفة عرساً يزيدياً في شهر تشرين الأول، في قرية باعذري، حيث كنا سنقيم تلك الليلة مع زوج ونسة «المير» في قصره أو قلعته المحاطة بالأشجار المقدسة. كان الرجال والنساء يرقصون على المنحدرات على أنغام المزمار والطبل وكلهم يرتدون أكثر الألوان بهجة والحلي الفضية الضخمة، وكانت ألبسة رؤوس النساء تتلألأ في الشمس بينما يترنحن ويتمايلن مع الموسيقى. تلك كانت رقصة الجبل الدائرية ـ الدبكة ـ والتي كنت سأراها فوراً في شكلها

---

(*) Menalaus ملك اسبرطة، أخو أگامنون وابن آتريوس، زوج هيلين التي هربت مع بارس ابن ميريام ملك طروادة وعلى إثر ذلك قامت حرب طروادة لمدة عشر سنوات. (المراجع)

الأصلي الديني في عيد الربيع اليزيدي. كانت العروس ـ ذات الاثني عشر ربيعاً تجلس في غرفة علوية في بيت حميها في شبه ظلمة، لأن حجاباً كان قد أسدل عبر منتصف الغرفة حيث كانت تجلس على فراش عرسها، صامتة كما تقضي الأعراف. قالوا إن الشمس يجب ألا تشرق عليها مدة أسبوع.

كانت ميرا ونسة نفسها هي التي أخبرتني معظم ما أكتبه هنا، دفعها إلى ذلك الأسئلة التي لن أذكرها.

قالت إن الوالدين هما اللذان يدبران الزواج، لكنهما يكونان قد عرفا رغبة الابن أو الابنة المعنيين. يفاتح والدا الشاب والدي العروس المحتملة بالموضوع. ويسأل الأب ابنته إن كانت تقبل، ويكون سكوتها إقراراً. وإذا كانت العملية بغيضة لها فعندئذٍ يسمح لها بالتكلم علناً والرفض. وعند موافقة العائلتين يذهب والد العريس ـ يرافقه شيخ وبير ـ إلى والد الفتاة لمناقشة المهر (بالكردية النقط: Nekht). وعندما يتم الاتفاق على ذلك ـ ويكون مبلغ 40 ديناراً المبلغ المتوسط لعائلة ذات موارد مالية متوسطة ـ يكتب الشيخ الاتفاقية على الورق ويضع خاتمه على الوثيقة ثم يتلو الصلوات طالباً البركات من الملاك الطاووس والملائكة الأخرى لهذا الاتحاد. تعتبر عشيرة الشيخ حسن على نحو خاص محظوظة في الزواج والشيخ من هذه العشيرة ( sinsila) يجب أن يكون حاضراً عند كل عرس. يهدي الشيخ العروس بعض التراب من مقام الشيخ عدي، وبالمقابل تعطي مالاً له وللبير أو قد تكون هدية عينية مثل خروف أو ماعز. تتوقف قيمة الهدية على موارد العائلة المالية. والفترة ما بين هذا الاحتفال وذهاب العروس إلى بيت المستقبل تختلف: قد تكون عدة أيام أو بضع سنوات.

قبل يومين من إتمام الزواج، تأخذ العروس حماماً ساخناً، ومنذ تلك اللحظة يجب ألا ترتدي شيئاً غير أبيض. وفي اليوم التالي يتم صبغ يدي العروس وأيدي جميع رفيقاتها بالحنة. يتم تحضير صحن كبير من الحنة والدوران به إلى بيوت الجيران والأصدقاء وأحياناً إلى القرية كلها. تأخذ النسوة والبنات بأنفسهن من الحنة ويضعن المال في الصحن هدية عرس.

وإذا كانت العروس من قرية أخرى، فإن جميع البنات والشباب من تلك القرية يسافرون إلى قريتها في يوم ما قبل العرس، والبنات يركبن كل ثلاث أو أربع على بغل، لكن الصبيان أو الشباب يركبون أحصنة تعدو بهم في الموكب يغنون ويطلقون النار في الهواء. ينام الشباب ضيوفاً في بيوت مختلفة، وتبقى البنات تلك الليلة مع العروس. وعند حوالي الساعة الرابعة صباحاً تنهض النسوة والبنات ويذهبن إلى العروس ويلبسنها ثياب الزفاف والحلي، وتبقى هي صامتة تماماً. وإذا استطاعت أن تبكي، وإن استطاعت الوالدة أن تبكي أيضاً فيكون ذلك نذير خير. لا يهم كم تشعر كل منهما بالسعادة في داخلها لهذا الزواج، فالبكاء ليس إشارة إلى الاحتشام من جانب العروس فحسب، بل يساعد أيضاً على إبعاد العين الشريرة.

إن أجمل جزء من ثوب العروس اليزيدي الاحتفالي هو القفل الذهبي أو الفضي المزخرف الذي يثبت زنارها وغالباً ما يكون أكثر اتساعاً من حزام خصرها النحيل. لا يسمح إلا لفتاة واحدة أن تمسك بهذا الموروث، وتلك هي «أخت العروس الأخرى». عليَّ أن أفسر ما معنى هذه «الأخت الأخرى» وهذا «الأخ الآخر». تختار الفتاة والفتى العلمانيين «أختهما الأخرى أو أخاهما الآخر» بنفسيهما.

وقد لا يتم هذا الاختيار حتى بعد سن البلوغ، وقد يترك أحياناً إلى وقت متأخر من الحياة. يجب أن يكون الشخص المختار من طبقة الشيوخ، إما من عائلة الشيوخ التي يرتبط بها الشاب أو الشابة وراثياً أو من عائلة أخرى، لا يهم أيهما كانت. يجب أن يتم الاختيار والاعتراف به عند الشيخ عدي ويتم ذلك عادةً في عيد أيلول الكبير في وقت الحج العام إلى المعبد. والاحتفال بسيط. فالرجل (أو المرأة) من طبقة الشيخ المختارة يملأ كفه الأيمن (أو كفها) بالماء من النبع المقدس في المزار، والشاب العادي(غير الديني) يشربه من يد السيد أو السيدة المولى. ومنذ ذلك الوقت تحدث رابطة قوية بين الاثنين. للأخ الآخر واجبات يجب أن يقوم بها عند الزواج والولادة والوفاة، ويجب أن يحمي ويساعد أخاه بكل الطرق. والعادي، من الناحية الأخرى، يجب أن يعطي أخاه الآخر هدية سنوياً ويخدمه ويساعده دائماً، «ليس في هذا العالم فقط بل في العالم الآخر ولو في جهنم». ينظر اليزيديون إلى هذا الواجب المزدوج الغريب على أنه يمتد إلى الحيوات الأخرى: فالرابطة بين الاثنين قد وُجدت قبل هذه الحياة، وسيجتمعان معاً في الحيوات الأخرى. ويجب أن يكون للفتاة «أخت أخرى» لكن يمكنها أن تختار «أخاً آخر» إن رغبت في ذلك وكذلك الأمر بالنسبة للصبي. هذا ليس عادياً، لكنه قد يحدث، ويعني تقدمات سنوية وقبول هدايا. والعلاقة أفلاطونية بالكامل، لكن عادةً يرافقها إعجاب، وهي خيار حر، لأن الزواج من عادي، مهما كان جميلاً، ممنوع على عضو عائلة الشيخ.

اللمسة الأخيرة لثوب العروس حجابها، وهو أحمر، وعندما يكون الجميع جاهزين تغادر الفتاة ذات الحجاب أمها النائحة

وتوضع على حصان. يمسك رجل من قريتها ـ ليس الشيخ أو البير ـ بأعنّة الحصان ويقوده عندما يجتمع الموكب وينطلق. يكون شباب قرية العريس حريصين على تزويد أنفسهم بقطع نقدية صغيرة قبل البدء، لأن من واجب الأولاد الصغار من قرية العروس أن يرشقوا الشباب في الموكب بجميع الحجارة الصغيرة والنفايات التي يجدونها، بينما يصرف الشباب انتباه هؤلاء الصغار برمي القطع النقدية. قالت ونسة إن كل ذلك يتم بكثير من البهجة والسرور. وقبل مغادرة البيت الأخير في القرية يقدم فريق العريس بعض المال إلى الزعيم (المختار).

عندما يصل الموكب إلى قرية ومنزل العريس، ترش الحماة الواقفة على سطح المدخل السكر والحلويات والأزهار فوق العروس عندما تصل على حصانها. تساعدها «أختها الأخرى» في الترجل عن الحصان ثم تنزل أم العريس وتسلم العروس جرة مملوءة بالسكر والحلوى. وقبل أن تستطيع الابنة (العروس) الجديدة أن تدخل فإنها يجب أن تقذف هذه الجرة على حجر العتبة بحيث تنكسر وتتبعثر الحلويات، ويندفع الجميع نحوها لأنها تحمل المستقبل الزاهر. تدخل العروس إلى بيت المستقبل فوق القطع المكسرة وكذلك فوق دم خروف قطعت رقبته للتو عند قدميها.

وقبل أن تدخل إلى غرفة العرس، تحدث معركة زائفة بين شباب فريق العروس وشباب فريق العريس للحصول على غطاء رأس الأخير. وعندما يفلح هذا الفريق أو الآخر، تضع العروس مالاً في قبعة العريس وتعطيه إلى الشاب الذي أفلح في الحصول عليه.

وأثناء كل هذا اللهو والصخب، تبقى العروس صامتة كالصورة

في حجابها الأحمر. وعندما تدخل غرفة الزفاف، يربط الشيخ والبير ستاراً عبر الغرفة. ويجب أن تبقى سبعة أيام مع فراش الزوجية وراء هذه الستارة أو الحجاب، وعندما تجبر على الظهور لكي تلبي نداء الطبيعة، فلا يجوز أن تمر فوق أي ماء(*).

في اليوم الذي تأتي فيه العروس إلى البيت يبقى العريس نفسه بعيداً ويبقى في مكان آخر مع «أخيه الآخر»، وإذا كان يوم الوصول يوم ثلاثاء، فلا يجوز أن يتم أي زواج في تلك الليلة. على العريس أن يقضي تلك الليلة واليوم التالي في بيت آخر برفقة «الأخ الآخر»، وينضم إلى العروس في منتصف ليلة الأربعاء. سبب هذا أن الأربعاء هو اليوم اليزيدي المقدس، وليل الثلاثاء ـ كما يجب أن ندعوه ـ هو بالنسبة لهم «ليلة الأربعاء».

عندما يدخل العريس الشاب غرفة الزفاف عند منتصف الليل، ينتظر «أخوه الآخر» واثنان من أصدقائه خارج باب الغرفة. يسمح للعريس بساعة لإتمام الزواج[1]. بعد أن يتم إعلان هذا، يأكل الشباب والعريس بعض الطعام الخفيف الذي يجب أن تحرص العروس على أخذه معها إلى داخل غرفة الزفاف، ثم يذهب الجميع للنوم.

«وعند نهاية الأيام السبعة يمكن للعروس أن تغادر غرفتها. تستحم وتُحضر النسوة من قرية العريس طبقاً كبيراً من التمر، بالإضافة إلى سبعة أنواع من الحبوب: القمح، العدس، البازيلاء،

---

(*) عند الصابئة يجب أن لا تمر جثة أي متوفى صابئي على مجرى مائي. (المراجع).

(1) أنظر الملحق أ.

الشوفان، الفول، والفاصولياء واللوبياء، يسلقونها جميعاً على النار دون زبدة أو دسم أو أي مواد أخرى. ثم يحملون هذه العصيدة ويخرجون في ثياب بهيجة إلى المروج ويأخذون العروس معهم حتى يصلوا إلى جدول مياه جارية. على العروس أن تضع سبع حفنات منه في الماء. وتعبر الجدول وتأكلها مع صديقاتها. وعندما يخرج نبات الدفلى ـ تتابع ونسة، والذكريات الجميلة تبدو في عينيها ـ يكون هذا المنظر جميلاً. نعتقد أن نبات الدفلى تعويذة قوية ضد العين الشريرة. ونضع عقوداً منه. لذا فإن النساء والبنات اللواتي يرافقن العروس، ـ واللواتي يبلغ عددهن أحياناً خمسين أو أكثر ـ يضعن الزهرات القرنفليات اللون في عمائمهن».

أثناء حبس العروس هذا تحتفل صديقاتها ويبتهجن. تقرع الطبول وتصدح آلات الناي من الفجر حتى الساعة العاشرة صباحاً ويرقص النساء والرجال رقصة الدبكة. ومن العاشرة حتى أوائل بعد الظهر يستريحون ويأكلون. ثم يبدأ الرقص من جديد ويستمر حتى منتصف الليل. قالت ونسة: «هذا هو الوقت الذي يفضله العشاق الشباب لأنهم قد يجدون أنفسهم يرقصون متقاربين وتتشابك أيديهم في الحلقة». تمنع بعض النسوة المشؤومات من الاقتراب من العروس: المرأة أثناء فترة الحيض، والمرأة من بيت ميت، والمرأة التي ولدت طفلاً حتى تنتهي أيامها الأربعين من عدم الطهارة وتستحم، الأمر الذي يجعلها لم تعد خطرة.

## الفصل الثالث

# أفاعٍ ومزارات مقدسة(*)

«وعندئذٍ زحفت هاتان الاثنتان خلسة، تتضوران جوعاً على الأرض، كانت تشع من عيونهما أيضاً نار مشؤومة وهما تتقدمان، وبصقتا سُمّهما القاتل».

«ثيوكرتيوس/الأنشودة الرعوية XXIV»

قبل أن أغادر رشيد، كان تابعه قد جلب قوَّالاً قديماً، وهو كاهن عجوز مرتبك، كانت تبدو على وجهه الذي يشبه وجه الخروف نظرة فارغة كأنه يساق إلى الذبح. لم أزعجه بأي هجوم على أسرار ديانته، لأنه كان يبدو بوضوح قلقاً، وجلسنا في حديث ودي ما لبث أن طمأنه. أخبرني رشيد سراً أن رئيس القوالين كان أكثر ذكاء وبعد قليل وصل هذا الشخص أيضاً. اقترحت على القوالَين أن يشرفاني بزيارة، لذلك مشينا بود في شارع القرية إلى بيتي الصغير، حيث حضَّر لنا ميخائيل الشاي. بدأت أشرح للقوال سيفو (Sivu) شيئاً عن الغرض من زيارتي، وبعد ذلك سألت عن

(*) كان للأفعى في الديانات والأساطير الإغريقية مكان واضح. (المراجع).

الأناشيد التي ينشدونها في عيد الربيع، وأثناء طقوس الجنائز، لكنه كان لا يزال مرتاباً وكتوماً. أناشيدهم ـ كما قال ومظهره يشبه سمكة ترويت تتحرك برشاقة مبتعدة عن الطعم ـ كانت سرية ومقدسة بحيث لا يمكن لأي شخص عادي خارج طبقة الكهنة أن يعرف ماهيتها. وإضافة إلى ذلك، تابع يقول: «نحن أنفسنا لا نسجلها. لقد تعلّمتُها من والدي وابني سيتعلمها مني». تحدثنا عن الملائكة السبعة [1]، ورئيسهم الطاووس الملاك، كذلك الشيخ عدي، الذي يحمل أرواح اليزيديين الأخيار إلى الفردوس على صينيته. ثم تحدثنا عن التقمص (تناسخ الأرواح)[*] الذي هو ـ ربما ـ الشكل الإيجابي الوحيد للعقيدة التي يتمسك بها اليزيدي. فالرجل الشرير قد يتقمص شكل حصان أو بغل أو حمار، كي يتحمل الضربات التي هي قدر حيوانات التحميل، أو قد يسقط إلى درك أدنى ويدخل في جسد ضفدعة أو عقرب. لكن قَدَرَ معظمهم أنهم يتقمصون في أجساد رجال، والأخيار منهم في أجساد يزيديين.

وهنا وضع وصول المختار ـ وهو الرجل الرئيس في القرية ـ حدّاً لمثل هذا الحديث وجلب ميخائيل كأساً أخرى. كان هذا المختار رجلاً طويلاً قوي البنية وصاحب أملاك يعتني بأراضيه مع

---

(1) السيد روجر ليسكوت في كتابه «Enquete sur les Yezidis de Syrie et du Jebel Sindjar» (بيروت 1938)، يشكو بلطف أن قائمة السبعة كانت تختلف مع كل شخص يسأله. وأنا أؤيد ذلك. والحقيقة حول هذا الموضوع، كما هو حول غيره، هي أن اليزيديين غامضون على نحو جميل.

(*) التناسخ: موجود عند الدروز وأصلهم من الاسماعيلية، ولا يوجد لدى الصابئة المندائيين! (المراجع).

أولاده؛ وكان وجهه ـ مثل وجوه الكثيرين الذين رأيناهم في القرية ـ كبيراً، إلى حد ما، من النوع السكندينافي تقريباً. هؤلاء اليزيديون لهم شعور كثيفة مشعثة تحت عمائمهم الحمراء، وكان الشباب غالباً ما يحلقون اللحى ويتركون الشاربين طويلين، أو يحلقون الوجه بالكامل. رأيت بضعة منهم يمكن أن يكونوا نماذج يرسم وجوههم هينجيست (Hengist) أو هورسا (Horsa)؛ وذكرني بعضهم بالشباب في رسوم بيروجينو (Perugino). يطلق كبار السن لحاهم لتطول. كان من بين أطفال القرية البعض شقر وذوو عيون زرقاء مثل الساكسونيين.

غمرني المختار بعروض سخية من الطعام. عرض أن يرسل لي الحليب من قطيعه الخاص طالما أنا هناك ورجاني أن أخبره إن كنت أريد شيئاً. غادر جميع ضيوفنا معاً، وانطلقت مع جدان في مشوار، لأنه كان يعتبر أن واجبه مرافقتي مثل ظلي. أدرت وجهي نحو التلال، لأنه أمر حسن بعد العيش في سهل منبسط أن ترى المرتفعات المعشوشبة، تنتصب خلف القرية. هذه التلال السفحية ترتفع بمقدار ارتفاع تشيلترنز (Chilterns)[*]، لكن درجة ميلها مفاجئة، وخلفها تقع الذرى الشاهقة وصولاً إلى الجبال التي تغطيها الثلوج.

صعدنا بجانب أتونات كلسية وحفر جص (Juss-Pits)[1] على

---

(*) مرتفعات تشيلترنز (CHILTERNS): سلسلة من التلال في الشمال الشرقي عبر مناطق: أكسفورد وباكنجهام وهيرتفورد. أعلى قممها كومب هل (Coombe Hill) يرتفع حوالي: 852 قدماً بالقرب من ويندوفر (Wendover). (المراجع).

(1) Juss-Pits: Juss هي الكلمة الإيطالية Gesso وهو الجص الطبيعي.

ممرات حجرية وصخرية حيث كان العشب هزيلاً وكانت الأزهار البرية ـ ومعظمها من الحوذان القرمزي، والسوسن البري، وشقائق النعمان والمنثور البري، تبدو أكثر جمالاً بسبب ندرة الخضرة. كانت المحاصيل الجديدة تنمو على السفوح مثل القمح والشعير وكانت تنتشر هنا وهناك قنوات ماء حجرية ضيقة تأخذ ماء ينابيع الجبل إلى المحاصيل والأتونات وبساتين الزيتون. صعدنا حتى تسنّى لنا منظر جميل فوق السهل الأخضر الواسع الذي يمتد بين التلال والموصل البعيدة. في وسط هذا السهل انتصب تل بله (Tell Billa)، ويبدو كما هو، مدينة مطمورة. قام الأمريكيون بالتنقيب فيه في الآونة الأخيرة، وكان رشيد ساعدهم الأيمن وكبير العمال عندهم أثناء أعمال التنقيب وهو الآن مسؤول عن حراسة الموقع. من هناك في الأعلى، كانت التلة تبدو كما لو أن لحافاً أخضر كبيراً قد أُلقيَ بهدوء فوق الجميع، وأنه لو رُفع، لكانت ستظهر بيوت وأبراج ومتاريس سليمة. وفي البعيد في السهل ارتفعت تيبي غاورا (Tepe Gaura)، وهي مدينة أخرى مدفونة، وخلفها أيضاً كانت خورساباد (Khorsabad) حيث استخرج من الأرض في الآونة الأخيرة ثوران ضخمان وأحضرا بالشاحنة ليضيفا إلى المتحف الجديد في بغداد مزيداً من الجمال.

أما بالنسبة لبعشيقا ـ تحت ـ بكنيستها المهيبة الجديدة وركام بيوتها ذات الأسطح المنبسطة، فقد كانت تبدو كقطيع من الأغنام احتشد معاً للحماية. كانت الأبراج المخروطية للأماكن المقدسة اليزيدية المحززة تنتصب من بين بساتين الزيتون وتتوج التلال الأكثر بعداً. وعلى هضبة مستديرة عشبية صغيرة قرب القرية استطعت أن أتبين مجموعة من القرويين، وعندما مررت بجانبهم

في طريق عودتي رأيت كاهن القرية جالساً بينهم في أثوابه السوداء وقبعته الطويلة. كانوا يستمتعون بشمس الأصيل.

انتهى يومي الأول في بعشيقا. تناولت عشائي وذهبت للنوم قبل الموعد، وغفوت في نوم منعش انتهى عند الفجر عندما سمعت طرطقة حوافر على الطريق في الخارج بينما كانت القطعان تُقاد إلى المراعي المرتفعة خارج القرية. هبّ نسيم الربيع حلواً ومعه رائحة الأعشاب والأزهار على باحتنا الصغيرة بينما كنت أعبرها من أجل تناول طعام الفطور، ولم أكد انتهي حتى وصل رشيد. قال لي إن شيخاً من عشيرة شيخ ماند (Mand) كان يزور القرية مع ابنته وأنهما أحضرا معهما بعض الأفاعي. وسيذهبان من بيت إلى بيت لعرض قواهما مقابل بعض الأجور، لذلك أمرهما بالمجيء إلى بيتي. كنت قد سمعت عن سلالة الشيخ ماند، الذي يَزعم أن له نفوذاً على الثعابين والعقارب وأنه محصن ضد سمومها. سألت رشيد إن كان حقاً كذلك. فأكد أنهما كذلك بالفعل، وأنه رأى جاهيرا (Jahera)(*)، وهي الابنة الصغرى للشيخ، تمسك بيدها أفعى سامة أتت بها من الحقول، دون أن تصاب بأذى، وأنهما كانا يحملان الأفاعي معهما، ولم تكن أنيابها قد أزيلت. أضاف: «كان معروفاً أن شيخاً من تلك العشيرة قد مات من عضة أفعى؛ لكن إذا حدث هذا فإنهم يقولون إنه لم يكن رجلاً صالحاً».

أضاف رشيد أن شيوخ الشيخ ماند كانوا يأكلون الأفاعي دون طبخ ولا يصابون بأي أذى.

---

(*) Jahera = سمّ الأفعى. (المراجع).

دخل الشيخ وابنته الآن باحتنا. كانت حيتان كبيرتان، واحدة بنية اللون وأخرى سوداء، تتثنيان حول عنقَي الرجل والطفلة، وكان ذيلاهما يتدليان إلى الخلف مثل فراء أفاعي البوا (Boa)(*) التي كانت النساء الأوربيات ترتديها منذ سنوات طويلة. فك الشيخ الأفعى الطويلة الكبيرة السوداء عن عنق ابنته جاهيرا فانزلقت بين الأعشاب المتفرقة وعليها مظهر الشر فعلاً. كان طولها يبلغ حوالي خمس أو ست أقدام وسماكة جسمها حوالي بوصتين أو أكثر. أمسك بها ثانيةً وأعادها إلى الطفلة ثم أظهر أفعاه. دفعتُ بعض المال، ثم اتخذ الشيخ والابنة الصغيرة البشعة وضعية للتصوير، وهما يمسكان رؤوس الأفاعي المنبسطة قريباً جداً من شفاههما.

تجولت في القرية، وزرت الأشجار المقدسة وبعض الأماكن المقدسة البيضاء. وعرفت حالاً أن جميع أماكن الحج كانت تدعى «المزارات»، وهذه الكلمة تنطبق دون تمييز على شجرة أو ضريح أو قبر أجوف (قبر نصب لشخص مهم مدفون في مكان آخر) أو نبع ماء أو حجر أو كهف. وقد يطلق اسم أحد الشيوخ على عدة مزارات مثال ذلك: هناك «الشيخ ماند» في بحزاني وآخر في شيخ عدي واثنان من الشيخ زندين (Zendin)، أحدهما قريب جداً من الآخر، واحد حجر مقدس والثاني مقام لضريح. واسم الشيخ شمس والشيخ شمس الدين لم يطلق على المزار - الضريح - فقط في الشيخ عدي، بل على عدة حجارة مسطحة أو أمكنة مسورة على قمم الجبال في مناطق يزيدية تحمل ذلك الاسم. وقرب بيت

---

(*) Boa: أكبر أفعى تعيش في الغابات المطيرة في أميركا الجنوبية، يتراوح طولها بين 9 - 17 قدماً، غير سامة، تلتف على فريستها وتقتله اختناقاً وتزدره. جلدها يُستعمل في لباس وأحذية النساء. (المراجع).

والد رشيد هناك شجرة زيتون قديمة يحيط بها جدار حجري منخفض، قرب جدول، تدعى ست نفيسة، وبين قريتي بحزاني وبعشيقا هناك مقام مخروطي بالاسم نفسه. لم أستطع الحصول على تفسير مقنع لهذه الثنائية أو الثلاثية في المزارات، لكنه كان من الملاحظ أنه بينما يمثل أحدها نبعاً أو جدولاً أو شجرة مقدسة، أو مغارة أو حجراً مقدساً، فقد كان الآخر قبراً بالفعل. أما بالنسبة للست نفيسة، فقد طلبت توضيحاً لكن جميع الشروح كانت غامضة. اعتادت السيدة نفيسة أن تجلس تحت الشجرة، أو ربما، كانت تعيش هناك ـ لا أحد يعرف. لكن في كل يوم ثلاثاء أو خميس مساءً عند الغروب لم تتوقف أيدي التقاة عن وضع فتيل مشبع بزيت الزيتون في زاوية مظلمة من جدار كنذر، وكان ضوءه المضطرب لا يدوم إلا عدة دقائق. إضافة إلى ذلك، كان من يعانون من الملاريا[*] يأتون إليها، ويحفرون بعض الغبار المقدس من فناء مسيّج صغير ويشربونه مع الماء، ويظنون أنهم يشفون.

وقرب الجدول نفسه هناك شجرة مقدسة أخرى تدعى «فقير علي» (Faqir Ali) وفي الواقع كانت معظم الينابيع والجداول قرب الشجرة المقدسة تقترن بشجرة مقدسة وأحياناً أكثر من شجرة واحدة[**]. وغالباً ما تكون الأشجار المقدسة أشجاراً تحمل ثماراً ـ الزيتون أو التين أو التوت.

---

(*) himma mutheltha حمى الثلث: وهي حمى تعاود المريض كل ثالث يوم. وهي الحمى التي وصفها المتنبي وهي الملاريا غالباً. (المراجع).

(**) يذكرنا هذا بـ(Aina u Sindirka) عند المندائيين أي: البئر وشجرة النخيل المقدسة التي يفسرها المانديون أنها تمثل أصل الأنثى والذكر بالترتيب. لكن =

بعد الجدول قرب الشجرة المقدسة في أعلى الوادي حيث كان الجدول يسير عبر مسكبات من أعشاب الحوذان وشجيرات الدفلى، واحدة منها تحت المقام الجليل لملكي ميران (Melke Miran) علقت عليها أسمال منذورة. جئت بعد أن عبرت الجدول أكثر من مرة إلى مكان الاغتسال الأعلى المدعو «رأس العين»، بقي جدان بحياء خلفنا، لأنه معلوم أنه إذا تجرأ رجل على الاقتراب من هذه البركة في الصباح فقد يفاجئ حورية تغتسل. كانت عدة نساء ممن كن يضربن ثيابهن على الحجارة قرب البركة أنصاف عراة فعلاً. كانت هناك عدة فتيات جميلات جداً. كانت النسوة الأصغر يرتدين قبعات من القطع النقدية والفضية، تتشابك إحداها مع الأخرى مثل الحراشف. والعمامة الملفوفة حول هذه القبعة مزينة بسلاسل، وكانت الرؤوس وهن راكعات في العمل تتلألأ من بعيد. كانت الكثيرات يرتدين الخرز الملون بلون العنبر والقرمز وكذلك كانت سلاسل تعاويذ طويلة تتدلى من أعناقهن. كانت العرائس يرتدين ألبسة فخمة. طلبت واحدة من هؤلاء العرائس، وهي فتاة جريئة وغير وسيمة، إليّ أن آخذ صورتها واتخذت وضعية خاصة لذلك مع صديقتها. فعلتُ ما طلبت ثم مدت يدها لتأخذ الصورة. شرحت الأمر ووعدت أن أرسل لها الصورة بعد أن تظّهر إن رغبت في أن تعطيني اسمها، لكنها رفضت متجهمة، معتقدة أنني لم أكن أخبرها الحقيقة.

---

في جبل سنجار، طبقاً لما يقول جدان، هناك نبع مقدس دون الشجرة المقدسة - بيرا هايي: Pira Hayi.

ولدى العودة إلى القرية، وجدت أن رشيداً قد أحضر لي باقة من الزهور، بعضها من سفح التل وبعضها من حديقته الخاصة. وعندما رآني أبحث عن شيء أضعها فيه، اختفى، ليعود بسرعة ومعه كأس من بيته. كانت تلك اللياقة الساحرة صفة مميزة فيه. قال إنه عاد ويعتذر لعودته ليخبرني أن الداية (القابلة) ستزورني بعد ظهر ذلك اليوم.

## الفصل الرابع

# الولادة

«ملكتك أرتيمس، تلك التي تلطف آلام المخاض»(*).

ثيوكرتيوس/الأنشودة الرعوية XXVII

وصلت الداية. كان لها عدة أسماء وكانوا غالباً ما يدعونها «ماما» أو بمزيد من اللطف «حاجية»، لكنني أطلقت عليها ذهنياً اسم: سيري غامب (Sairey Gamp)(**). كانت مسنّة؛ وشعرها الأبيض ينتشر خصلاً على وجهها ولم تكن نظيفة. كانت تتحدث بصوت أجش ينم عن الثقة بالنفس، وأحياناً كانت تكزني بمرفقها لتؤكد وجهة نظرها، وكانت لغتها العربية غريبة جداً بحيث كان عليَّ أن أستعين بجدان كي يفسر لي كلامها

---

(*) أرتميس: Artemis إلهة القمر والقنص عند الإغريق. ابنة زيوس وليتو، وتوأم أبولو إله الشمس (لذلك اعتبرت إلهى القمر) استعصت على الحب فبقيت عذراء. وحّدها الرومان مع الإلهة ديانا راعية العفة وملاذ الأمهات في مرض أطفالهن. (المراجع).

(**) Sairey Gamp: شخصية في إحدى قصص شارلز ديكنز (Martin Chuzzlewit) ممرضة وذات علاقات وتصرفات غريبة يتبعها قرين تتحدث معه وهي رمز لازدواجية الحياة بالموت. (المراجع).

إلى لغة مألوفة. في بغداد، تستعمل النسوة القرويات كلمات وتعبيرات نادراً ما نسمعها من الرجال. لم يكن جدان مرتبكاً ـ ولو قليلاً ـ بالتفاصيل الخاصة بالولادة، ولم نكن نحن أيضاً. من حسن الحظ أنه لم يكن هناك أي احتشام حول هذه المسائل في الشرق. فقد تحجِّب المرأة وجهها، لكنها تصف بأدق التفاصيل أمام أولادها الصغار العلاقة الجنسية مع أحد الجيران.

كانت ميرا ونسة قد أخبرتني الكثير عن الطريقة التي جاء فيها الأطفال اليزيديون إلى هذا العالم. والآن أضافت هذه العجوز تفاصيل أوضحتها بالإيماءات والتعليقات المثيرة. كان التوليد يمثلها: كانت كاهنة الولادة وتقف على أبواب الحياة والموت وأخشى أن يكون الكثيرون ـ لا بد ـ خرجوا من هذا العالم على يد الموت، بدلاً من المجيء إليه على يد الحياة، بسبب خدماتها. لقد ذكرتُ الكثير مما أخبرتني هي وميرا ونسة في ملحق[1]، لأنه قد يكون من المفيد لعالم الإنسان (anthropologist)[*]، لكنه قد يُثقل على حكايتي على نحو غير ملائم هنا.

كانت ميرا ونسة قد أخبرتني أن المرأة الحامل يجب ألا تنظر إلا إلى «الأشياء الجيدة فقط». «فإذا رأت أفعى أو ضفدعاً أو أي شيء قبيح، فإن الطفل الذي سيولد سيكون مثل هذه الأشياء. عرفتُ مرة امرأة ولد طفلها وله رأس يشبه رأس الخروف، وأخبرتني الأم أنه تصادف أنها نظرت إلى خروف».

---

(1) . الملحق ب.

(*) Anthroplogi: هو علم يبحث في أصل الجنس البشري وتطوره وأعراقه وعاداته ومعتقداته. (المراجع).

قالت الحاجية إنهم يرسلون في طلبها عندما يبدأ المخاض. وعندئذٍ يهرع بالمرأة إلى القبو الذي تتقاسمه مع الماعز والأغنام والطيور. لا تحتشد الغرفة بالنساء، سوى الأم والأخت. وقد تحضر واحدة أو اثنتان من الغريبات، وإذا أمكن «الأخت الأخرى». والمرأة لا تستلقي للولادة بل تقرفص، متمسكة بامرأة أخرى، تسليها وتشجعها بينما الداية تمسّد بطنها وتجثم خلفها جاهزة لتلقي الطفل عندما يأتي إلى هذا العالم. وإذا طال أمد الولادة، فإن الداية تتضرع طالبة المساعدة من قوى فوق الطبيعة:

يا سيدتي فخرا ساعديها! (Khatun Fakhra)

يا خضر الياس ساعدها! (Khidehr Elias)

يا شيخ متّي ساعدها! (Shaikh Matti)

قالت الحاجية إن هذا كان ما تنشده فوق مريضتها. وخضر الياس هو النبي إيليا. وشيخ متي هو مار متي، القديس المسيحي الذي تنتمي إليه الرهبانية القديمة بالاسم نفسه، لكن من كانت السيدة فخرا؟

أسرع جدان والحاجية في إعلامي: كانت والدة الشيوخ المقدسين: سجا الدين ونصر الدين وفخر الدين وباب الدين، وهي الشفيعة الخاصة بالنساء أثناء المخاض. وبعد الولادة السليمة يجب تقديم القربان باسمها، فيُخبَز خبز من دون خميرة وهو عجينة بسيطة من الدقيق والملح والماء تدعى «خبز فطير»، ويوزع على الفقراء. وإذا كانت العائلة ذات موارد مالية جيدة، فيُذبح خروف ويُضاف لحمه إلى القربان.» وإذا لم يتم ذلك، فإنها تظهر

لهم في الحلم وتقول: «لماذا لم تعطوا الفقراء باسمي؟ لقد ساعدتكم ولم تفعلوا شيئاً بالمقابل!».

«أيها الشيخ متّي! أنت ويدك ساعداني!» صاح حجي عائداً من القديس المسيحي إلى اليزيدي. «هذا ما أُصلّي لهم».

هناك طريقة أخرى لتسريع الولادة ـ قالت ـ تكون بالحصول على غوبال (عصا) بابا شيخ الذي يحمل واحدة على نحو دائم، وبضرب المرأة بها بلطف سبع مرات. وعندما يولد الطفل، على الأم أن تبقى في الفراش سبعة أيام. ولا يتركونها وحيدة أبداً لئلا ترى ملائكة أو شياطين بأشكال مختلفة وتصاب بالجنون.

والخطر المحدد هو جنية شريرة: راشي شيبي أو شيفي (Rashe' Shebbe' أو Shevve') التي قد تستبدل به طفلاً بديلاً أو تؤذي الأم والطفل. وفي اليوم السابع بعد الولادة تنهض الأم، وتأخذ حماماً ساخناً ثم تذهب مع صديقاتها إلى الماء الجاري أو النبع وتلقي سبع حفنات من سبعة أنواع من الحبوب مسلوقة بالماء (مثل العروس) ثم تعبر الماء وتأكل العصيدة مع رفيقاتها. ويجري احتفال مشابه عندما يظهر أول أسنانه. الأب هو الذي يسمّي الطفل، وعندما يفعل هذا يذبح خروفاً بالعادة، أو دجاجة ويوزع اللحم. وغالباً ما يكون الاسم المختار اسم قريب متوفى أو جد أو والد أو أخ أو طفل متوفى، ويعتقد البعض أن المولودَ الجديد تجسدٌ جديد للشخص الذي سُمِّي باسمه[1].

(1) أخبرتني ميرا ونسة هذا: لقد ناقشت مسألة التقمص مع الشيخ وقالت إنها عندما وصفت له حلماً غريباً كانت فيه جندياً، أخبرها الشيخ أنها ربما رأت حياة سابقة في الحلم. في السابق عندما كان يموت شخص كان الكوتشك =

وعندما يصبح عمر الطفل أربعين يوماً يأتي الشيخ إلى البيت ويقصّ من رأسه خصلتين من الشعر، واحدة لنفسه والأخرى للبير، ويتلقى هدية من الوالدين. ولا يجوز لأي مقص أن يلمس رأس الطفل حتي يتم ذلك. (لاحظت أن للأطفال اليزيديين حزمة عريضة محلوقة من الأعلى ومنها تتم حلاقة حزمة أخرى إلى كل من الصدغين، ويجري تشذيب مربع الشعر الباقي ليصبح حزمة ذات شراشيب، تتدلى فوق الجبهة).

وعدَتْ حاجية أنها ستأخذني كي أساعد في حالة الولادة التالية. قالت: «إنني أجلب إلى هذا العالم حوالي ثلاثين طفلاً في السنة في بعشيقا». أعطيتها بعض المال ووعدتها بالمزيد إذا وفت بوعدها.

أخبرتني حجية بعد ذلك عن خدعة كانت قد لعبتها راشي شيفي مرة.

«ولّدت المرأة» قالت، «وعدت إلى بيتي الذي لم يكن لفنائه باب. في تلك الليلة جاء شخص يصرخ خارج غرفتي: «تعالي! تعالي! حدث كذا وكذا في هذه الولادة!» كانت تلك حالة المرأة التي وضعت الطفل بين يديها في ذلك اليوم بالذات. لكن ظناً مني أن توأماً آخر سيولد، أسرعت وخرجت في الظلام. تبعتُ الشخص وكان طويلاً جداً ـ يجب أن تعلمي أن راشي شيفي طويلة جداً

---

= يدعون المقدرة على التنبؤ في تجلٍّ كيف تتقمص الروح المغادرة، لكن عندما تكلمت عن هذا إلى القوال سيفو في بعشيقا، أنكر ذلك وقال ببعض السذاجة، إن الكوتشك قد تخلو عن هذه التجليات الآن «لأنهم يخافون من الحكومة».

مثل التانتال[1](*) وذهبت أمامي وقادتني، لا إلى البيت، بل إلى خارج القرية! عندما رأيت إلى أين تأخذني، خفت كثيراً وركضت حتى وصلت إلى بيتي الخاص. وبعد ذلك، يا سيدتي ـ صنعت باباً لبيتي!».

* * *

كان من واجبي أن أقوم بعدة زيارات. أولاً كانت الزيارات الرسمية، وشربت الشاي في أحد الأيام بدعوة من عمدة القرية وزوجته الوسيمة ـ وهي فتاة من الموصل ـ وكانا زوجين لطيفين ومضيافين. وبعد ذلك كان معلم المدرسة أرمل وعنده أولاد، لذلك كانت زيارتي لوالدته التي كانت من عائلة من بعشيقا واضطلعت بمهمة تربية أطفاله بعد أن ماتت كنّتها في المخاض. كانت امرأة فلاحة بسيطة مسيحية من المذهب اللاتيني، وكانت صورة البابا معلقة على الحائط. أحببت طباعها الكريمة وابتسامتها، وظننت أن معلم المدرسة محظوظ كيف كان لديه هذه الإنسانة الممتازة تعتني بأولاده اليتامى. ثم بعد ذلك كانت زيارة المختار اليزيدي. ذهبت صباح أحد الأيام لأرد له الزيارة ووجدت أنه وعائلته في الحقول، يعزقان البصل لكنهما عادا لاحقاً. كانا يتوقعان زيارتي وأخذاني إلى غرفة علوية بهيجة مطليّة بالكلس، تشرق نوافذها غير المزججة على بساتين الزيتون والسهل الأخضر الجميل. كان الوصول إليها بالطريقة الكردية المعتادة عن طريق

---

(1) tantal: التانتال غول قبيح له قدرة على الظهور بطول كبير جداً.

(*) وقد يكون الطنطل وهو الجني في الجنوب ويكون عادة بطول أو حجم خارق، وبمعالم وسيماء بشرية. (المراجع).

درج خارجي شديد الانحدار غير محمي بدرابزين أو إفريز، وكان أطفال صغار وأولاد يتسلقونه صعوداً وهبوطاً.

فُرشت الوسائد والبسط للضيف، وجلس المختار وأصدقاؤه في أنحاء الغرفة يدخنون غلايين طويلة، وكانت صحون فخارية صغيرة تُملأ من أكياس تبغ صوفية كبيرة، كانوا يناقشون أمور المحاصيل والأسعار والسياسة المحلية. في هذه القرية، حيث لم يكن هناك مذياع أو جريدة، ولا هاتف أو برق، ولا حتى سيارة بريد يومية، كانت الحرب لا تعني إلا الأسعار المتزايدة لبعض السلع المعينة، وكان باقي الحديث مجرد استفهامات مهذبة عن أموري.

«ألم يعقد هتلر هذا الصلح بعد؟ إنه بقوة الله سينهار!» أو «أحياناً بتلميح صغير فيه قلق» «خاتون! أتظنين أن الحرب ستصل إلينا؟» «إذا شاء الله، لا»، أجبت وكان هناك صدى حماسي «إن شاء الله» يضج في أنحاء الغرفة.

عند اليزيديين كان المضيف أو ابنه هو الذي يحضّر الشاي أو القهوة للضيف، لأن ذلك إشارة احتفالية وليست واجباً منزلياً تكلف به النساء. جلبت معي ـ كعادتي ـ علبة صغيرة من الشوكولاته والحلويات للأطفال الذين حيوني باستحسان خجول من مدخل الباب.

كنت في طريقي من بيت المختار عندما استوقفني في الشارع قوّال لم أكن قد رأيته بعد. كان له أنف أفطس ووجه مرح، وفيما بعد سيصبح صديقاً لي. «خاتون» قال: «ألم تأتي بعد لرؤية الأميركي؟» «الأميركي» كررت مندهشة. «نعم مبشر أميركي يعيش تحت عند التلة، وهو رجل طيب. إن كنت تريدين سآخذك إليه».

لن أعرف أبداً ما إذا كان المبشر هو الذي أرسله أو أن القوال ريشو تصرف من تلقاء نفسه، لكنني وجدت نفسي فوراً أدخل الباحة الخارجية، حيث كانوا قد وضعوا كرسياً من أجلي. علمت عندها أن المبشر لم يكن أمريكياً بل آشورياً تدرّب على يد مبشرين أميركيين. ظهر بعد فترة، ارتدى أثناءها البنطلون الرياضي القصير من أفضل طراز أوروبي كنت قد رأيته منذ بعض الوقت. اتفق أنني كنت أتحدث بالعربية، والمحادثة بدأت بتلك اللغة، لكنني خجلت عندما اكتشفت لاحقاً أنه كان يتحدث الإنكليزية بطلاقة. كان يمتلك البنية الضخمة والمعالم القوية الخاصة بشخص آشوري المولد حقاً، وكان أيضاً واسع الإطلاع وذكياً، وفي الواقع تمتعت بحديثنا. أخبرني عدة أشياء كنت أريد أن أعرفها، وفي الوقت نفسه حذرني أنه من غير المحتمل أن أكتشف الكثير بنفسي، لأن اليزيديين كانوا متعصبين ومتكتمين إلى أعلى الدرجات، ولا يسمحون للغريب بالدخول إلى احتفالاتهم. أخبرته أنني أعرف ذلك، وأن هدفي الوحيد من المجيء هو أن أرى قدر ما أستطيع من عيد الربيع، وأن أتعرف على النساء اليزيديات.

بعد الظهر قررت أن أذهب إلى قرية بحزاني المجاورة، لأنني سمعت أن هناك شيخاً يزيدياً يقال إن له خبرة في السحر، وهو يعيش في المنفى وأحببت أن ألتقي به. انطلقت مع جدان. يمرّ الطريق عبر محاصيل من القمح الجديد والفول في فترة الزهر. وعلى كلا الجانبين تنتصب تلال وروابٍ تغطيها الأعشاب، تتوجها هنا وهناك مزارات مخروطية الشكل، يتجمع حولها عدد من القبور. أخبرني جدان أن اليزيديين يحبون أن يضعوا مخروطاً محززاً على قبر الشاب أو الولد الذي يتوفى قبل البلوغ دون أن يتزوج، يعني

أنه يعامل كالقديسين، شرط أن يكون محبوباً ولدى عائلته الموارد التي تمكنها من إقامة مثل هذا الضريح. وموقف اليزيديين من العزوبة غريب ويبدو أنه يعكس تأثيرات مسيحية، فالشيخ عدي لم يتزوج أبداً، ويقال إن أخاه خلق له ابناً دون مساعدة امرأة، وتقول الحكاية المتناقلة إن رفاق القديس الآخرين أوجدوا أولاداً لأنفسهم بالطريقة نفسها. وغالباً ما كنت أسمع من اليزيديين عن قديس قولهم: «كان طاهراً جداً: فلم يتزوج أبداً»، وهذا موقف معاكس بالكامل للأفكار اليهودية والمندائية، لأن الناس من هذه الأعراق ينظرون إلى الرجل غير المتزوج نظرة الخاطئ بحق الحياة.

معظم قبور اليزيديين محددة المعالم بحجر خشن عند القدم والرأس، لكن قد نجد هنا وهناك قبراً مغطى بحجارة البناء بالكامل، أو له شاهدة متقنة الصنع تحمل كتابة، وكان الرخام المحلي يستعمل للبلاطة. وكانت الكتابة عادةً تذكر بالعربية أن فلاناً بن فلان ـ قد مضى إلى رحمة الله بتاريخ كذا. وكل القبور تتجه نحو الشرق. والقليل منها مزخرف بنقوش بسيطة: رأيت على جانب أحدها عصا شيخٍ (Shaikg's gobal).

(وهي العصا ذات المقبض المعقوف)، وصور غير أنيقة لخنجر وقرن للبارود. علمنا فيما بعد أن هذا الشيخ المتوفى قد مات بطعنة خنجر. وعلى قبر آخر كان سرج حجري يسجل أن المتوفى قد مات بسبب سقوطه عن حصان. ورأيت خصلاً من الشعر مثبتة في شاهدة أحد القبور، لأن من عادة الأرامل، بسبب حزنهن، أن يقصصن شعورهن ويتركنها على الضريح.

كان الهواء يحمل رائحة حلوة من التلال المغطاة بالأعشاب والأزهار، إلا حيثما تبرز الصخور. كانت أشجار الزيتون هنا

وهناك وكانت البساتين والحدائق تتوسط الأمكنة المزروعة والسهل الممتد تحتها. كانت طيور اللقلق تسير في الحقول بوقار، صارت ترفع أجنحتها وترفرف بها في طيران بطيء عندما اقتربنا. لا يقتل أحد هذه الطيور ذات الامتياز.

قرية بحزاني مبنية على رابية، والبيوت ذات السطوح المنبسطة، متقاربة، والتلال الخضراء تمتد حتى الأسوار. هنا أيضاً غياب مطلق للقاذورات، وليس هناك أي كلاب نافقة أو أوساخ تلوث الضواحي. الشوارع ضيقة جداً بحيث إنك تستطيع لمس البيوت على كلا الجانبين إذا مددت ذراعيك، ولا يستطيع سوى ثلاثة أو أربعة أشخاص على الأكثر أن يسيروا جنباً إلى جنب. وهي مرصوفة على نحو غير متقن، وهناك قناة للمطر في الوسط، بحيث تستطيع السير على كلا الجانبين دون أن يبتل حذاؤك.

تجولنا في القرية وبقينا في الشارع الأكثر بعداً. في وسط الطريق انتصبت حدبة غريبة مطيّنة، يبلغ ارتفاعها حوالي أربع أقدام، ولها فتحة صغيرة من الأمام أظهرت أن بداخلها حجراً مقدساً مسطحاً. كانت الفتحة الضيقة قد اسودّت من شموع النذور. أخبرني أحد المارة أن اسم الشيخ كان زندين. بعد نزولنا عن التلة المنحدرة من جديد وخروجنا من القرية، وجدنا أنفسنا عند المزار المحترم للشيخ ماند الواقع في مكان يخرج منه واد صغير ضيق فوق بحزاني إلى السهل. ويجري جدول جبلي عبر الصخور ويمر فوق الشيخ ماند مباشرةً إلى بركة الغسيل حيث تخبط نساء بحزاني ملابسهن. للشيخ ماند ينبوعه المقدس الخاص. وقبل المقام هناك باحة عشبية صغيرة يحيط بها جدار منخفض. هنا وجدت آكل الأفاعي، يجلس مع أوصياء المقام

الأربعة، واليزيديين الآخرين ذوي العمائم في حلقة هادئة أمام المقام يتحدثون بأصوات منخفضة ويدخنون غلايينهم. دعونا للانضمام إليهم، لكنني مررت أولاً خلف المبنى المطلي بالكلس، نحو واحد من الأوصياء، كي أضع تقدمتي، قرب الماء الصافي الذي ينبع من الصخرة. ثم عدت وجلست مع جدان فترة وسررنا بالاستراحة، بينما أخرج أحد الرجال في الحلقة عوداً كان قد صنعه لنفسه من خشب شجرة التوت. كانت الأوتار السلكية أربعة، والمفاتيح الموجودة في أعلى العنق مثل مفاتيح الغيتار، لكن الجسر المنخفض كان يميل بزاوية. كانت ثقوب للصوت مستديرة قد حُفرت في البطن السفلي وكذلك عند جوانب الآلة. قالوا: «إننا نسميها الطنبور». ووضعوها بين يدي. اختلطت موسيقى عازف العود البهيجة، بدائية ومعقدة، على نحو جميل مع أصوات الأطفال الذين يلعبون ويرشرشون الماء في البركة فوق، بينما لم يكن هناك سوى عدد قليل من النساء يتباطأن.

لكننا لم نستطع البقاء، ووجهونا إلى بيت الشيخ في القرية. حيّانا الشيخ الذي كان كئيب الملامح ونحيفاً، بأدب عندما وصلنا، وأخذنا لنجلس على سطح بيته تحت شمس الأصيل، ولم تكن الأمور تبدو على ما يرام. بعد برهة علمنا سبب ذهوله: كانت ابنته ـ وعمرها أربع سنوات ـ قد سقطت في وقت مبكر من ذاك اليوم عن السطح على كومة من الحجارة الخشنة في الساحة. ولأن سطوح البيوت الكردية التي كانت تستخدم غرفاً للجلوس وملاعب، نادراً ما كانت تتمّ حمايتها بجدار، فقد كنت أستغرب أنه لم يسقط مزيد من الأطفال عنها. أخذوني إلى غرفة المعيشة حيث كانت الطفلة تستلقي على فراش ومغطاة بلحاف، بلا حراك

لكن حية. قالوا إن المجبّر أخبرهم أنه لم يكن هناك أي عظم مكسور. توسلت إليهم أن يدعوها هادئة، لكن قبل أن نغادر، كانت الأم قد حملت هذا الشيء الصغير بين ذراعيها. كان يبدو أن من المستحيل أن تبقى حية. غادرنا.

## الفصل الخامس

# بحزاني والشيخ أُوبكِر

«لتبنِ العناكب شباكها الرقيقة فوق عُدّة الحرب، ولا يقمْ أحدٌ بعد الآن حتى بذكر صرخة الهجوم».

ثيوكريتوس/الأنشودة الرعوية XVI

«خاتون! هلا تحدثت إلى رقيب الشرطة؟ إنه غاضب ويقول إنه لن يبقى هنا بعد الآن، ورجال الشرطة الآخرون يريدون منك أن تأتي لإقناعه ـ» كان جدان وخادمي ميخائيل هما اللذان تحدثا، يبحثان عني في وقت مبكر من صباح اليوم التالي.

كان رجال الشرطة جيراننا وكنت أعرف الرقيب الكردي القوي البنية، الذي لفحته شمس الصيف تكراراً، وكان رجلاً محترماً جداً. عندما مررت، شرح لي الاثنان ما حدث. كان رجل يزيدي قد هرب مع امرأة من غير طبقته وكانت حياة الاثنين في خطر. هربا إلى الشرطة طلباً للحماية، لكنهم نصحوهما بمغادرة بعشيقا. كان العاشقان فقيرين وكانا لا يكادان يستطيعان دفع أجرة السيارة التي كان أفراد الشرطة، الذين يريدون الوصول إلى الموصل بسرعة

لأسبابهم الخاصة، يحاولون أن يجعلوهما يستأجرانها. انحاز الرقيب إلى جانب العشيقين الفارين.

«والله ـ أفرادي ليسوا رجالاً طيبين»، صرخ «لا يطيعونني، وسأستقيل». جلس العاشقان جنباً إلى جنب في السيارة التي طلبها رجال الشرطة. بدا الرجال مرتبكين، عندما كنت أبذل جهدي كي أقنعهم، وأعلنوا أن لهم رغبة واحدة فقط وهي ألا يتركهم الرقيب. وسوّي الأمر بسرعة مضحكة، فالرقيب سوف يبقى «من أجلك» وسيارة الأجرة أُرسلت، والعاشقان ستتم مرافقتهما حيث شاءا. أنا لا أتصور لماذا استدعوني: ربما كي أشهد على عصمة الرقيب، ما لم أكن قد سمعت جزءاً من الحكاية.

أردت أن أعود ذلك الصباح إلى بحزاني لأستفهم عن الطفلة المصابة. وعندما انطلقنا، استفهم جدّان عن أمر مختلف وهو إذا كنت سأتحول قليلاً في طريق جانبية كي أزور بيت شيخه. وجدان مرتبط وراثياً بعشيرة الشيخ سجا الدين، وفي ليلة وصولنا كان قد تناول العشاء معهم. وفي ذلك الصباح بالذات، كانت قد هطلت زخّة مطر أثناء الليل، ورأيت طفلة وسيمة على السطح تنشر البساط الصوفي البهيج كي يجف، والذي لف جدان به نفسه كي ينام، وعندما سألت من كانت تلك الطفلة سمعت أنها من أهل بيت شيخ جدان. أخبرني جدان أن شيخه كان في السجن وأن الشيخة العجوز ـ أمه ـ والنساء والأطفال تمّ نفيهم من جبل سنجار وعاشوا في بعشيقا.

«ماذا فعل شيخك؟»

«خاتون، سبَّبَ بعض المشاكل عندما أُدخل قانون التجنيد. لقد ساعد بعض اليزيديين الذين هربوا إلى سوريا».

الخدمة العسكرية شكوى قديمة. فقد سببت ثورة دموية جداً قُمعت في زمن الأتراك قبل الحرب العظمى. تمّت تسوية المشكلة ببعض التنازلات بناءً على اقتراح السير هنري لايارد، العالم بتاريخ ولغة الآشوريين، بوساطةٍ من السفير البريطاني عند الباب العالي. الحرب ليست في الواقع مضادة لعقيدة اليزيديين، لكن الاتصال المباشر برفاق السلاح الملحدين الذين يأكلون الطعام الملوث ويجبرون اليزيدي على انتهاك طقوسه، بغيض لديهم. إن لباس الجندي بالذات، ينافي العقيدة، لأن اليزيدي العامي يرتدي قميصاً له قبة واسعة مقصوصة بدقة من الأمام ومثبتة من الخلف، وفي وقت الصلاة يرفع حاشية العنق إلى شفتيه.

وطبقاً لذلك عندما «أدخلت الحكومة العراقية» التجنيد، أبدى اليزيديون من جديد المعارضة. قمعهم بكر صدقي ـ القائد الذي اغتال جعفر باشا وكان مسؤولاً عن الأعمال العدائية الآشورية ـ بقسوة كبيرة. كان القادة الدينيون وراء المقاومة. أُعدم بعضهم، وحُكم على الآخرين بفترات طويلة من السجن. وغالبية الشباب اليوم يقبلون الوضع، من الممكن أن الحرب الأوروبية قد فعلت كثيراً لإقناعهم أن الإنسان لم يعد يستطيع العيش بأمان داخل ديانته الخاصة وحصنه العرقي.

كانت الشيخة تعيش في مكان قريب. عندما دخلت الباحة تقدمت لتسلم عليَّ، كانت ضئيلة ووقورة في رداء قطني أبيض، ومئزر(*) يتدلى فوق كتفها، والحجاب الأبيض من عمامتها يتصل

(*) المئزر: نوع من رداء فضفاض.

بخمارها فوق ذقنها. أخبرني جدان اسمها: سيت غولي. كانت معالم الفقر حول المكان، ومع ذلك فقد خمّر الشاي لأجلي، وألحوا أنني يجب أن آكل بضع لقمات من الخبز الرقيق كالورق، المغموس في صحن من القشدة والسكر، وصحن من الزبدة والسكر. وكانت القشدة والزبدة من إنتاج بقرتهم الخاصة، وكانت صحية جداً، بالرغم من أن أسراباً من الذباب كانت تحوم فوقها وبالإمكان رؤية بضع شعرات من البقرة فيها. على المرء أن يتجاهل هذه الأشياء البسيطة، فأكلت لقمة أو اثنتين ومدحت مذاقها، كانت الشيخة تراقبني وكذلك ثلاث صبايا وثمانية أطفال، كان اثنان منهما رضيعين محمولين على الأذرع. استأذنت عندما سمحت لي اللياقة وتابعت طريقي.

عدنا إلى بحزاني بطريق الممر الضيق ومقام الشيخ ماند. كانت دقات هراوات النساء عند بركة الغسيل، تقاطع بين الآونة والأخرى صوت الجدول المتدفق. وهناك كانت الملابس تنشر على الصخور الحارة، والأطفال العراة يغتسلون بينما كانت أمهاتهم يعملن. يمرّ الجدول العلوي قرب المقام، وجلست على ضفته كي أستريح. اجتمع بضعة أطفال حولي، وكانوا خجولين لكن مؤدبين، كان أحد الصبيان ـ في حوالي الحادية عشرة من عمره ـ وهو ذو وجه مرح ينمّ عن الذكاء ويشبه واحداً من الصبية من متسولي موريلو(*) (في اللوحة الاسبانية المشهورة) ـ كما أخبرني ـ هو ابن القوال سلمان الذي كنت قد قابلته في بحزاني في اليوم السابق، ووعدني

---

(*) Neapolitan Domenico Morelli (1823 ـ 1901). رسام إسباني. (المراجع).

بزيارة. كانت فتاتان صغيرتان تحملان أخوين رضيعين. وعندما اقتربتا كثيراً في فضول ودي، أمرهم ابن سلمان ـ الذي كان اسمه خضر كما أخبرني ـ بالتراجع. وعندما عبرت الجدول على حجارة العبور مدّ لي يده. بجانب النبع كانت هناك شجرة توت مقدسة كما أخبرني خضر وكانت عبادتها ترتبط ـ ربما ـ بعبادة نبع شيخ ماند المقدس. توسل إليّ خضر أن آتي إلى بيت والده، فانطلقنا عبر الشوارع الضيقة، وكانت الكلاب تنبح على أعالي الجدران عند رؤوسنا. شرح لي خضر بالقول «إنها تنبح على كل غريب يأتي من قرية أخرى».

كان القوال سلمان ينتظرنا، قابلني في الباحة، لكن قبل الذهاب معه لنجلس مع الرجال في الطابق الأعلى، طلبت من خضر أن يأخذني إلى والدته. كانت غرفة الجلوس الصغيرة مكتظة بالنساء، وكالعادة جررن فراشاً وبعض الوسائد إلى الخارج، وألححن عليَّ أن أجلس عليها. بدأنا نتحدث عن الملابس، وفي وسط هذا المرح سجلت أسماء جميع أثوابهن، وأثوابهن التحتية، ومجوهراتهن. لا يرتدي لباسَ الرأس المتلألئ بالنقود سوى الصبايا الأصغر، وبين هذه النقود رأيت قطعة ستة بنسات إنكليزية. وقبعة الرأس تدعى كوميدرافي (Cumedrave)، وحالما تتجاوز الفتاة سن الثلاثين، أو حتى قبل ذلك، تسلم قناعها إلى فتاة أصغر أو إلى ابنة أختها. والنساء الأكبر سناً يرتدين العمامة فقط، وهي منديل قاتم اللون يُطوى عبر الجبهة، وتضع النساء المتزوجات الكهلات الخمار الأبيض، وهو قناع أبيض متراخ يدعى لاتشيك (Latchek) يوضع فوق العمامة وعبر القسم السفلي من الوجه. ترتدي الفتيات من

الزينة أكثر مما ترتدي أمهاتهن. فالعمامة (الجمداني) تتألف من عدة مناديل حريرية يغرس فيها دبوس فضي له رأس كروي، يثبت فيه دبوس ثان بواسطة سلسلة[1] ومرتبة بحيث تنثني السلسلة على أحد جانبي العمامة، يكون وسط الرأس غير مغطى بالعمامة وتظهر منه قبعة الرأس (الكوميدرافي) في بهائها. الثوب متقن. يُرتدى قميص[2] وبنطلون[3] فضفاض، وفوق هذين - في الطقس البارد - تُرتدى سترة قصيرة[4] دون أكمام. وبعد ذلك هناك سترة خارجية[5] وفوق جميع هذه ينثني الميزار، وهو لباس رأس صوفي أو شال يتدلى فضفاضاً ومربعاً في الخلف ويُدخل تحت الذراع اليسرى ويُعقد على الكتف الأيمن. هذا ينسج في البيت وتصبغه النساء بالأحمر والأصفر أو البرتقالي، وغالباً ما يضفن إليه تطريزاً من ألوان أخرى. ومن المجوهرات يرتدين أقراطاً للأذنين[6]، عادةً من تركيبة تخريمية ذهبية ذات حجر أو اثنين وغالباً ما تكون مثلثة الشكل. وتكون الأساور[7] المتمفصلة والمعلقة بدبوس لتثبيت النصفين، من الفضة أو الذهب وأحياناً تُثبت مع حجر ثمين أو اثنين. لا ترتدي الفتيات اليزيديات أي خلخال، لكنهن يفضلن عدة عقود من الخرز

---

(1) دِرزي.
(2) كراس أو كيراز.
(3) داربه.
(4) بيندانه.
(5) كوتيك.
(6) غوهار.
(7) بازين.

ويرتدين سلسلة فضية طويلة حول العنق تثبت فيها زينة[1] بشكل هلال مثل علبة التعويذة وعلب فضية مثلثة على كلا الجانبين. هذه الأكياس الثلاثة مزخرفة أيضاً بأجراس فضية صغيرة ـ تسعة تتدلى من الهلال وثلاثة لكل قطعة من المثلثات. سألت إن كانت هذه العلب تحتوي طلاسم سحرية، فأجابوا بالنفي: لقد كانت مملوءة بشمع النحل.

حول الخصر ترتدي الفتيات نطاقاً[2] ناعماً مطوياً. والعرائس وحتى كثير من البنات غير المتزوجات يرتدين حزاماً مناسباً عرضه حوالي بوصة ونصف مثبت بإبزيم فضي ضخم ذي نقوش ومثبت بدبوس فضي.

ولدى الحديث عن الوشم، كانت النسوة تطردن بمرح الرجال الذين كانوا ينتظرون عند الباب. لكنني سأتكلم عن الوشم في مكان آخر.

لم أستطع إبقاء مضيفيَّ ينتظران وقتاً أطول، وأخذني خضر من الباحة عن طريق الدرج الخارجي إلى الغرفة العلوية.

كان القوال ـ وهو الرجل ذو اللحية وتعابير الوجه اللطيفة قد حضّر الشاي وكنت أساعده بينما كان يستعد ليملأ الكأس بالسكر. والجميع صاحوا باشمئزاز مصطنع: «ما نوع هذه الشاي؟» لأن شايهم كان شراباً حلواً. ولاحقاً حمَّص مضيفي الطيب القهوة وطحنها وحضرها. في هذه الغرفة العلوية كانت هناك مقاعد ذات

---

(1) باربنغ.

(2) كامبارا.

عرض يصلح للجلوس بوضعية القرفصاء، وكان عدد من الضيوف متجمعين في أنحاء الغرفة.

حان وقف الحديث عن الطعام الممنوع على اليزيديين، وسألت القوال سلمان كي ينوِّرني حول هذا الموضوع لأنني قد سمعت أخباراً متضاربة. قال: «لا يمكن أن نأكل الملفوف، لكن القنبيط مسموح. اللوبياء والبامياء والخس ممنوعة». احتج بعض الرجال قائلين: «ليس اللوبياء». «في جبل سنجار يأكلون الفول لكنه هنا ممنوع». أما بالنسبة للبامياء فهناك من يأكلها هنا. لكن يجب ألا يكون ذلك. السمك حرام إذ لا يمكن ذبحه بالطريقة الملائمة، ومن اللحوم الأخرى، يمكننا أن نذبح ونأكل أي حيوان يُسمح بأكله حسب الشريعة الإسلامية، بما في ذلك الغزال والطيور. وكالمسلمين لا نأكل الخنزير. سألت القوّال عن الزراعة والمحاصيل، لأن أهل سبأ في الجنوب لا يبذرون ولا يغرسون عندما لا يكون القمر بدراً، أجاب أن اليزيديين لا يفضلون الهلال.

وعندما نهضت للذهاب، عرض عليَّ أن يأخذني إلى بستان زيتون يبعد حوالي نصف ساعة عن بحزاني لأرى مزار الشيخ أو بكر. أثناء تكرار الأسماء قلت الشيخ أبو بكر فصححوا لي. «اسم الشيخ أوبِكر». قال أحدهم من الغرفة: «ويعني ذلك رجلاً طاهراً غير متزوج».

وهكذا انطلقنا نعبر الجدول قرب أشجار الزيتون، وكانت تحتها وزات وبطات مع عائلاتها من الفراخ الصفراء ترعى من العشب وتهسُّ نحونا عندما كنا نمرّ. ونحو الأعلى في الوادي كانت هناك معاصر الزيتون المحفورة في الصخر الطبيعي. وعلى رف منحدر من الصخور وقف رجل حافياً يدوس على كيس من

الزيتون ليخرج الزيت منه. وبجانبه كان الماء يُسخَّن في أوان، وكان يعطى من وقت لآخر ملء حوض منه بينما كان مستمراً في رقصته الموزونة فوق الزيتون. صبَّ الماء الساخن على الكيس كما لو أنه يريق سائلاً لإله الغلال ولا يتوقف عن الدوس لحظة واحدة. كان الزيت الذي ينزّ من الكيس يجري فوق الصخر، ويقع في خزان من الماء تحت ويتجمع على السطح لكي يستخلص لاحقاً ويخزَّن في صفائح بترول.

يقع مزار الشيخ أوبكر في الجهة الجنوبية الغربية. يتوّج المبنى برج مخروطي محزز، والباحة محاطة بجدار منخفض، وخلف المزار غرفة ومطبخ للحجاج. لكن قداسة المزار الحقيقية تكمن في المغارة المجاورة التي تغوص أرضيتها جزئياً في ماء رقراق بارد كالجليد يخرج من النبع في الصخر. حفر هذا الماء طريقه عميقاً أثناء جريانه عبر ضفاف تنمو السرخسيات عليها، ليسقي بستان الزيتون. وفي البركة المقدسة أسماك صغيرة وأشياء تظهر كأنها شراغف (أفراخ ضفادع) كبيرة ولكنها ليست باللون أو الشكل العاديين. قال جدان إنها صالحة لشفاء الثآليل. وبجانب النبع المقدس، كالعادة ـ تنتصب الشجرة المقدسة، شجرة التوت ـ وقد ربطت عليها أسمال كثيرة كنذور.

سألت القوال كيف تصنع أبراج المزار.

قال: «أولاً يتم إحضار عمود طويل من خشب يدعى ايسيبندار (الحور) كتقدمة، وكذلك أعمدة أقل سماكة من الخشب نفسه. يتم تركيب قرص ذي ثقوب في أعلى العمود الأوسط وفي داخل الثقوب توضع الأعمدة الأقل سماكة منحنية نحو الخارج عند القاعدة. ثم بعد ذلك ـ تثبت جميعها ـ يعني تُغطى بالجص. عدنا

وعلى الطريق رأينا أطفالاً يجمعون بعض الأشياء من سطح الصخر. سألت: «ماذا يكشطون؟».

ردّت خاتون، «إنهم يجمعون الغبار كي يضعوه بين أرجل الأطفال الرضع وهم صغار. أنتم تشترون بوترا (المسحوق) من الصيدلية من أجل أطفالكم. أما نحن فنستعمل هذا الغبار، وهو مجاني».

في يوم آخر جمعت بعضاً من هذا الغبار كي أفحصه. كان تراباً ناعماً أخضر اللون رمادياً، ربما هو شكل من أشكال تراب القصار[1].

(1) تراب القصار :Fuller's earth تراب يستعمل لقَصْر الأنسجة الصوفية أو إزالة البقع الدهنية عنها.

## الفصل السادس

# سيت غولي

«وضع ركبته بقوة على الصخرة، وقرب الينبوع مباشرةً كانت أشجار الحور والدردار تظلل الفسحة، وتنمو مقوسة فوق الرؤوس وتتشابك فيها الأوراق الخضراء».

ثيوكريتوس/الأنشودة الرعوية VII

لم يكن قد مُدِّد أي ماء إلى بيتنا ولا إلى أي بيت في القرية، لذلك كان هناك حمار ـ عُلقت على ظهره أباريق فخارية، يطرطق بحوافره ويدخل الباحة مرة في اليوم، ويصبّ الماء في جرة كبيرة ذات مسام (ألَحِبّ)، تنتصب على منصة خشبية. كانت قطرات الماء المرتشح تقطر في إناء أصغر في الأسفل.

عندما انتهيت وميخائيل من اجتماعنا اليومي حول الطعام ـ لم يكن اللحم متوفراً دائماً في القرية والطيور ليس من السهل شراؤها، لأن الجميع عندهم دواجنهم وحيواناتهم ـ انطلقت مع جدان إلى سفح الجبل، نقصد الوصول إلى آثار قلعة حجرية قديمة يمكن

رؤيتها من المرتفعات. وعندما ركبنا حيواناتنا التقينا بفلاحات تشكين أنه بالرغم من أن الأمطار في أوائل السنة كانت جيدة إلا أنه كان من اللازم هطول بعض الأمطار بسبب الآفة التي أصابت الشعير. أشارت هذه النسوة إلى اصفرار وذبول الأوراق وقلن إن المطر قد يعطي الجذور الفتية قوة للمقاومة، وإن الأمطار كانت لا تزال لازمة قبل الجفاف الذي يأتي مع الصيف. كن يراقبن السماء بأعين متيقظة.

لم تكن المحاصيل في المناطق الجبلية مروية من مياه الأنهار كما هي في الجنوب، لكنها تعتمد ـ كما في الحقول الإنكليزية ـ على السماء. سألت المختار يوماً ماذا كان يجري في الفصل الجاف وأخبرني عن تعويذة المطر. يذهب صبي وابنة من بيت إلى بيت في القرية ويؤديان رقصة، وفي نهاية كل رقصة يرمي أصحاب البيوت الماء عليهما. وفي الوقت نفسه عرفت أنه في بداية الحصاد تتم التضحية بخروف وبخروف آخر عند جمع آخر حزمة سنابل. وكلما ارتفعنا في سيرنا قرب الطريق الصخرية، كانت الأزهار أكثر عدداً وتنوعاً. إضافة إلى النباتات الخيمية، والحوذان وأدونيس الأحمر والأصفر، كانت هناك نباتات كثيرة غريبة. كانت هناك زهرة جميلة على نحو خاص تشبه وردة الصخر الصفراء ذات ورقة وساق مثل نبات الكتان[1]. جمع جدان باقة منها، عطرت غرفة جلوسنا عدة أيام. كانت الأشواك كثيرة جداً وعلى نحو خاص شوكة جميلة عليها علامات حليبية يسميها الأكراد كيفار (Kivar)[2]. وهي منتشرة بكثرة في صقلية التي كنت أتذكرها عند

---

(1) flaxplant: ربما linum mucronatum.

(2) Sylibum Marianum.

كل خطوة، ويفسر الفلاحون هنا هذه العلامات البيضاء بالقول إن حليب العذراء كان كريماً جداً بحيث إنها جلست في الحقول مع الطفل المقدس، انبجس ووسم الأوراق الخضراء إلى الأبد. وهناك شوكة أخرى اسمها كاؤب[1](*). وهي صالحة للأكل، لأنه كان من الصعب الحصول على الخضراوات في بعشيقا إلا كهدايا، فقد صنع لنا ميخائيل طبقاً من هذه في الليلة الماضية، ورش عليه بعض الجبنة، وكان لذيذاً جداً. ذقت الكاؤب هذا للمرة الأولى في الصحراء عندما نزلت ضيفة على بدو شمر. هناك نوع من الخضراوات جمعناه لأنفسنا يدعونه العرب الخباز، وهو عشبة شائعة لها أوراق الخبّاز(**) وطعم السبانخ.

اكتشفنا أننا ضيعنا طريقنا إلى القصر، الذي كان يفصله عنا واد ضيق، لذلك تسلقنا الصخور إلى هضبة استطعنا أن نراها من فوق سهول طويلة وتلال زرقاء تمتد أربعين ميلاً أو أكثر. هنا أضفنا حجارتنا إلى الركام الموجود في النقطة الأكثر علواً. نظر جدان نحو جبل سنجار حيث ترك زوجته وطفليه الصغيرين، وامتدح هواءه ومناظره. قال إن هناك قرب بيته مزاراً يدعى شيخ أبو القاسم. والحجاج الذين يزورونه ويمتنعون عن أكل اللحوم سبعة أيام بلياليها ـ كما قال ـ متأكدون أن رغباتهم تتحقق، لكن يجب ألا ينسوا أن يدفعوا للوصي قدر ما يستطيعون. عشرين فلساً،

---

(1) Gundelia Tournefortii.

(*) الكَعُوبُ: سيقان خضراء قصيرة شائعة في كردستان، تؤكل خضراء أو مسلوقة. (المراجع)

(**) الخُبَّاز: خضرة الفقراء حتى أصبح المثل عليها:
. . .والعشا خباز. (المراجع)

خمسين فلساً أو حتى مئة فلس. (ذلك يعني شلنين، وهو مبلغ قليل إذا تحققت رغبة القلب). سألت عن الشق في الصخور الذي يقال إنه موجود في جبل سنجار، والذي كان اليزيديون يرمون فيه المال والمجوهرات عبر القرون. عن هذا سمعت حكاية. خطرت لأحد اليزيديين فكرة، بعد أن فكر بالكنز الموجود في أسفل الشق. أنزل قطعة من الخشب ملطخة بالزفت إلى الأعماق على حبل طويل. واستطاع أن يحصل على بعض العملات والزينة كما يصطاد السمك. لكنه لم يستطع أن يحتفظ بكنزه (El Dorado)(*) لنفسه، وعندما تسرب سرّه إلى الناس، طارده سكان الجبل وهرب خوفاً على حياته.

قال جدان مشيراً إلى الجهة الشمالية الشرقية: «هناك الشيخ عدي، حيث سنذهب معاً إذا شاء الله يا خاتون». وسيذهب إلى هناك وهو مسرور لأنه لم يذهب إلى هناك في رحلة حج منذ أن أخذوه وهو طفل. في الطريق نزولاً توقفنا أمام جدول ينبجس من تجويف أخضر على سفح التلة. تبعناه حتى النبع الذي كان يغذيه، حيث كان العشب ينمو مع أوراقه الخضراء تحت أشجار الحور. هنا عند رأس النبع كان مزار صغير له برج صغير محزز وله وصي قوّال. كانت الشجرة المقدسة العادية قد ذبلت. لكنها زُيِّنت بقطع قماش من ألوان كثيرة، وكان هناك حجر مقدس تحت المخروط في فجوة، يغلقها قرص حجري مثل الخزانة. كان في داخلها مصباح زيت زيتون من الطراز القديم. كانت اثنتان أو ثلاث من النسوة مع

---

(*) إلْدُرادُو: El DORADO: كنوز خيالية مخفية من الذهب والمجوهرات الثمينة، كان يعتقد المستكشفون الأوائل أنها في الأمازون! (المراجع)

أطفالهن يمضين الوقت قرب النبع: وكانت البنات قد وضعن زهرات الحوذان الحمراء في شعورهن. كانت أيديهن وأذرعهن موشومة وقد سرّهن اهتمامي بتصاميم الوشم. أخبرني القوال ـ الملتحي والطيب ـ أن زوجته كانت دقاقة ـ أي تمتهن أعمال الوشم. سألنا عن المزار عندما أزال القوال القرص الحجري بحيث نستطيع وضع تقدمة قرب الحجر. قال: «إن المصابين بالحمى يربطون قطعاً قماشية إلى الشجرة، وبإذن الله يشفون».

كان الوصي على هذا المزار الصغير ـ المحاط بجدار غير متقن نمت بين حجارته عشبة لسان الثور والحوذان والأشواك ـ يدعى عزرايل، لكن في هذه البقعة كان ـ ملاك الموت ـ يبدو بعيداً. وحتى عندما عدت إلى باحتنا، حيث كان تغريد طيور السنونو السعيد، التي كانت تندفع من وإلى أعشاشها، يملأ الممر المقنطر، كان أمراً قاسياً أن ندرك، عندما فتحت الرسائل من بغداد، أن (عزرائيل) كان نشيطاً وكانت القنابل والمدافع الرشاشة توزع الموت في النرويج. كانت الأخبار مزعجة لأنه ـ حتى الآن ـ أقنعني تقريباً عدم وجود الراديو والجرائد اليومية أن الحرب كانت حلماً شريراً.

* * *

في صباح اليوم السابق في بحزاني، بعد أن رأيت الشيخ المنفي على سطح مجاور في شارع القرية، صرخت لأسأل عن صحة ابنته الصغيرة، فصرخ مجيباً «بحال أحسن»، وعندما وصل رشيد ليطلب إليَّ أن أشرب الشاي في بيته، وصلت أخبار أن الطفلة لا تزال حية. جاءت الشيخة العجوز «سيت غولي» مع رشيد كي ترد لي زيارتي لها ولكي تخبرني أنها قصدت أن تذهب إلى الموصل حيث

كان ابنها مسجوناً، ولكي تتوسل إلى المتصرف أن يطلق سراحه. قالت كان هناك ظلم. فالرجال الذين حوكموا أمام المحاكم العسكرية حكم عليهم بخمسة عشر عاماً، بينما حكم على ابنها بالسجن مدة ثمانية أعوام في محكمة مدنية. لقد مُنح العفو للذين سجنوا بموجب الأحكام العسكرية، لكن ابنها، الذي حكم عليه بجريمة أقل أهمية، لا يزال يرزح في السجن. هل عليَّ، أنا التي كان زوجي في الحكومة، في وزارة العدل، أن أكتب رسالة إلى المتصرف لتأمين حريته؟.

كم كان من الصعب أن أشرح لها بالقدر المستطاع من الهدوء أن النقض أو التأثير على حكم أصدرته المحاكم ليس في مقدوري ولا مقدور زوجي. في هذه البلاد حيث الشأن العام غالباً ما يكون خاضعاً لمطالب اهتمامات العائلة أو الصداقة الخاصة، يبدو الهدف الغربي البارد للموضوعية المطلقة في الأمور الرسمية غير طبيعي وغير إنساني معاً. حاولت لاحقاً أن أشرح هذا لرشيد، عندما عدت معه لنجلس تحت عريشته من أشجار الكرمة الفتية. غلى إبريقاً وحضّر لي كأساً من الشاي المثلث الألوان: أبيض في الأسفل حيث ذاب السكر في الماء الغالي، وفوق ذلك منقوع من أوراق الليمون الغضة، وهو أخضر شاحب، وفوق الجميع لون الشاي الكهرماني الأصفر البني. قال: «صحيح» لكنه كان لا يزال محتاراً قليلاً. «أنتم الإنكليز لكم طرق أخرى. لكني أفهم شيئاً من طباع الإنكليز والأمريكيين ولأنني رافقتهم مدة طويلة عندما كانوا يعملون في تل بله (Tell Billa)». وتابع يتكلم عن المنقبين، وعلى نحو خاص إعجابه بالدكتور سبايسر (Dr.Speiser) الذي كان يمدحه أمام كل من في القرية. وقادنا هذا للتحدث عن التغيير الذي كان

سيحدث على أفكار الناس مع إدخال المدارس الحكومية. أشار رشيد إلى أن الصعوبة كانت تكمن في أن العناية بالأرض كان في أيدي اليزيديين على نحو كامل، وفي بعض المواسم كان المزارعون لايكادون يستطيعون الاستغناء عن مساعدة أولادهم علاوة على ذلك، كانوا يخشون المدارس أن تسرق منهم أولادهم وترسلهم إلى المدن.

أكدت له أنني كنت أتعاطف مع وجهة النظر هذه وأن المسؤولين عن التعليم يدركون هذا الصعوبات ويواجهونها بطريقة مرضية. بيني وبين نفسي، كنت أقارن الأخلاق الجيدة لأبناء الفلاحين الذين قابلتهم مع أخلاق أولاد المدرسة الأكبر سناً في ثياب الخاكي الحكومية الذين التقيت بهم عائدين من المدرسة. كان هؤلاء ميالين للتحدث بصوت مرتفع، من أجلي عندما مررت، وعندما حانت لي الفرصة للتحدث معهم حول موضوع ما، كانت ثقتهم الوطنية تتضاءل وكياستهم الطبيعية تؤكد نفسها. علاوة على ذلك، بدا لي أن الأطفال الذين رأيتهم في الحقول كانت لديهم ميزة ليس في الأخلاق فقط، بل كانوا مساوي في ذكائهم وسرعة بديهتهم لأي من الأولاد الذين نشأوا في المدارس. فوراً انتشر في الخارج الخبر أن الرسائل وصلتني وصاروا يسألونني عن الأخبار. كان هذا يحدث في كل مرة تجلب لي سيارة الشرطة بريداً، وإذا كان بالإمكان القول إن بعض النجاح قد تحقق للحلفاء فستكون هناك ابتسامات و«شكر لله».

عرضت عليَّ سيت غولي أن تأخذني إلى بعض المقامات المقدسة؛ لذلك جاءت بعد الظهر التالي، بعد أن كنت قد تقاسمت الأخبار مع مدير القرية، كانت جميلة في شبابها وكانت لا

تزال قامتها منتصبة كقامة شابة. كان كاحلاها المغموسان في حذاءين خفيفين قديمين مهترئين، نحيفين وكانت بشرتها بيضاء كثيابها تقريباً. وبينما كنا نصعد التلة أخبرتني بالتدريج المزيد عن تاريخها. توقفنا قرب طاحون الماء لنستمتع برائحة الدقيق المنعشة ونراقب الماء يدور صاعداً إلى الأعلى من تحت الدولاب، ثم يتابع بجانب معاصر الزيتون، ويلحق بالجدول بين التلال الخضراء.

قالت: «نعم لقد تعرضت للمشاكل، المشاكل الكثيرة. بقي زوجي في السجن مدة خمسة عشر عاماً، احتجزه الأتراك هناك. لقد كان رجلاً صالحاً، لم يقتل أحداً أبداً ولم يسرق ولم . . . . . ». لكني نسيت سلسلة الفضائل السلبية التي ذكرتها. بدا أن جريمته كانت معارضته للحكومة بطريقة غامضة ـ اعتاد اليزيديون أن يظنوا ان جميع «الحكومات» أعداؤهم الطبيعيون، ويسلِّمون بها كما يسلمون بالقحط أو العاصفة.

لم يكن ذلك كل شيء. «عندي ثلاثة أطفال، ياخاتون؛ ابنان: ابني الموجود في السجن في الموصل وابن آخر، وهو أخوه الأصغر. والطفل الثالث ابنة. سيدتي، أمامي ـ في حضرتي ـ ذبح ابني الأصغر ابنتي. قطع عنقها أمام عيني». غار صوتها بينما كنا نسير فوق الحجارة.

سألتها: «لماذا؟ لماذا، ماذا كانت مبرراته؟».

«كانت هناك أقاويل»، أجابت بتجهم. «كانت الفتاة جميلة وكانت هناك أقاويل حولها».

«أقاويل (حكي «حتشي» بالعربية العامية)» غالباً ما تعني فضيحة حول عفاف الفتاة. لكنني عرفت لاحقاً أنه لم يكن هناك أي شيء من

هذا، لقد كانت قصة حب خارج الطبقة. لكن الشيخة العجوز لم توضح. قالت فقط وكأنها تتحدث إلى نفسها: «كانت الفتاة حلوة وكانت هناك أقاويل حولها. لم يكن لي ابنة سواها، وكانت في السابعة عشرة من عمرها لا أكثر».

«ماذا حدث له؟» سألتها. قالت إنه حكم عليه بالإعدام، لكن لأن الأمر كان يتعلق بشرف العائلة فقد وضع في السجن. كانت زوجته، وهي أم لطفل، الآن في بيتها مع زوجتَي أخيه الأكبر وأولاده. كان الحادث قد وقع منذ أقل من أربعة أشهر، وليس عندها ما تقوله ضد الحكم، لأنه ـ كما قالت ـ يجب أن يدفع عن إزهاق روح أخته. «لكن ابني الأكبر»، قالت: «أخاه هو في السجن عن غير حق، يا خاتون، وأنا منشغلة عليه، وأعمل لإخراجه من السجن...»، عدنا للسؤال القديم.

كنا قد وصلنا الآن إلى بركة الغسيل العليا عند رأس العين، حيث ركعت النسوة على الحجارة وبجانبهن قطع الصابون السميكة البيتية الصنع، يدقُقن ويعصرن ويشطفن الثياب. تبعتها إلى المكان الذي يختفي فيه الجدول وراء الصخور.

قالت لي «تعالي»، وبدأت تصعد الصخرة الناعمة وهي تضع قدمها في شقوق هنا وهناك. تبعتها إلى منتصف الطريق دون رغبتي، لأنني فكرت في العودة. ألحت قائلة «تعالي،تعالي».

حول الزاوية كانت هناك درجات متآكلة محفورة في الصخر. وفوق الصخرة الكبرى أخَذَنا انعطاف إلى اليمين إلى مغارة، وهي مكان ولادة النبع، لأنه كان ينبجس هنا من الصخر. «هذا» قالت، «هو الكاف».

أذكر الكلمة كما نطقتها، لكن معلم المدرسة أشار فيما بعد إلى أن الكلمة هي «كهف»، التي تعني ببساطة «مغارة». لكنني متأكدة أن «كاف» بالنسبة لسيت غولي ـ ولغتها الأم هي الكردية ـ كانت اسم جنيّ المكان. أشارت إلى صورته. وداخل المغارة ـ حيث كان الماء يحفر قناة عميقة تشطر الأرض إلى نصفين ـ تشكّلت غرفة في الصخر الطبيعي ويد الإنسان ساعدت في ذلك. هنا كانت كوى في الجدران، وقد سوّدها دخان المصابيح المقدمة وفاء لنذر، ورفوف للتقدمات ومصابيح. داخل الغرفة حُفرت ثلاث لوحات. كانت إحداها مطموسة بالكامل. وتحتوي الثانية شكلاً بشرياً مفرداً جالساً يواجه المتعبد، مثل بوذا تقريباً في وقاره وسكونه، لكنه لا يجلس القرفصاء. يرتدي هذه الشكل قبعة مخروطية ويجلس في إطار مقعر تقليدي، يشبه شكل زهرة اللوتس أو برعم زهرة. واللوحة الثالثة مقطعة ومطموسة، لكن يبدو فيها بوضوح شكل شخص ذي لحية جالس يرتدي قبعة مخروطية، وكذلك موكب يتجه نحوه في موجة من الحركة والتعبد. هناك ذراع مرفوعة تحمل صحناً إلى الأعلى، لكن معظم التفاصيل قد طُمست. وعلى أرض الغرفة رسم مستطيل فيه اثنا عشر تجويفاً صغيراً مستديراً، كل ستة من جانب، ربما لوحة لعب قمار. وعند عبور الجدول إلى الطرف الآخر من الغرفة، تستطيع أن ترى على الصخرة فوق النبع، نقشاً تالفاً لوجه كامل في رأس، ذي لحية يرتدي خوذة مشابهة لخوذتي الشكلين الآخرين. وهناك كوة في الحائط تحتوي مصباحاً من نموذج عتيق محفور في الصخر بجانبه. أثناء عودتي إلى بغداد، أخبرت إدارة الآثار عن هذه المنحوتات، التي لم يكن لديها أي سجل عن المكان.

تبعتنا فتاتان إلى داخل المغارة. قالت إحداهما إن الشكل كان كاف، وقالت الأخرى إنه كان اسم المزار فقط. قالتا إن الماء كان بارداً جداً، وفي الصيف إذا استحمتا هنا فإنه سيكون «مثل الجليد».

رافقتنا إحدى الفتاتين إلى الطاحونة، وهي مسلمة لكنها كانت ترتدي اللباس الكردي الذي يُلبس هنا بغض النظر عن الديانة. كانت طويلة، ذات عينين خضراوين رماديتين مثل ماء البحر الصافي، ولها رموش سوداء ووجه بيضاوي. علّقتُ على جمالها عندما غادرتنا، لكن بكلمة «ما شاء الله» الوقائية، لأنه لا يجوز لشخص أن يمتدح دون ذكر اسم الله.

في صباح اليوم التالي كانت سيت غولي ستريني مزيداً من المزارات الدينية. ذهبت إليها مع جدان. كانت مستعدة لنا وأخذتنا أولاً إلى أهم وأكبر مزارفي بعشيقا وهو مقام الشيخ محمد الحنفي. يقع على طرف القرية، بجانب الكنيسة اليعقوبية البسيطة مباشرةً، والتي هي أيضاً على مرمى حجر من المبنى اللاتيني الجليل. في مقام الشيخ محمد تُقام الاحتفالات الدينية لعيد الربيع، والفسحة العشبية المكشوفة أمامه تستخدم لكل من المعرض والرقص.

لم نستطع الدخول: كانت البوابة إلى الباحة والحديقة مقفلة، وبدلاً من ذلك أخذنا الطريق إلى بحزاني. هناك ممران إلى تلك القرية وفي المكان الذي يفترقان فيه توقفت الشيخة قرب المزار المحاط بجدار منخفض وغير متقن. لم يكن هناك أي ضريح أو مخروط، وكان موضوع الاحترام ليس إلا حجراً كبيراً موضوعاً في السياج شبه الدائري. على كلا جانبي الحجر كان هناك عدد من الأباريق المكسرة ومعها صفيحة صدئة من قصدير أو نحو ذلك، وكذلك ملعقة خشبية منحوتة من قطعة واحدة من الخشب.

انحنت سيت غولي كي تقبّل الجدار في عدة أمكنة، وتوقفت بجانبنا امرأة كانت مارة من هناك تنظر إلى تقواها، لتقول لنا إنها بينما كانت تسير في أحد الأيام بجانب المقام، حذفت «الزيارة» يعني نسيت أن تقبله. «ومنذ تلك اللحظة» قالت «تورمت عيناي وصارتا تؤلماني». قالت هذا وانحنت وقبّلت الحجر والجدران قبل أن تحمل رزمتها على كتفها من جديد وتتابع طريقها.

قالت سيت غولي وهي تجلس على الجدار المنخفض: «هذا هو مزار الشيخ موس السور (Mus-as-sor). (موس الأحمر)»، وشرحت لنا عن القطعة الفخارية المكسورة. إن من كانوا يعانون من الحكة أو من أي إصابة جلدية، يزورون المقام وهم يحملون ماءً في وعاء. وعندما كانوا يُحيّون المكان، كانوا يصبون الماء على الأرض، ويكشطون بعض التراب الرطب ويضعونه على المكان المصاب، وبعد ذلك يكسرون الإبريق أو يرمون الوعاء ويتركونه وراءهم. «أنتم الإنكليز»، قالت نصف مبتسمة، «تشترون زجاجات الدواء (العلاج) من الطبيب أما نحن فنذهب إلى مقاماتنا الدينية».

أضاف جدان إلى هذا قوله إن بعض الشيوخ كانوا يحتفظون معهم بزجاجات من غبار من مقامات مختلفة وكانت كل واحدة مفيدة لبعض الشكاوى مثل العينين المتقرحتين، والأطراف المؤلمة، والإمساك والإسهال. إذا شربت التراب محلولاً في الماء للشكاوى الداخلية، أو إذا وضع على السطح للشكاوى الخارجية فإن هذه العلاجات تكون ذات تأثير كبير إذا أُخذت بعد سبعة أيام من الصوم والصلاة.

أخذنا الطريق اليسرى أو السفلى ووصلنا إلى مزار آخر. هذه المرة كان قبراً منخفضاً من النموذج العادي، وهناك حجران خشنان

يعلّمان الرأس والقدمين دون أي كتابة. كان هذا المقام مثل الشيخ موس محاطاً بأكوام من شظايا أوان فخارية، وصفائح صدئة وزجاجات. اختفت شاهدة الرأس تحت خصلة من خيوط صوفية بيضاء لُفت حول الحجر الذي تحتها فغطته بالكامل. اسم راعي المكان بير مامي (Pir Mame) ويشتهر المزار بشفاء آلام القلب والرأس. لا يكفي صب الماء ووضع الطين المقدس لكن يجب إحضار خيط صوفي أبيض نظيف، ومجدول في البيت، تغسله الأم وابنتها، ويلف حول شاهدة الرأس.

وبعد الدوران حول بساتين الزيتون تحت بحزاني رفعت العجوز المنتصبة ذراعها العارية وقالت: «ألمسي». كانت بشرتها حارة وجافة وكان نبضها سريعاً. صرخت «أنت محمومة» وكنت منشغلة البال. «لنعد فوراً».

قالت: «لا يهم».

«ألا تشعرين بالصداع؟».

أعلنت أنها لا تشعر، وعلى أي حال كانت ستذهب إلى الموصل عند فجر اليوم التالي لترى المتصرف.

لما وجدتها مصممة على الاستمرار، تبعناها إلى مزار الشيخ مسعود. ويتألف هذا من مبنى صغير تعلوه القبة المخروطية المحززة، وإلى الشرق هناك باحة صغيرة محاطة بجدار منخفض يمكن للمرء أن يخطو من فوقه. في الزاوية الشمالية الغربية من المزار هناك قبة مخروطية مستديرة أصغر من الأولى فيها فتحة لتقديم النذور. هنا صلّت سيت غولي طويلاً وبحماسة باللغة الكردية، وقبّلت حجر الزاوية مرات كثيرة ـ «هذا من أجل ابني؟» قالت وهي تنظر إليَّ وتأمل دوماً أن يكون فيَّ تلبية لصلواتها.

وفي مكان قريب، مجاور لبحزاني، هناك مزار آخر، مشابه لمزار الشيخ مسعود، بُني فوق ضريح. كانت امرأة مارة من هناك، صرخت بغضب عندما رأتني أكتب اسمه «الشيخ عبد العزيز» في دفتر مذكراتي. «لا تدعوها تأخذ صورته!». لكن الشيخة ـ ذات السلطة من الطبقة الأعلى ـ وبختها لتعصبها.

ذهبنا جميعاً إلى بيت الشيخ في بحزاني، كي نستفسر من جديد عن صحة ابنته المصابة وجرى استقبالنا بحماسة. لم تكن الطفلة حية وحسب، بل كانت تنط بالرغم من أن عينها كانت متورمة وسوداء. قال الشيخ إنه سيأتي لزيارتي، لكن بالرغم من مودته الظاهرة، فإنه لم يفِ بوعده أبداً. من المحتمل أن الناس في بحزاني، وهم أكثر تعصباً من الناس في بعشيقا، أثنوه عن نيته، فأرسل لي رسالة غريبة «إنه يخاف أن يأتي».

عدنا من الطريق العلوية، ومررنا بجانب مزار الشيخ سجا الدين، الأبيض الساطع فوق قمة تلته الخضراء. أشارت سيت غولي إلى أنه مزار جدها الكبير. ثم ذكرت لي بعدم اهتمام إلى قريب أكثر شهرة بكثير ـ كبير الملائكة جبرائيل (Archangel Gabriel)[1] قالت: «جبرائيل أيضاً من عائلتنا. فهو الذي يقطع رؤوس الموتى». كررت قائلة: «يقطع رؤوس الموتى» وأنا خائفة قليلاً. أجابت: «نعم. . ألا يأتي الملاكان عزرائيل وجبرائيل في وقت الموت؟ إن جبرائيل هو الذي يقطع الرأس ليدع الروح تخرج وتطير». لاحقاً سألت القوال

---

(1) تعتبر الحكاية اليزيدية أن مرافقي الشيخ عدي أيضاً كانوا أكثر قداسة من أن يتزوجوا وينجبوا أولاداً بالطريقة العادية. بالواقع يقال إنهم كانوا تجسداً للملائكة أو إنهم انحدروا من مثل هذا التجسد. ومن هنا فقط كانت سيت غولي تعبّر عن الحكاية المتناقلة في العائلة.

عن هذا الاعتقاد فعدَّل قول سيت غولي. قال: «إنه لا يقطع الرأس، بل يقطع الحنجرة بحيث تستطيع الروح أن تخرج».

هناك مزارات أخرى مخروطية بيضاء على قمم التلال بين القريتين وهي للشيخ حسن البصري[1]؛ وكانت تحته فلاحة تقبّل الصخر بورع، وكانت مجموعة مكرسة لخدمة الشيخ زندان وأخته ـ الست نفيسة وأمه خديجة. أخبرتني سيت غولي أن الشيخ ـ زندان ـ المحبوس في دمشق، أرسل رسالة مع حمامة زاجلة إلى أمه وأخته في جبال هكاري. سافرتا إلى سوريا وتوسلتا بشأنه على نحو مؤثر فأطلق سراحه.

عدنا إلى بعشيقا، وكتبتُ رسالة تأخذها الشيخة معها في اليوم التالي. لم أجرؤ على الكتابة إلى المتصرف شخصياً، حتى لا يقال إن امرأة انكليزية كانت تحاول أن تتدخل في الشؤون الرسمية. خاطبت الناس المناسبين «من يهمهم الأمر» وأخبرتهم عن مصاعب هذه المرأة العجوز وفقرها، وأملت إن كان من الممكن تخفيف الحكم بأي طريقة لكن الرسالة لم تُسلّم. انطلقت المرأة العجوز في الرحلة إلى الموصل في اليوم التالي تحت وطأة الحمى، وعندما وصلت إلى هناك وجدت أن المتصرف كان قد غادر الموصل ليشرف على عمليات مكافحة الجراد في قرية تبعد أميالاً.

(1) وهو إما قبر أجوف ـ مثل كثير من المزارات الأخرى ـ أو إنه باسم خاطئ. فضريح الشيخ حسن البصري يظهر في شيخ عدي.

## الفصل السابع

# الدير علي الصخر

«بهداية أحد آلهة الإغريق جئتَ إلى هنا، والأغرب...».

ثيوكريتوس/الأنشودة الرعوية XXV

في صباح يوم الجمعة، عندما نظرت إلى غيوم العاصفة وهي تتجمع، قررت أن أجعل ذلك اليوم حجاً مقرراً منذ عهد بعيد، لكن هذه المرة إلى قديس مسيحي ـ وليس يزيدياً ـ قبل أن يجعل المطر الغزير طريقنا غير سالكة.

قلت لميخائيل «اذهب إلى الشرطة، واعرف إن كانوا يستطيعون أن يجدوا لنا سيارة تأخذنا إلى مار متّي». تركته يدبر الأمر، لأن سيري غامب(*) كانت قد وصلت، مهتمة جداً بأخذي إلى أم ولدت مؤخراً. قالت بلهجة المعتذرة «ليست يزيدية بل مسلمة». تبعتها عبر الأزقة الضيقة في القرية حتى وصلنا إلى باحة تملؤها الأوساخ والأشياء غير المنتظمة حيث كانت الطيور تعيش، وكان

(*) المولّدة. (المراجع)

كلب أشعث ينبح علينا لكن أحداً صرخ به فسكت. نزلت بعض الدرجات الطينية إلى قبو كانت المرأة قد وضعت رضيعها فيه تستلقي على الأرض وقد نشر فوقها لحاف قطني. حيتني وحاولت أن تنهض لكنني منعتها. كان الرضيع كاليرقة الصغيرة - ورأسه معصوباً ومربوطاً وحواف عينيه سوّدها الأنتيمون (antimony)(*)، نائماً بجانبها. جلبوا لنا البيض واللبن والخبز الكردي الرقيق حتى لا تكون للزيارة آثار شريرة؛ لذلك أكلت وردَّدت كلمة «ما شاء الله» مرات كثيرة لإبعاد العين الشريرة، ثم بدأت أعتذر أريد الانصراف.

قلت: «أنا ذاهبة إلى دير مار متي، وسأطلب البركات لك وللطفل». ابتسمت المرأة لأن القديس كان محترماً بين المسلمين، وعندما دسست بعض الفضة في ثياب الطفل، شكروا الله لهذه الهبة، وعند المغادرة أرتني الأم غامب المشيمة وقد وضعت بعناية لوحدها في صفيحة بترول. أخرجتها ولفتها في قطعة من قماش صوفي أبيض، وأدخلت إبرة فيها خيط في الطيات، وأخبرتني أنها ستدفنها فيما بعد.

«أين؟» سألتها.

«خارج القرية» أجابت[1].

عندما عدت وقفت أمام بابنا سيارة فورد متداعية، والسائق - رجل حزين الوجه يدعى عزيز كان ينتظرني. كان سيأخذنا إلى هناك ويعود بنا مقابل ثلاثين شلناً. كنت قد سمعت أن الرحلة إلى

---

(*) الكحل: أحد أملاح عنصر الأنتمون. (المراجع).

(1) كانت ولادة إسلامية: يبدو أن اليزيديين يفضلون حرم الدار.

الدير قد تأخذ مجرد ساعة واحدة، وأن سيارات الأجرة رخيصة عادةً. تذمرت من الأجرة التي طلبها. تدخل الشرطي بقلق وقال: «لكن الطريق سيئة»، كانوا قد دبروا الأمر مسبقاً. «يا خاتون، لقد دفع عزيز هذا لتوه ستين جنيهاً من أجل سيارته».

وهكذا دخلنا السيارة، وكان مخائيل مسروراً لأنه كان ذاهباً للحج إلى مقام محترم، وجدان لأن مار متي كان محترماً من اليزيديين وكذلك من المسيحيين، والشرطي الكردي الذي طلب أن يذهب أيضاً، لأنه كان راغباً في نيل البركة التي تحصل من زيارة مكان مقدس.

لم تكن الطريق سوى درب عبر حقول القمح والأزهار، وكانت تمر فوق جدول وخندق، تتبع خط سفوح التلال حتى وصلت إلى طريق أكرا Akkra العامة. وبعد ذلك انعطفت يساراً نحو الجبال، وأصبحت أكثر سوءاً على نحو مطرد. كان يبدو أنه من المحتمل في بعض الأماكن أن تحطم السيارة نبعاً أو تقع على جانبه، لكن عزيز استطاع أن يبقيها تسير بكبرياء كئيب في بطولات بهلوانية. كانت هناك بقعة سيئة تحت القرية مباشرةً تدعى بير بانك (Bir Banek) حيث كانت سيارات الشحن المحملة بالرخام من المقالع قد حفرت حفرة كبيرة في الطريق.

هناك وفي أمكنة أخرى فضلنا النزول من السيارة والسير بدلاً من تعريض العمود الفقري للهزات العنيفة. هناك بئر في بير بانك، وهو بركة مستديرة عميقة مغطاة بطبقة كثيفة من طفاوة خضراء. في الشتاء يشرب القرويون من جدول جبلي يعبر الطريق بجانبه، لكن في الصيف يعيشون على هذا البئر غير الصحي على نحو واضح. بعد ذلك بقليل نزلت السيارة نحو واد فيه قريتان: مرجي (Mergi)

ومُغارة (Mughara) يمكن مشاهدتهما تحتنا، تتألف كل واحدة منهما من عشرة من البيوت ذات السطوح المنبسطة البنية اللون. والقريتان مسيحيتان. قرب مرجي مررنا بفتاة في ثياب العرس وكانت مسرورة جداً، بحيث إنني ندمت أنني لم أتوقف لأخذ صورتها. خاطبنا مختار مرجي من سطح بيته في نبرات مضيافة وتوسل إلينا أن ندخل لنجدد قوتنا، لكننا كنا نريد المتابعة، وشكرناه ووعدنا أن نزوره أثناء عودتنا. تركنا عزيز هنا مع سيارته وانطلقنا سيراً على الأقدام نحو الدير المعلق عالياً مقابل واجهة الصخر. استغرق الصعود ساعة على طريق البغال المتلوية الشديدة الانحدار المحفورة في الصخر والتي كانت في بعض الأماكن تشبه الدرج. توقفنا مرتين كي نستريح ونستردّ أنفاسنا، مرة قرب شجرة سنديان ربطت إليها قطع قماش مقدمة وفاءً لنذر. سألنا فتاة كردية كانت تنزل بخفة على الممر عن اسم الشجرة، فأجابت أن اسمها قتل لوسيا «Qatal Lusia» لأنه حدث مرة أن امرأة اسمها لوسيا قتلت عند جذعها. وفوق الشجرة بقليل كان ممر مائي خرب منحوت بإزميل في الصخر الطبيعي يعمل على جلب الماء من الصهريج المكسر في الأعلى، وبالقرب كان هناك بستان زيتون على الرف الصخري النائي.

وعندما كنا نصعد بجهد آخر قطعة من الصخور، نزل شخص صغير يرتدي لباساً أسود وقبعة راهب، مبتسماً كي يلاقينا، كان يحمل إبريقاً وكأساً، وصب لي شربة من ماء بارد صاف. كان هذا الولد الذي يبلغ ـ ربما ـ الثانية عشرة من عمره، مبتدئاً في مدرسة الدير. مررنا بجانب بوابة خربة، وفي الوقت الراهن كان الدير يشغل مكاناً أصغر من الدير القديم وطبقاً لما قال المطران ـ وهو

الأسقف المقيم ـ كان اثنا عشر ألف راهب يسكنون على الصخور، وفي حجرة الطعام كان ثلاثة آلاف يجلسون لتناول الطعام في وقت واحد. ولو سلمنا أن هناك مبالغة، فمن الواضح أن هذا الدير قد شهد أوقاتاً أكثر غنى، لكنه اليوم يأوي خمسة وعشرين راهباً ككل، إضافة إلى بضعة رهبان مبتدئين. وبعد صعود عدة درجات، أخذونا فوراً إلى حجرة المطران، غرفة تشبه عش الصقر، معلقة في مكان عال فوق الأرض السهلية الزرقاء تحتنا.

كان قداسته ـ وهو رجل مسن وسيم ذو لحية بيضاء جليلة ـ يجلس على الأرض، ويبدو مهيباً في ثوبه الأسود فوق ردائه الكهنوتي القرمزي والبنفسجي، ويتدلى من عنقه صايب ذهبي ضخم. قدموا لنا القهوة، القهوة التركية الحلوة الكثيفة المخمرة، ثم القهوة العربية المرّة ذات الطعم الصافي. بينما كان المطران يتحدث إلينا كضيوف، سألنا عن الحرب؟ قال إنه رأى الكثير من المشاكل والمضايقات واستذكر أنه أثناء مذابح الأرمن قُتل الرهبان لسبب وحيد هو أنهم مسيحيون. تحدث عن زلازل حديثة وفيضانات في تركيا. وقال إنه يعتبرها ـ وهو كئيب ـ حكماً إلهياً مؤجلاً بسبب شرورهم. احتججت لكن عبثاً «الأتراك الآن حلفاؤنا وهؤلاء الناس المساكين الذين عانوا من الزلازل ليسوا الأتراك الذين ذبحوا الأرمن، لكنهم ناس قرويون بسطاء!» لكن الأخطاء القديمة كانت تثقل روحه وكرر بصوت رنان «نزلت النار من السماء ودمرتهم: واهتزت الأرض وحدثت الفيضانات! إن دواليب انتقام الرب تدور ببطء، ويدفع الأبناء ثمن خطايا والديهم ـ». كنا كمن يصغي إلى رسول ثانوي، وتوقفت عن المجادلة.

وُضعنا في عهدة راهب شاب طويل ذي عينين سوداوين

متيقظتين، اسمه الراهب داوود. كانت الباحات التحتية ـ ذات الامتداد الواسع ـ تستخدم للأغنام والماعز وحيوانات التحميل، وكانت رائحة الماعز والبغال تفوح في أنحاء المكان. تابعنا باستمرار صعوداً ونزولاً على الدرجات ومصاطب السطوح: كان المكان يقع في كل المستويات وذا تأثير عشوائي غير متعمد لأنه واءم نفسه مع مجتمعات ذات حجم وفترة متغيرتين، وكيّف نفسه مع تقلبات الرخاء الاقتصادي.

دخلنا أولاً إلى الكنيسة السفلى وأخذونا مباشرةً إلى الهيكل من الجهة الشمالية للمعبد حيث دفن مار متي. عاش هذا القديس في الأزمنة الساسانية وكانت حياته وعجائبه موصوفة في كتيب أعطاني إياه الراهب داوود. وقد تناقل الناس العجائب على نحو مستمر حتى يومنا هذا، بحسب الرهبان، وكان الضريح يجلب الخير والشفاء. كانت الكتابة من نوع إسترانجيلو (كتابة سريانية قديمة = Strangelo) (اسطرنجيلي) على بلاطة من رخام، وضعت مكان بلاطة أقدم، دُمرت أثناء نهب المكان. لاحظت أن الصليب على النقش هو من الصلبان التي تتكرر كثيراً في المباني المقدسة، وكل من الأذرع الثلاث تكون نفسها صليباً في نهايته كل منها زهرة الزنبق (شعار ملوك فرنسا). اليعاقبة لا يرسمون شخصاً على الصليب وليس لديهم صور أو رسوم في كنائسهم لأنهم يقولون إن تلك عبادة أصنام. الصليب بالنسبة لهم، ليس صورة تذكر بموت المسيح، بل هي رمز للحياة الأبدية. هناك أضرحة أخرى في الكنيسة الصغيرة نفسها، واحد منها يخص يوحنا بار أبري من مالطا (Yuhana Bar Abri)، الذي ولد في عام 1226 ومات في عام 1268. وفي الزاوية الشمالية الشرقية من الكنيسة دُفِن كل المطارنة.

عندما يموت أسقف يُفتح وجه الجدار الحجري ويؤخذ المطران المتوفى إلى الغرفة الحجرية في الأسفل حيث يوضع جالساً بين سابقيه بالحلة الكهنوتية الكاملة على كرسي أو عرش. من المؤكد أن تلك تكون جلسة مخيفة لهياكل عظمية جالسة في استعراض عفن. يوضع الرهبان العاديون في غرفة حجرية أخرى أكبر على الجانب الشمالي من الكنيسة. قال الراهب داوود إن الأرض عليها طبقة عميقة من الغبار الصدئ الأحمر والعظام المتفتتة، كل ما تبقى من الأخوة المتوفين. هناك غرف حجرية أخرى، تؤدي إحداها إلى نفق طويل يتصل مع دير آخر، دير براهوم (Brahom) على مسافة ساعة ونصف. أجزاء من هذا النفق ضيقة جداً بحيث إنه يجب على المرء أن يتسلل متلوياً فيها كالأفعى، لكن هذا الممر لم يعد مستخدماً، فقد سدّه هبوط التراب فيه.

في مذبح الكنيسة هناك مثال فاخر لفن صناع الفضة يظهر في غطاء الأناجيل على منضدة القراءة، يصور صلب المسيح والإنجيليين الأربعة. لم ندخل إلى داخل الحرم نفسه، لأنه لا يجوز أن تطأ هذا المكان قدم أحد إلا المطران أو الراهب. وإذا تجرأ كاهن متزوج على الدخول، قال الراهب داوود بوقار، فإنه وزوجته يموتان. الكنيسة العليا، المنحوتة جزئياً في الصخر الطبيعي والتي تدعى كنيسة السيدة يقال إنها تعود لزمن أقدم. إنها مكرسة لمريم زوجة مار شيموني (Shimuni)، التي استشهدت مع زوجها وأولادها السبعة على يد الملك أنتيكوس (King Antichus). وصف الراهب داوود العذاب الذي تحملته عائلة القديسين هذه. وتحدث عن العجائب التي يفعلونها كل يوم. وهنا تحدث الشرطي الكردي مقاطعاً، لأنه بالرغم من كونه مسلماً، فقد شهد الأعجوبة

السنوية التي تحدث في عيد مار شيموني في الكنيسة المكرسة له في قرية كاراكوش (Karakosh). في وقت العيد، كما قال، دخل الكنيسةَ المكتظةَ بالناس التواقين لرؤية الأعجوبة، لأنه في وقت محدد تظهر على أحد الجدران ظلال الملك المستشهد وزوجته ـ الملكة مريم ـ وأطفالهما السبعة على ظهور أحصنة. والنسوة اللواتي يرغبن في إنجاب الأولاد أو لديهن أي رغبات أخرى، يرمين مناديلهن على الظلال المقدسة، وإذا قِبل نذرهن، فإن المناديل تلتصق بالحائط. «رأيت هذا بأم عيني»، أكد الشرطي.

انتقلت المحادثة من هذا إلى شفاعة القديسين. «يا خاتون، أنت بروتستاتنتية، والبروتستانت لا يعتقدون بشفاعة القديسين»، قال داوود، مخبراً الآخرين بوضعي المحزن. «لكننا نقولها كذلك. قولي إن عندي قضية في المحاكم وأرغب في حكم إيجابي. ماذا أفعل؟. أنا أعلم أن سعادتك زوجة مستشار وزارة العدل؛ وأكتب إليك وأقول تحدثي إلى القاضي، تحدثي إلى زوجك، تحدثي إلى المستشار، بحيث تتم مساعدتي في الأمر».

فكرت في سيت غولي واعتقادها أن بمقدوري أن أجعلهم يطلقون سراح ابنها من السجن فوراً، وأدركت من جديد كم هو من غير المأمول أن نتوقع تفهم وجهة النظر الغربية في هذه الأمور، التي تبدو صعبة المراس، من هذه المبررات البسيطة. لا يهمهم أن يُساء إلى هذه الطرق، وأن تصبح وسيلة للظلم الكبير. هم متمرسون على هذه العوائق. يجب على القريب مساعدة قريبه، والصديق مساعدة صديقه، والراعي تابعه ـ هذا كل شيء، والنواحي الأكثر دقة لا تقلقهم مثقال ذرة.

سأل داوود قائلاً: «هل لديك الجرأة على القيام بالقليل من

التسلق؟» بالنظر إلى شعري الأشيب. لكن هذا الصعود لايكاد يستحق اسمه. خطوات أولى ثم جرّ القدمين قليلاً على ممرّ ضيق تنمو عليه الأعشاب وبعض الأزهار مثل الحديقة الصخرية، بعدها توقفنا في النقطة الأكثر علواً في الدير. كانت هناك كنيسة أخرى في الكهف الكبير في مكان أعلى على جانب الجبل، لكن ذلك كان يعني مزيداً من الصعود ومزيداً من الوقت؛ فتخليت عن فكرة زيارتها.

شاهدنا مزرعة الألبان والمطبخ المحفورين في الصخر جزئياً، حيث كانت الطباخات وعاملات المزرعة مشغولات، ثم أخذونا لرؤية الكهف الذي كان الماء البارد كالثلج يقطر باستمرار من السقف، ويتلألأ على الجوانب الناعمة. أخذنا داوود أيضاً لرؤية المكتبة، والتي كانت قد أُفرغت للأسف من مخزونها الرائع من المخطوطات والكتب، فقد سُرق معظمها أو أُحرق. لم يستطع أن يرينا إلا قليلاً من المخطوطات على ورق الرق في الأسلوب السرياني الشرقي المزخرف.

وبالرغم من أن الرهبان كانوا لا يزالون صائمين - وبالنسبة لليعقابة يعني ذلك الامتناع الكامل عن كل المنتجات الحيوانية لخمسين يوماً - فقد أعدّوا لنا وجبة خفيفة من اللبن الرائب والبيض المقلي والخبز غير المخمر والقشدة. وقبل مغادرتنا أرانا داوود حجرته الخاصة المزينة بعدد من الصور الدينية ومزودة ببعض الكتب الدينية، ورجاني ألا أنسى أن أرسل له صورته.

«سجلي اسمي، لئلا تنسي».

«لن أنسى. الراهب داوود بن سليمان!».

صفق بيديه مسروراً «هذا صحيح، لأنني أنا داوود بن سليمان. كان اسم أبي سليمان».

غادرنا وانطلقنا نزولاً. وعند بدء انطلاقنا مباشرةً، قابلنا أخا مختار مرجي وأشار علينا أن ننحرف جانباً لنزور كهفاً كبيراً على الطريق التي تؤدي إلى قرية مغاره. فعلنا ذلك، ودخلنا مغارة كبيرة تقطر فيها المياه وفيها غرفة صخرية صناعية كان فيها مرشّة اغتسال ذات قطرات غزيرة. كانت كريهة الرائحة، وكانت الهضبة العشبية خارجها قد شوهت منظرها أوراق خس ملقاة، وجرائد وقشور برتقال، وهذا دليل مؤسف أن مئة وخمسين فتاة من مدرسة حكومية في الموصل قد قمن برحلة إلى الدير في اليوم السابق. ليس من عادة القرويين أبداً ترك مثل هذه الفوضى: إضافة إلى ذلك، نادراً ما كان يتوفر لديهم الورق ليتركوه خلفهم لحسن الحظ.

كانت الطريق النازلةً سريعة وسهلة، لكننا توقفنا قرب شجرة السنديان المقدسة لنمزق عينة من قماش كانت لحسن الحظ موجودة في حقيبتي، وبذلك استطعنا جميعاً: جدان والشرطي والكردي وأنا، أن نربط قطع قماش كنذور إلى أغصان الشجرة، وكان ميخائيل قد ذهب قبلنا ليجلب السيارة إلى مكان قريب منا. لذلك كان عزيز ينتظرنا عند السفح، وقاد بنا بطريقة جيدة إلى بيت المختار.

كان مضيفنا هذا رجلاً جميل الطلعة قوي البنية في حوالي الستين من العمر. قابلنا ابنه عند المدخل وأخذنا إليه، في غرفة الاستقبال حيث كان جالساً يدخن غليونه مع أصدقاء من القرية. كانوا فلاحين أقوياء البنية يرتدون ثياباً كردية وبناطيل مزخرفة فضفاضة، وعمائم تشبه أعشاش الطيور وأحزمة ضخمة متعددة

الألوان، كانت خناجر معلقة فيها. كانوا يظهرون وكأن الطبيب لا يحصل إلا على قدر قليل من عيشه منهم.

كان المختار قد أعدَّ لنا بيد كريمة وجبة فاخرة من الخبز الطري ولبن الغنم الرائب، والبصل الأخضر وتلال من الأرز وأطباق من القشدة والشنينة[1] وكؤوس من الشاي. وكل هذا كان كرماً كبيراً لأن كل من في القرية كانوا صائمين، ولا بد أن لعابهم قد سال لهذه الوجبة.

كانت الغرفة مسقوفة بأغصان من الحور، وأغصان صغيرة وأوراق شجر وغيره؛ نظرنا من النوافذ التي ليس لها زجاج إلى الوادي وشممنا رائحة الأعشاب الحادة. فرشوا منديلاً على حضني، وأحضروا لي حوض ماء وصابون بحيث أستطيع أن أشطف أصابعي قبل الأكل، وطلبوا منا أن نبدأ. جلس المختار على مقعده، مضيافاً، بينما كان ابنه ـ وهو الشاب الوسيم ـ يقدم لنا الطعام بنشاط: ـ على الحائط كان رأس غزال معلقاً: «قتله ابني» قال الأب «إنه «سوغمان» ماهر ويجلب لنا كثيراً من الطرائد من التلال دائماً». أكد لي أنه كان يجبر جميع الحجاج الذين يزورون الدير على المجيء وتناول الطعام معه. قال: «ضيوف الدير ضيوفي»، كان يقف قرب باب بيته ـ رمز ضيافته الجبلية ـ وهو تنّور كبير ـ (فرن خبز من تراب) ـ وعلى جانبه كان هناك صليب، تعويذة لدفع الشر، وفي الوقت نفسه علامة على عقيدة صاحبه.

---

(1) اللبن الرائب المخفوق مع الماء.

## الفصل الثامن

# «سيري غامب» من جديد

«لقد نطقت الزوجة العجوز بنبوءاتها».

ثيوكرتيوس/الأنشودة الرعوية XV

أصبحت الداية الآن - الحاجية العجوز - اختباراً لتهذيبنا، لأنها وصلت في كل الأزمنة والمواسم، وبالرغم من أننا كنا نشعر بأننا مكرهون على تخمير الشاي لها وأن نحضّر الحلويات لأحفادها، لم أشعر أنني مجبرة على أن أعيرها كل اهتمامي، لكنني كنت أكتب الرسائل حينما أشاء، أو أطبع الملاحظات على الآلة الكاتبة الصغيرة. نَظَرت إلى هذا باهتمام. لم يكن الحديث هو الذي كانت تحتاجه بل التأمل بنشاطاتي المختلفة.

«جاءت سيدة من الموصل إلى هنا، إلى بعشيقا مرة، وكنت أرافقها كثيراً، تماماً كما أنت وأنا. والله جلبت فراشي ونمت في غرفتها». نظرتُ إليها بخوف، كان وجودها دائماً كريه الرائحة إلى حد ما، وكانت محادثتها تقتصر في موضوعها على التوليد. كنت أرتعد عندما أفكر بهاتين اليدين المتجعدتين الوسختين أثناء عملها.

في صباح يوم الثالث العشر من نيسان وصلت قبل الأوان، مصممة تصميماً كبيراً على أن تكون «أختي الأخرى» طيلة النهار. كنت منشغلة باستخراج الأشياء من حقيبتي، وجلسَتْ في غرفة نومي تراقب عن كثب بعينيها العجوزتين، ولو تجرَأتْ، لكانت فتشت كل شيء قطعة قطعة. عندما وصل رشيد كي يأخذني إلى تل بيلا، لأنه عرض علي ذلك، حملقت بعينيها عندما قلت له إن لدي رزمة لزوجته. انطلقنا نحن الثلاثة معاً، وعلى الطريق استولت على الرزمة وفتحتها لترى ما كانت تحتوي.

سُرّت زوجة رشيد الشابة بقطعة القماش الحريرية التي جلبتُها هدية لها بمناسبة العيد وصارت تملّس القماش بأصابع تدل على التقدير. ثم انطلقنا نحو الرابية: رشيد وسيري وأنا وكانت هذه العجوز مصممة أكثر من قبل على ألا تدعني أبتعد عن ناظريها. ذهبنا عن طريق الشيخ محمد، وقابلنا الوصي هناك، وهو كوتشيك، عجوز لطيف ذو لحية بيضاء يرتدي ثياباً بيضاء طاهرة. سأل إذا كانت تهمني زيارة الضريح، لكنني شكرته وقلت إننا سنعود في يوم آخر. تابعنا طريقنا في الحقول نقطف الأزهار كالعادة عن جانب الطريق. كانت أزهار كزبرة الثعلب[1] ـ الصغيرة المبتسمة الزرقاء ـ المنتشرة بكثرة بحيث ينسى المرء وجودها هناك، تنمو بكميات كبيرة بجانب الجويسئة العطرية ذات اللون الأزرق الفاتح. وكانت أعمدة مرتفعة من أزهار الخطمي ترتفع فوق القمح. أخبرني رشيد أنهم في سنجار كانوا يعتبرون ساقها مفيداً لنمو الشعر. تجفف النساء، سوق هذه الأزهار وتطحنها

---

(1) Anagallis coerulea.

وتمزج المسحوق بالماء وتضع المعجونة على فروات رؤوسهن عند الحمام، وتكون النتيجة أن الشعر يصبح طويلاً وكثيفاً.

وفي الحديث عن الأفاعي، قال رشيد: «هناك رجل عربي، يعيش على بعد نصف ساعة من هنا، يستطيع أن يشفي نهشة الأفعى، وقد فعل ذلك مرات عدة، دون أجر. لديه خرزة (تعويذة) بشكل رأس أفعى - نعم - تستطيع أن نرى شكل العينين وشيئاً ما يشبه فم الأفعى، لكنها على وجه العموم تشبه الكرات التي توضع في زجاجات الصودا. وهي شفافة ووقعت من السماء. نعم يقول إنها وقعت من السماء ووالله تشفي من نهشة الأفعى. عندما تنهش حية رجلاً ما، فإنه يأتي ويخدش الجرح قليلاً بسكينه ويضع الخرزة عليها، فتلتصق هناك من تلقاء نفسها. وفوراً يخرج السم والمادة الصفراء إلى المكان ويقطر من هناك نحو الأسفل وعندما يصبح اللحم نظيفاً تسقط الخرزة. وعندما كان الأميركيون ينقِّبون عند التل، كانت امرأة وزوجها نائمين في غرفة وهناك سقطت من السقف المصنوع من خشب الحور أفعى كبيرة بهذه السماكة». وصنع دائرة من أصابعه، «ونهشت المرأة. ذهبنا إلى رئيس الأميركيين وطلبنا سيارتهم وقال: نعم سندعكم تأخذونها، خذوها إلى المستشفى بسرعة؛ لأن ذراعها وساقها وجسمها كلها قد تورمت. قلنا: «لا سنأخذها إلى الرجل الذي يشفي من نهشة الأفعى، ومعه الخرزة: أخذناها ووضع الخرزة عليها، وخرج السم وشفيت» كان هناك رجل ادعى أنه شيخ، ولم يكن كذلك، لكنه جعل من نفسه شيخاً. جاء وجلس قرب الجسر قرب الشيخ محمد، ونادى، وجاءت أفعى نحوه. جاءت إليه ونهشته. لكنه تباهى قائلاً: « أنا شيخ، فهي لا تستطيع إيذائي. لقد ورثت هذه

الموهبة من جدي. لا تستطيع الأفاعي تسميمي». لكنه بدأ يتورم، وفوراً سقط إلى الأرض بلا حراك. أخذناه إلى العربي الذي وضع الخرزة على مكان النهشة. وفوراً نهض الرجل وصرخ: ما هذا؟ ماذا فعلتم؟ حاولوا إقناعه بإبقاء الخرزة مكان النهشة، لكنه رفض ورماها عنه وبدأ يمشي مبتعداً. لم يذهب بعيداً حتى اصفرَّ ووقع. نعم. هذا العربي رجل صالح ولا يأخذ أجراً؛ لكن الناس يرسلون له خروفاً أو بعض الهبات مثل الخيرات (محصول من غلة). وهو يملك بيتاً وحديقة».

ولدى وصولنا إلى روابي تل بيلا، صعدنا وأراني حفرياتٍ لبيوت وخنادق استكشاف وشرح لي مخطط المساكن وأشار إلى حُفَر التصريف من البيوت إلى الشوارع الضيقة. رشيد هذا ذكي بصورة غير عادية، بحيث أستطيع أن أفهم لماذا رقّاه الأميركيون إلى رتبة كبير عمال وكانوا يتركون كل شيء في عهدته عندما كانوا يسافرون. جلسنا على بساط من الأزهار البرية كي نستريح، وتبعتنا العجوز الشمطاء صامتة معظم الطريق، وأشارت إلى البرج على التلة الذي لم نستطع الوصول إليه.

«تلك هي القلعة..» قالت: «مكان خرب مثل هذا. هناك كنز مدفون فيه. في إحدى الليالي ذهب رجلان من بعشيقا ومعهما معاول وسلّة لاستخراج الكنز. لكن ريشي شيفى خرجت من القلعة وقفزت ورمتهما خارج الحفرة التي كانوا يحفرونها وكادا يموتان من الخوف. ولم يجرؤا على العودة بعد ذلك».

عند الغداء، بعد أن عدنا إلى بيتنا الصغير، سمعت أصوات وصول بعض الناس، ولدى الخروج وجدت أ. في الباحة تحيط بها أمتعتها. سألتني ألم أستلم رسالتها التي كتبتها منذ ثلاثة أيام؟

لم أستلمها، لكنني كنت أتوقع تقريباً أنها قد تصل في العيد وكنت مسرورة لرؤيتها، لأن أ. من نوع نادر، في الواقع من بين جميع النسوة في العراق «لم أعرف واحدة أستطيع أن أطلب إليها الذهاب إلى بعشيقا بقدر أقل من الحرج. كنت أعلم أنه يمكن الاعتماد عليها، ألا تنبس بأي كلمة نابية، أو تبدي موانع متعبة، ولا يفزعها أسلوب حياتنا السهلة».

جعلني حديث سيري عن القلعة أصمِّم على الوصول إليها، كان اسمها المحلي قلعة أصفر (Qalat Asfar). اقترح جدان أن نأخذ هذه المرة دليلاً لئلا نضيع الطريق مرة ثانية، لذلك عندما فكت أ. أمتعتها ونصبت فراش خيمتها، دبرنا أمر الحصول على شاب أسمر اللون أشعث الشعر كدليل لنا. وبعد أن اتخذنا طريقنا صعوداً على التلال تسلقنا الجانب المنحدر من البرج الخرب. كان البناء الحجري غير المتقن مغروزاً في الصخر. بحيث يصعب في بعض الأوقات التميز بين عمل الطبيعة وعمل الإنسان. كل تلك الأشياء شكلت في وقت قديم جداً حصناً، وفي الهضبة في الأعلى كانت هناك بئر عميقة مبطنة بالحجارة. كانت الفتحات الأخرى على هذا السطح المنبسط، والتي كانت تبدو مثل المصطبة، منحنية مثل جدران الجرة وكانت تبدو كما لو أنها منافذ هوائية لغرفة قد ملأتها التربة والأنقاض مدة طويلة وسدتها. كانت إحدى الفتحات صغيرة ومربعة. وبينما كنا نتجول في أرجاء المكان كرر الولد الأشعث الشعر حكاية الكنز المدفون والأرواح التي كانت تحرسه. قال: «نخشى أن نأتي إلى هنا ليلاً». عدنا من طريق أكثر سهولة واتبعنا طريقاً فيها أخاديد في الصخر قادتنا للعودة من جانب مقام عزرائيل إلى قنوات الماء والخزان فوق بساتين الزيتون. وهنا غادَرَنا مرشدنا

الشاب، مع صبي آخر كان قد انضم إلينا في الطريق، دون استئذان وقفزا في الماء بعد أن خلعا ملابسهما. هذا المخلوق المشابه للإله بان (إله الرعاة والصيادين عند الإغريق على صورة رجل له ساقا وقرنا وأذنا تيس) لم يطلب أجر إرشاده. وفي المعرض بعد عدة أيام ابتسم لي بخجل، فذهبت إليه ووضعت بعض المال في يده وطلبت إليه أن يشتري بعض الحلوى.

« ماذا سأختار؟» قال وهو ينظر إلى الأكشاك.

«أي شيء تريد» أجبت وتركته.

وبعد ذلك بقليل جاء إليَّ، وقدم لي علبة من راحة الحلقوم (Rahat Lukum) وهي حلويات تركية. كان قد بحث عني بين الجموع. «لكنها لك، ليست لي». دهش ومضى بها دون كلام.

عندما عدنا كانت سيري الموجودة دوماً قد وصلت. كنت قد حذّرت أ. سابقاً واعتذرت عن ضيفتنا الدائمة. لكن بعد ظهر هذا اليوم لم تكن وحيدة: جلبت معها ابنتيها، إحداهما امرأة متزوجة والأخرى عروس. حضّرنا الشاي لهن ولأنفسنا.

بعد ظهر هذا اليوم كان لسيري عذر، فقد كانت إحدى بناتها تعمل في الوشم وكانت تعلم أنني مهتمة بهذا الفن. لكن لم يكن هذا كل شيء: انعطفت قليلاً، كانت قد رأت قطعة الحرير التي أهديتها إلى زوجة رشيد، وطبعاً كان عندي لفة قماش لها، ألم يكن العيد قريباً؟ كانت سيري في أوقات مختلفة قد تلقت مالاً، وكنت سابقاً قد أفردت مخزوني المحدود من الهدايا، واحتفظت ببعضها لزيارة الشيخ عدي. وبكل أسف، رفضتُ، لكن أ. لطفت الوضع فوراً. كانت قد جلبت معها بعض الحلى الصغيرة من

زجاج الخليل للحماية من العين الشريرة، وكان خيط كامل منها باللون الأزرق، والأسود والأبيض والأصفر، وكل خرزة تمثل عيناً. ثبت أن هذه الأشياء مهدئ فوري للمشاعر، ولم تفشل في إحداث الفرحة في أي وقت ومكان تُقدّم.

تحدثنا عن الوشم. لا تعترف النسوة أبداً أن للوشم أهدافاً سحرية، ويخبرنك أنهن يخضعن لعملية الزينة أو الجلوة(*) (التجميل). لكن في بعض الأحيان، يتم وشم بعض العلامات لتجنّب الألم، والصليب المزدان بزخارف زهرية والصليب ذو النقطة في كل ذراع، تصاميم شائعة، وهي لا شك علامات سحرية وتحفظ الصحة. شرحت لنا الابنة المتزوجة كيف كانت تعمل. تتألف المكونات من مرارة خروف، وهباب أسود (من مصباح زيت زيتون فقط)، وحليب طازج مأخوذ من ثدي أم لطفلة رضيعة، لكن إذا كان الرضيع صبياً ـ كما قالت ـ فإن الثقوب تتقيح. يجب أن يكون قوام هذا المزيج مثل قوام العجين. يُرسم النموذج على الجلد بهذه المعجونة ثم يتم إدخاله إلى الداخل من ثقوب بإبرة أو اثنتين مربوطتين معاً بخيط. من المؤكد أن هذه الوخزات تسحب الدم. في البداية يتورم السطح لكن لاحقاً يزول الورم ويظهر النموذج بلون أزرق غامق. نادراً ما تشم النساء اليزيديات الجسم بكامله كما تفعل النساء في جنوب العراق، بل يكتفين بتزيين ظهر اليد، والرسغ والساعد والصدر والكاحل والساق السفلى. والتصاميم المفضلة هي:

1 ـ المشط: بالمناسبة ليس هناك أي تردد في لفظ هذه الكلمة،

---

(*) يقصد بها تزيين العرائس. (المراجع).

بالرغم من أنني كنت أسمع دائماً أنها واحدة من الكلمات التي لا يلفظها اليزيديون لأنها تحتوي على الحرفين الساكنين ش وط، وتوحي بالاسم الممنوع: الشيطان. وغالباً ما يضمّ هذا الشكل إلى دائرة تدعى القمر (البدر) أو تنتهي بصليب بسيط أحياناً.

2 ـ الصليب.

3 ـ الغزال: وهذا رمز تقليدي للحيوان وهو تصميم محبب. وتلك التصاميم التي رأيتها فيها بقعة فوق ظهر الحيوان تسمى الدقاية.

4 ـ رِجل القطاية: قدم طير القطا. تشبه العلامة التي تتركها قدم الطير على الرمل.

5 ـ القمر: هلال أو بدر.

6 ـ الدمية: خطوط بدائية لشكل إنسان بذراعين ممدودتين وساقين متباعدتين.

7 ـ دولاب الكتان: أو كيوخ ـ كيوخ: وهو ملف الخيوط الخاص بالمغزل.

8 ـ رِس دقا: عبارة عن حرف 7 بالمقلوب.

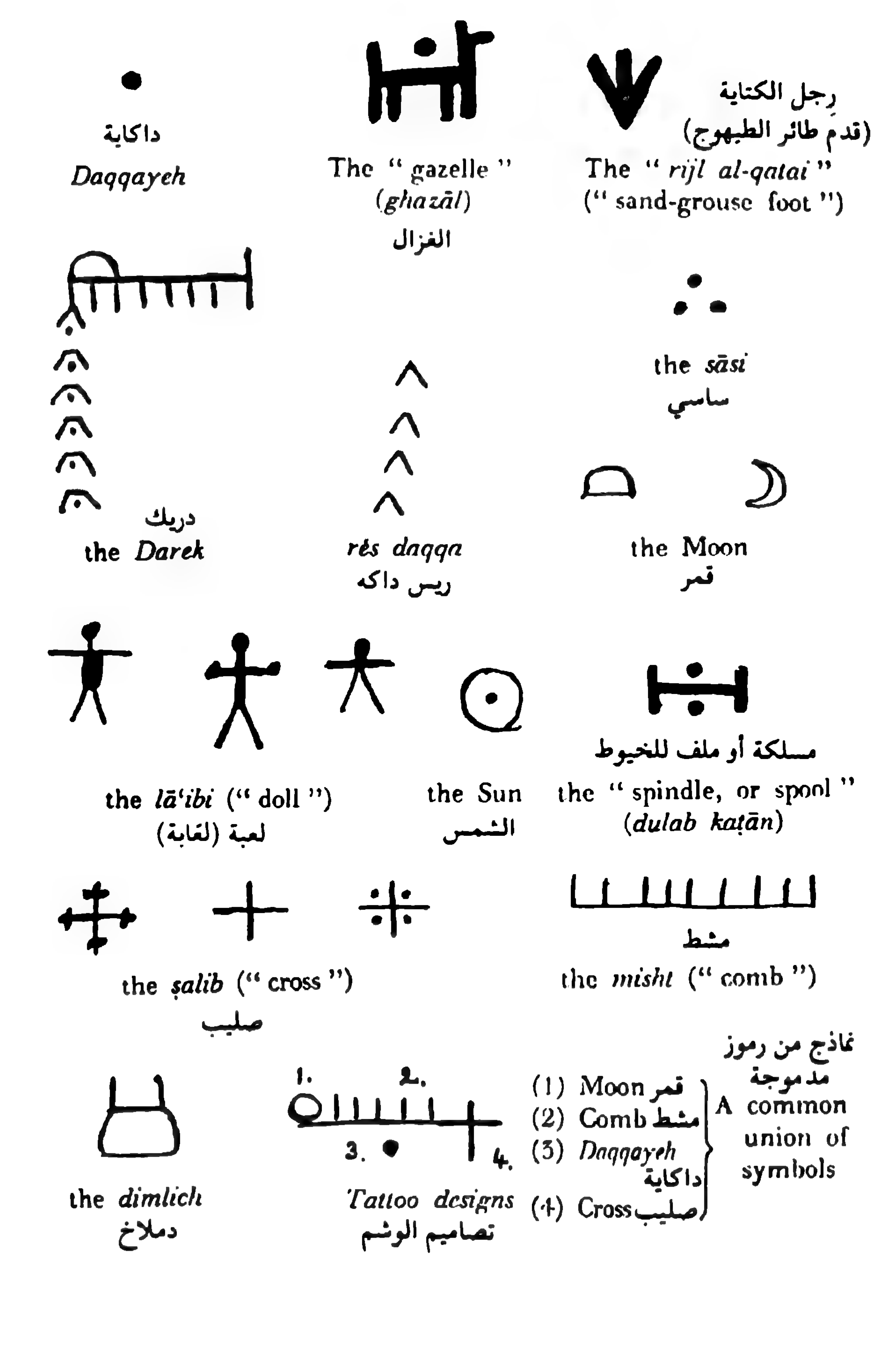
9 ـ الديمليخ: وهو شكل يشبه حقيبة تتدلى من خيطين.

تمّ توزيع الوجبات الخفيفة مرتين، ووصلنا إلى مرحلة رغبنا فيها من ضيوفنا أن يغادرونا. لكنهم بقوا. تركت أ. بطريقة غير لائقة، وذهبت إلى غرفتي، وعندما عدت كان الجميع لا يزالون هناك. تحدثت أ. إليَّ بالانكليزية وقالت لي: «إنهم متلهفون لرؤية الآلة الكاتبة وقالوا لي: «هل تظنين أن السيدة ستشغلها

لنا؟». أحضرت الآلة الكاتبة وحملقت الصبية بها برعب. طبعت اسم كل واحدة على قطعة ورق وأعطيته لهن؛ وطويتها بعناية. فالمرء لا يستطيع أن يرى اسمه مطبوعاً بالآلة الكاتبة كل يوم في بعشيقا. لكنهن لازلن يحملقن.

«هل تخيط أيضاً؟» سألن ببراءة.

وعندما غادرن، أخذت أ. إلى رأس العين لأنني كنت أريد أن أريها المغارة، والنقوش الضئيلة والنبع. خاب أملي قليلاً عندما وصلنا البركة ووجدنا موكباً من تلامذة المدارس يمشون على الممر، وكلهم يرتدون بذلات الخاكي الخاصة بمدارس الحكومة، ينشدون أغاني وطنية، وكان كل بيت شعر منها ينتهي بكلمة «وطني». كل ذلك جدير بالإطراء، لا شك، لكنه اقحامٌ لشيء حديث في مزار وثني.



داكاية
Daqqayeh
The "gazelle"
(ghazāl)
الغزال
رِجل الكتاية
(قدم طائر الطيهوج)
The "rijl al-qatai"
("sand-grouse foot")
دريك
the Darek
rès daqqa
ريس داكه
the sāsi
ساسي
the Moon
قمر
the lā'ibi ("doll")
لعبة (لعّابة)
the Sun
الشمس
مسلكة أو ملف للخيوط
the "spindle, or spool"
(dulab katān)
the ṣalib ("cross")
صليب
مشط
the misht ("comb")
the dimlich
دملاخ
1.
2.
3.
4.
Tattoo designs
تصاميم الوشم
(1) Moon قمر
(2) Comb مشط
(3) Daqqayeh داكاية
(4) Cross صليب
نماذج من رموز مدموجة
A common union of symbols

عندما وصلنا الصخرة، كان التلاميذ جاثمين في كل أنحائها، كما كان بعضهم قد نزلوا إلى البركة، لكنهم كانوا مهذبين في الانتقال عن الدرجات الصخرية كي يسمحوا لنا بالمرور، وكانت وجوههم ودودة جداً، ما جعلني أندم كيف أنني كنت أود لو أنهم لم يكونوا هناك.

وأخيراً، عندما وصلنا المغارة المقدسة، كانت خالية. وكان الوقت في ظلمة الغسق فلا ترى اللوحات بوضوح، لكن رائحة البخور كانت لا تزال عالقة في المكان، وعندما عبرنا إلى الجانب الآخر من المغارة، فوق القناة العميقة التي حفرها النبع، رأينا مصباح زيت زيتون، من الأشكال القديمة يرسل خيطاً من لهيب أصفر إلى الأعلى لينير الظلمة ويزيد من شذا القداسة.

لحق بنا مدير إحدى المدارس وتطوع بإعطائنا المعلومات عن قريته، التي كان يأمل منا زيارتها، وعرض أن يرينا أشياء تهمنا هناك. شكرناه وتمنينا له وللأولاد الموجودين في الخارج ليلة سعيدة، وخرجنا ثم نزلنا في الوادي في حمرة الشفق. كان الأولاد يقفزون على الطريق. مررنا في القرية بنسوة جالسات عند عتبات باحات بيوتهن، يسترحن بعد عمل النهار، بينما كان أولادهن يلعبون ويغنون.

«هذا مكان جميل» قالت أ. لقد وقعت في حبه، وكذلك أنا.

# قدّاس يعقوبي[1]

«قدِّمْ دائماً طقوس المذبح إلى الآلهة....».

ثيوكريتوس/الأنشودة الرعوية XVI.

تهزّ الطبيعة بين الحين والآخر عنان الصبر بعنف لتذكّر الجسم أن العادة المفعمة بالنشاط يجب ألا تتجاوز القوة المتضائلة، وقضيت ليلة أرقة بسبب فرط النشاط في ذلك اليوم. بقيتُ مستلقية دون نوم وسمعت الريح تضرب الباب الذي يؤدي إلى السطح، وعندما عبرت الباحة كي أثبته، أدركت أن سماء الليل كانت كثيفة الغيوم. ثم هطل مطر غزير كانت الحقول متعطشة إليه.

بعد تناول الفطور قررت مع أ. أن نحضر خدمة القداس في الكنيسة اليعقوبية، فارتدينا معطفينا المطريين وأخذنا مظلتينا في يدينا. وسرنا على الطريق الموحلة، مروراً من عند الكنيسة اللاتينية حيث تخيلنا أن المارة يحدقون بنا مؤنبين، ثم عبر المقبرة

(1) في الكنيسة المسيحية التي تعتقد أن للمسيح طبيعة واحدة.

الصغيرة، حيث كان الموتى يرقدون تحت بلاطات طويلة مسطحة، في المبنى الأرثوذكسي الأكثر تواضعاً.

بينما كنا نسير عبر المدخل المكشوف، الذي كان من رخام موصلي نحته صناع محليون، هبت علينا نسمة من بخور، لأن القداس كان قائماً. كانت الكنيسة ممتلئة بالمصلين. كان الرجال يجلسون متصالبي الأرجل في الأمام على حصر براقة الألوان وعلى بسط من العشب تغطي الأرضية. كانت عمائمهم على رؤوسهم وكانوا يرتدون عباءاتهم من جلود الغنم بالمقلوب. كانوا قد تركوا أحذيتهم على البلاطات الحجرية المكشوفة. كانت النسوة في ثياب الفلاحات يجتمعن في الخلف. نهضت إحداهن وتوجهت نحونا وقادتنا إلى الجانب الشمالي من الكنيسة، فأخذنا طريقنا عبر أزواج من أحذية موحلة، ونساء محشورات، نحو مقعد - وهو الوحيد - وهناك بوضوح مقعد شرف. نهضت امرأتان ترتديان السواد، وحجابي الرأس الكبيرين كما في المدن، بأدب وقدمتا لنا مكانيهما على المقعد.

الملابس الكردية البراقة، وعتمة الحرم المقدس، الذي اختبأ جزئياً في ستارة من رخام، والمضاء إضاءة خافتة بالشموع، والأعمدة الرخامية الرمادية، وطيور السنونو تطير هنا وهناك، وتتابع طيرانها الوثني بينما كانت تذهب إلى الأمام والخلف، إلى أعشاش بَنَتْها في مكان ما في سقف الكنيسة، ووجوه الرعية الورعة التي كانت تتعلق بكلمة من الموعظة البليغة، كل هذه الأشياء شكّلت صورة جعلتني أشعر أنني متطفلة من قرن آخر.

لم يكن الواعظ - الذي كان واقفاً عند باب الحرم المقدس - سوى صديقنا مطران دير متي. كان يحمل صليباً فضياً أمامه وهو

يلقي الموعظة، كما لو كان يطرد بقوته السحرية وكذلك بكلماته، كل الشرور من قلوب وأرواح أفراد رعيته البسطاء. كان يمسك الصليب بمنديل أرجواني مزخرف بالفضة، وكان رأسه الأشيب مغطى بالقلنسوة المزخرفة بصلبان فضية من النوع الذي يرتديه جميع الرهبان. ولاحقاً عندما لبس من جديد عمامته السوداء المنتفخة تدلت القلنسوة إلى الخلف. ظهر تحت ثوبه الأسود صليبه الأسقفي، ورداءه التحتي باللونين الوردي والبنفسجي. وكان كاهن الرعية ـ العجوز ذو اللحية ـ يرتدي ثوباً أسود بالكامل وقلنسوة رهبانية، مثل قلنسوة رئيسه.

بالرغم من أنني لم أستطع تتبع كل الموعظة، فقد كانت واضحة غير متكلفة، وبدا المطران ـ أكثر من السابق ـ بحضوره ومعالمه الفخمة ولحيته الفضية، مشابهاً لرسول ثانوي. وكلما كان الجمهور يثور، كانت تنطلق تمتمات موافقة واستحسان. وعند نهاية الموعظة جاء الكاهن إلى درج الهيكل وأعلن ـ مخاطباً الرعية ـ أن المطران سوف يقوم بزيارة كل بيت وأن على رب البيت أن يقدم له هبة من زيت الزيتون أو الصابون أو الحبوب. لم يأتِ على ذكر المال، ولم يكن هناك أي توسل أو إلحاح في الطلب، لقد كان أمراً. وبعد ذلك كانت أناشيد وصلوات. والناس لا يركعون كي يصلوا بل يديرون راحات أكفهم نحو الأعلى، يمدون أذرعهم قليلاً، وعندما ينتهون يضربون وجوههم إلى الأسفل كالمسلمين عند نهاية الفاتحة. كانت جميع الأناشيد من السلّم الكبير، وفي بعض الأحيان كانت بصوت ذكوري مرتفع، وجذلة.

عندما تقدم المطران بالكأس والقربان المقدس وكل منهما

مغطى، ووضع الأخير فوق الأول، أزال الرجال لباس رؤوسهم لكن لم يتقدم أي شخص من الرعية ليتناول القربان المقدس. وأخيراً، وقد انتهى القداس، خرج الكثيرون يقبّلون الغطاء الفضي للعهد الجديد على منصة القراءة قبل المغادرة، ووضعوا التقدمات على حافتها.

ظل الباقون من أجل الدخرانة (صلاة من أجل الموتى). قرأ كاهن الكنيسة هذه الصلاة. لم يبق سوى القليل من الرجال، وهم على ما يبدو أقارب المتوفين، وأثناء القراءة كان أحدهم يمسح عينيه مراراً، بينما كانت النساء الكثيرات اللواتي توقفن في مؤخرة الكنيسة يبكين وينتحبن بصوت مسموع، ويضربن ركبهن وهن يربضن على الأرض. جلس الأطفال على الأرض عند درجة الهيكل الأولى مثل صف من طيور السنونو، وعندما تصرف أحدهم تصرفاً سيئاً، جذبه أبوه إلى الخلف وأمسك به بشدة، بينما كشرَّ له زميله في سوء السلوك شامتاً.

وعند انتهاء الدخرانة خرج الجميع، بمن فيهم المطران والكاهن والشمامسة ومساعدو الكاهن. وحيّا جميعهم المطران وهو يمر. دخلت أ. وأنا بيت الكاهن لنقدم احترامنا له وتلقت أ. باعتبارها زوجة صاحب مقام رفيع في الكنيسة الإنجليكانية، تكريماً خاصاً. عيّنوا لنا مكانيين بجانب الرجل العظيم، الذي تأسف أنه لم يرافقني عندما زرت ديره، وأسهب في الحديث عن حسن الضيافة التقليدية في الدير التي كانت تمتد إلى الحجاج من جميع الأجناس والديانات على حد سواء. كان من بين سامعيه المعلم الشاب الذي التقينا به عند المغارة في الليلة السابقة، جالساً عن يمين المطران يبتسم ابتهاجاً للشرف الذي قدم له ولنا.

عندما وصلنا إلى بيتنا وجدنا حشداً كبيراً مجتمعاً في المدخل. كان في وسطه اثنان من الغجر ذوي البشرة الداكنة ومعهما زوج من الدببة الراقصة وزوج من السعادين. كانت هذه المخلوقات المسكينة تقوم بألعابها وسط ضحك المتفرجين وصرخاتهم البهيجة، والذين رأيت بينهم القوال الأفطس الأنف، وقد دمعت عيناه من المرح. لاحقاً رأيت خيام الغجر السوداء قرب بحزاني، لأنهم جاءوا إلى العيد والمعرض، في أزياء غجرية حقيقية. هنا في الشرق الأوسط، يكسب الغجر عيشهم من الاستعراضات المسرحية، والرقص والتجول للبيع والسرقة وقراءة البخت، لكنهم أكثر فقراً ووسخاً وذوو لون أكثر سواداً من غجر أوروبا ويحتقرهم أبناء القبائل والقرى على حد سواء. وهنا أيضاً لهم لغتهم الخاصة، ولكنني عندما أخذت قوائم بكلمات من كولي (kowli) ـ (فالغجر يعرفون أيضاً بالكولية (Kowliyah)) ، وجدت بعضاً منها تتطابق مع اللغة الغجرية التي يتكلمونها في انكلترا. تعتقد القبائل المتنقلة أن من العيب قتلهم أو الزواج منهم، بالرغم من أن بعض الغجريات جميلات. وليس لهؤلاء الكوليين جنسية، ويتكلمون لغات البلدان التي يسافرون فيها، ولهم خبرة في التهريب. وفي الصحراء لا يَغزُون ولا يُغزَون، لكنهم غالباً ما يتلقون الطعام لقاء رقصات النساء وموسيقى أو تهريج الرجال.

جلست سيري ـ التي صارت بسرعة عبئاً علينا ـ مدة طويلة في ذلك الأحد، وعندما علمت أن أ. كانت دون أطفال، اقتربت كثيراً مني ولمست جسمي بعدم تكلف بيديها الوسختين وهمست في أذني، وجعلتني أفهم أنها بمعالجتها استطاعت أن تحول كثيراً من الزوجات إلى أمهات مبتهجات. وأخيراً بطريقة عجيبة جداً تضرعت إلى جميع

القديسين كي يمنحوا أ. أطفالاً؛ مشيرة إلى السماء وهي تفعل ذلك؛ يا شيخ عدي يا ست عذرا (ولم أعرف من هذه أبداً)(*)، يا مار متي، ياخاتونا فخرا، وعلى نحو خاص (لأننا مسيحيون) يا ست مريم أم السبعة أولاد» كانت مريم هذه الملكة المستشهدة التي يُرى طيفها في كاراكوش.

قدمنا لها الشاي وأعطيناها البسكويت، فوضعته في جيبها لأحفادها، وأخيراً عندما غادرت عقدنا اجتماعاً. لقد أصبحت لا تطاق بسرعة. كنا نكره التفكير فيما تستطيع هاتان اليدان اللزجتان أن تفعلا للزوجات العقيمات الراغبات في الأولاد، لأن العدوى والجراثيم بالنسبة لسيري خالية من المعنى مثل اللغة الإنكليزية التي تحدثنا بها ـ لإغاظتها ـ عندما طال حضورها إلى مدى غير محدود. كانت تافهة، تتحدث في التوليد دوماً، كالغولة وتشبه الساحرة بحيث إننا ـ نحن الاثنتين ـ وافقنا أن وجودها القليل في منزل قريب قد استمر طويلاً وطويلاً جداً. قررنا أنه من الواجب ثنيها قليلاً، بأكبر قدر من اللطف، لأننا لم نكن نريد أن نجرح مشاعرها، واستدعينا جدان وشرحنا له المشكلة، ووعد أن يبعدها بأكبر قدر يستطيعه من اللباقة.

في المساء ذهبت أ. مع جدان إلى الشيخ ماند، ولدى العودة أخبراني أنهما التقيا بمجموعة من النساء والبنات عائدات ومعهن زقاق ممتلئة بالحليب تتدلى من أكتافهن وأطفال سود على أذرعهن. بميازرهن (Meyzars) ـ كما قالت ـ الحمراء البرتقالية

---

(*) هي السيدة مريم العذراء لاختلاط المفاهيم الدينية اليزيدية في الأجواء المسيحية فهذه القرى ذات ماضٍ وحاضر مسيحي. (المراجع).

ذات المربعات الملونة، كن متألقات مثل حوض من الزينيات (نبات من الفصيلة المركبة). تحدثن إليها وقلن لها إن أزواجهن وإخوتهن كانوا يبقون في فصل الربيع مع القطعان على التلال ليلاً نهاراً وأنهن كن يذهبن إلى هناك عدة مرات في اليوم ليأخذن لرجالهن طعاماً ولجلب الحليب. كن يحملن معهن الأولاد والحملان وكان يُسمح للحملان أن ترضع قليلاً لكي يبدأ جريان الحليب قبل أن تعصر الحلابات حلمات الضروع. ثم تؤخذ إلى القرية حيث تقفز بجانب البيت والدار لتشكل جزءاً من العائلة كالأطفال أنفسهم. في اليوم التالي كانت الطرقات لا تزال رطبة، فقد حدث أثناء الليل رعد ومطر. وبعد أن سمعت عن زيارة الشيخة العجوز المسكينة غير المجدية، فكرت وكتبت لها رسالة أفضل، وذهبت كي أجلب الرسالة الأولى منها، للاستعاضة عن الأخرى.

وجدنا سيت غولي مستلقية في الخارج، أو في الغرفة التي ليس لها جدار ثالث، مثل المسرح، وكانت فوق غرفة الدرج الحجرية في الباحة، لأنها كانت تريد الهواء الطلق والهدوء، وغرفة المعيشة تحتنا كانت ممتلئة بزوجات أولادها وأطفالهن. كانت مريضة جداً. فالسفر إلى الموصل، والحمى التي لا تزال تلازمها، جعلاها تتجمد من البرد. إضافة إلى أن فشل مهمتها قد سلب منها كل مقاومة. نُشر لحاف فوق جسمها النحيف المفعم بالاضطراب، لكنها كانت ترتدي العمامة كالعادة وترتدي القليل من ثيابها البيضاء. حاولت أن تنهض، لكننا ألححنا عليها أن تبقى مستلقية تحت الغطاء. جسّت أ. نبضها وقالت إنه ينبض بسرعة وإن جلدها كان جافاً وحاراً. كانت تشكو من ألم بين عظمي الكتف، وأخبرتني أ. التي

كان لها بعض الخبرة في التمريض، بصوت منخفض أنها كانت تخشى عليها من ذات الرئة.

سرَّت سيت غولي لأنني كتبت رسالة ثانية وتحدثت عن ابنها الذي كان عقلها القلقَ لا يكف عن التفكير فيه. قالت أ. ـ وهي الإنسانة العملية والعاطفية معاً ـ إنها سوف تصنع لها سترة خاصة بذات الرئة، وأنا وعدت أن أحاول الحصول على بعض حبوب الكينين لمكافحة الملاريا في دمها. لم تكن أي منا مجهزة بالمعرفة الطبية ولم يكن هناك طبيب لذلك قمنا بما نستطيع فعله. كان هناك صيدلي حكومي ـ كما أخبرونا ـ في القرية لكن عندما ذهبنا إلى مستوصفه، وجدنا أن هذا الرجل الطيب قد ذهب في زيارة لقرية أخرى؛ لكن الجيران وعدوا أنهم سيجدون شاباً مسؤولاً عن المفتاح وأننا قد نجد العلاج الذي نحتاج.

ذهبنا بعد ذلك إلى السوق (وهو سوق البيع الصغير)، حيث كانت عدة محلات تعرض بضائع قطنية ومواد بقالة، وكانت هناك مخاريط من سكر القصب معلقة. وهنا اشترت أ. بعضاً من القماش الخام غير المصبوغ من صنع ياباني، كما كانت معظم الأقمشة الأخرى. كانت الحاجة الثانية الخيوط من أجل الخياطة والقطن للضماد. استطعنا شراء الأول، لكن بالنسبة للقطن، كالخضار كان كل شخص يزرع ويحضر ما يحتاج أو أنهم كانوا يشترونها بالكيس، ولم يكن لدى بائع التجزئة شيء. اقترح جدان أن المختار ـ من المؤكد ـ سيكون لديه بعض منه، فقصدنا بيت المختار. في الطريق مررنا بالمطران، ذاهباً في موكب رسمي مع حشد من تابعيه في جولته من بيت إلى بيت، التي تحدث عنها في

الكنيسة في اليوم السابق. كان يبدو مهيباً في عكازه الرعوي، ولباس رأسه المنتفخ.

كان المختار قد ذهب إلى الموصل ليشتري بضائع وهدايا للعيد، لكن نساءه وأولاده كانوا في البيت، وأصعدونا إلى غرفة الاستقبال بعد أن أبعدوا الكلب الأشعث الذي قفز علينا في الباحة ينبح ويهدد. صعدنا على الدرج الشديد الانحدار غير المحمي، وبعد قليل انضم إلينا طفل دارج صعد الدرج بجهد كبير، ولم يكن أحد يقلق على سلامته. وكانت مجموعة من الفتيان الصغار بآذان طويلة ناعمة يلعبون لعبة الحجلة على المصطبة.

في غرفة الضيوف مدّوا لنا فرشات على الأرض، وأرسلوا فتاة لجلب بعض القطن. في زاوية من الغرفة كان يقف عكاز المختار، وهو عصا ثقيلة معقوفة من خشب المحلب الزكي الرائحة، الذي يعتبر مقدساً كما قال جدان ويُمنع استعماله حطباً للنار. تستعمل بذور المحلب للتوابل، عندما تُدقّ من أجل الكعك والخبز وبعض الأطعمة الأخرى. طلبت أن أرى بعضاً منها، فرفعت سيدة البيت ربطة معلقة على الحائط وأخذت رزماً من مختلف التوابل، مثل القرفة (بالعربية درسين، بالكردية درشين)، وبعض الأشنان المورقة الكبيرة التي تدعى شهبة العجوز والتي قالت إن لها طعماً طيباً عندما تُطحن وتوضع في جميع أنواع الطعام. كان من بين التوابل بذور المحلب، التي ذكرتني بكبش القرنفل عندما تذوقتها.

جلبوا لنا القطن في سلة كبيرة مسطحة وبدأت مضيفتنا تدقه وتقذفه بالعصا ـ وهي جالسة ـ حتى قالت أ. إنه من أجل الغرض الذي تريده، يصلح في حالته هذه. أثناء نزولنا، لاحظت شعراً

بشرياً محشوراً بين حجارة الحائط. سألت إن كان هذا قد حدث لحماية صاحبه من السحر. أجابوا قائلين «كلا». ليس ذلك ضرورياً إلا في الليلة الأولى للعروس. لكن من عادتنا أن نعامل الشَّعر بهذه الطريقة، لئلا تطأه الأقدام إذا رمي على الأرض.

## الفصل العاشر

# الأسطورة والعقيدة

«دائماً حول ضريحه يتجمع الأطفال مع رفاقهم،
عند قدوم الربيع، ويتنافسون لنيل جائزة التقبيل».

ثيوكريتوس/الانشودة الرعوية XII

كانت عائشة زوجة ابن شيخة غولي قد حدثتني عدة مرات عن مقام في التلال يدعى يوسيفل كانري( Usivl Kaneri). كانت الزوجة الشابة للرجل الذي طعن أختها، وأماً لطفل رضيع عمره حوالي اثني عشر شهراً. كرّست نفسها لابنها الصغير بعاطفة كبيرة، ولم يكن وجهها المتورد المعافى ووجه الطفل المستدير ليفترقا أبداً. سطعت الشمس بعد نهار أحد ممطر، وطلبنا من عائشة الحضور وقد عرضت أن ترشدنا. ظهرت المرأة الشابة والطفل الرضيع على ذراعها، وثقله نصف مدعوم بميزرها.

قلنا: «إذا كنا سنمضي إلى الجبال، ألن تؤلمك ذراعك؟» قبّلت الطفل وأكدت لنا أنها تحمله دائماً ولم تكن تشعر أنه ثقيل؛ فانطلقنا: عائشة وجدان وأ. والطفل وقريبه الصغير وأنا. أخذنا

الطريق الذاهب إلى رأس العين، وانعطفنا نحو يسار الجدول المتعرج وتبعنا خط درب البغال المحفور في الصخر. وفي الوادي انطلقت النغمات البهيجة لمزمار قصب: جلس راع يعزف على مزماره على جانب الطريق، وابتسم لنا عندما توقفنا لنستمع إلى أنغام مزماره، التي تشبه غناء العصافير. كان قد صنع مزماره بنفسه على التلال بينما كان يرعى القطيع. وبينما كنا نصعد التلة كان الطفل يصيح صيحات الابتهاج ويضحك وأعطته قريبته الصغيرة أزهاراً هشمها في قبضته الحارة الصغيرة. كانت الطريق كلها، بالرغم من الصخور، أزهاراً وأزهاراً وأزهاراً. وفي الأسفل كانت قطع طويلة من الكتان قد نشرت لكي تصبح بيضاء. قالت عائشة: «هذه من اليابان وقد بيّضناها بالغسيل وبينما لا تزال مبللة، ننشر عليها روث حصان طيلة ليلة، وفي اليوم التالي نغسلها ونجففها ثم نعيد غسلها وتجفيفها في الشمس عدة مرات، حتى تصبح بيضاء كالثلج».

مررنا بجانب قبر صخري، وعلى مسافة أبعد قليلاً تفرع درب البغال إلى اليسار ـ «الطريق إلى شيخ عدي»، قالت عائشة. وعلى هذه الطريق كان معظم الحجاج يذهبون قبل أيام السيارات إلى شيخان. إذا سافر الحاج على البغل، فقد يأمل الوصول إلى المقام المقدس بعد أكثر من يومين بقليل، ما لم يوقفه قطاع الطرق. كانت الأشياء تذكرني بأكرادينا (Acradina) في صقلية عند كل خطوة: الضريح ورائحة الأعشاب والأزهار البرية والطريق الصخرية القديمة. وعائشة نفسها كانت تشبه عذراء جميلة من سيراكوسا، لكن ثوبها كان أكثر غرابة بكثير من أي ثوب شاهدناه في صقلية. لم تكن ترتدي أي غطاء رأس فيه عملات فضية، بل عمامة بيضاء بدلاً من ذلك. وعندما سألتها إن كان عندها واحد،

أجابت متنهدة أنها قد باعته بدينار، وأتخيل أن هذا الدينار قد ذهب لمساعدة زوجها وعائلته في فترة الضيق.

وفي إحدى مراحل الطريق ظهرت قبة ملكي ميران (Malke Miran) المخروطية في الأسفل، تحيط بها الصخور في الممر الضيق كأنها إطار، تنتصب جميلة مقابل السلسلة البعيدة من الوديان الزرقاء، كما لو أنها ملونة، في طلاءات خفّت حدة ألوانها حتى تلاشت مقابل الأفق.

واصلنا الصعود المستمر مدة ساعة إلى رأس الممر الضيق. وعلى أحد جانبيه ارتفعت قمة المزار المستدقة التي جئنا لرؤيتها. وعلى التلة المقابلة عبر الممر كانت هناك مبان حجرية خربة. أخبرتنا عائشة أنها كانت قديمة جداً ـ «ربما ألفا سنة. كان هناك ناس (أوادم) يدعون غاوراستان (Gowrastan) يعيشون هناك. ولكن عندما جاء محمد حدثت معركة وقتلوا وهدمت بيوتهم. يقال إنه لا يزال يمكن مشاهدة دمائهم على الحجارة».

كانت تشير على ما أعتقد إلى الأشنيات الصدئة بلون محمر التي كانت تنمو على الصخور في الجوار. جلسنا: هي وجدان وأنا على الصخر المشرف على الممر. صعدت أ. النشيطة جداً والمعتادة على تسلق الجبال في سويسرا، إلى الأعلى، تواقة للوصول إلى النقطة الأكثر ارتفاعاً. تطلع إليها جدان بإعجاب.

قال متمتماً: «مثل الغزالة».

عندما ضرب الطفل أمه على صدرها، أعطته ثديها فوراً، واستراح على حضنها الواسع برضا تام، يحلم ساعة، وساعة يبتسم. وهو أيضاً راض جداً بحيث لا يستطيع أن يقوم بأكثر من

التظاهر بالرضاعة وعندما انطلقنا غفا، ونزلت يده مترنحة فوق كتف أمه. كان الزعتر البري ينمو في كل مكان حولنا وكذلك نوع من المريمية ذات العبير الذي يشبه البلسم، وعشبة أخرى تعطي عطراً حاداً مثل البخور في الشمس الحارة.

عادت أ. وانضمت إلينا، بعد أن ألقت نظرة بعيدة على مستجمع المياه عند القمة، وأطرى عليها جدان لسرعتها بين الصخور. أخبرته أن هذه التلال لم تكن تشكل شيئاً بالمقارنة مع جبال الألب، التي لم تكن الجبال الثلجية في أعالي كردستان والتي رأتها من قمة الصخور، إلا أخوات صغيرات لها.

كان المزار من النموذج العادي، ولم يكن يحتوي أي ضريح كما رأيت. نزلنا إلى بستان الزيتون تحتنا مباشرةً. كانت هناك مغارة قرب النبع، وكانت سراخس كزبرة البئر تنمو بكثافة في رطوبتها المستحبة، وكما توقعت، كانت الشجرة المقدسة عند النبع المقدس ـ هذه المرة شجرة تين ـ مزينة بقطع قماش وفاء لنذور. ولما لم يكن لدينا أي شيء نضيفه إليها فقد ربطنا بعض الأعشاب إلى أحد الأغصان بدلاً من ذلك. كانت هناك قنوات ماء حجرية تأخذ الماء إلى خزان. يبدو أن شجرات الزيتون كانت مهملة، لكنها كانت فردوساً صغيراً من الخضرة، وكانت أشجار الصفصاف المزهرة تنمو إلى جانب أشجار التين والأشجار الأخرى. والصخور في قمة الممر الضيقة هذه تشبه مبنى حجرياً، وكان من الصعب أن تقنع نفسك إلا أن يد الإنسان هي التي نحتتها.

في رحلة العودة استعارت أ. طفل عائشة ـ الذي دهش لكنه لم يبد عدم السرور لتغيير من يحمله. لكننا لم نستطع إقناعهم بالدخول وتناول الشاي معنا. لم يكد ميخائيل يجلب الشاي حتى دخل أحد

الضيوف ـ مبشر آشوري مشيخي ـ (Presbyterian): شكل ذكوري يرتدي سروال رياضة قصيراً مزموماً. بينما كان يشرب الشاي ويتحدث كلاماً حسناً وأخبرنا أنه لم يقم بدراسة للشعب اليزيدي وحسب، بل كتب عنهم في الجرائد الأميركية أيضاً.

أخبرنا أنه بالرغم من أن كل من قريتي بعشيقا وبحزاني ـ إذا جاز القول ـ كانت على مرمى حجر من الأخرى، فإن الأولى كانت أكثر تقدماً من الثانية بفضل المدرسة. وأن بحزاني قد احتفظت بعاداتها القديمة التي بطلت في بعشيقا.

قال مبتسماً: «إن زيارتك تثير الكثير من التأمل. أخبروني أنك طلبت أن تأخذي صورة لامرأة تنجب طفلاً لأنك لم تري مثل هذه الأشياء في بلدك؛ فالأطفال الإنكليز يُخرجون من بطون أمهاتهم بعمليات جراحية لا بالطريقة الطبيعية».

كان يتحدث هكذا ويحتسي الشاي ويبدو غريباً جداً فعلاً، عندما وصل ضيف ثان، هذه المرة كان القوال سيفو ـ القوال الرئيس. شرب الشاي معنا، وجرت مناقشة مواضيع عامة، وعندها سأل القوال عما كانت أ. تخيط. عندما علم أنها سترة لسيت غولي ترتديها في السرير، ابتسم وامتدح عمل الإحسان هذا.

بعد ذلك ربما تذكر صديقنا أنه كان مبشراً. ومن أجل القوال، توسع في الطريقة التي استوعب فيه الإحسان المسيحي ناساً من كل الديانات والأنواع، لأن ذلك بأمر من المسيح، نبيّنا، وجعل أ. أقل المواضيع تشويشاً في حديثه. استقبل القوال هذا، الذي كان دائماً لطيفاً ومهذباً ـ برباطة جأش، بالرغم من أننا شعرنا بالقليل من الاضطراب ـ وكان ذلك أمراً سخيفاً ـ لأن من الواجب على المبشر طبعاً أن يحسّن الساعة المشرقة مثل النحلة النشيطة حيثما

يجد العسل الوثني الذي يمكن جمعه وأخذه إلى خلية الحقيقة البروتستانتية.

غادرنا حالاً، وبقي القوال وحيداً. كنا نحب وجهه اللطيف وطبعه الخجول، وتجرأت على توجيه بعض الأسئلة له: كان جوابه الفوري «كيف نعلم؟ نحن بشر وهذه الأشياء بيد الله». قد يكون هذا الجواب قناعاً يغطي عدم رغبته في الإجابة عن أسئلة شخص غريب، لكنه كان قناعاً ساراً جداً. سألته عن تقاليدهم فيما يخص الخلق. في كتاب «By Tigris and Euphrates»، (بجانب الدجلة والفرات). سَرَدْتُ، للمرة الثالثة، قصة اللؤلؤة وخلق آدم وحواء والطير، وهي حكاية للأطفال يسردها الصوفيون كأسطورة يزيدية. لم يسرد أي حكاية كهذه لكنه أجاب ببساطة أن الله هو الذي خلق العالم وليس ملائكته. وفي البدء كان النور والظلام، ثم الأرض، والسماء والنجوم، ثم كانت الأرض ومخلوقاتها الحية، ثم آدم وحواء. وكرر حكاية الجرتين. وطبقاً لهذه الحكاية، ادّعت حواء أن الأطفال من إنتاجها، وأنه ليس لآدم أي دور في ذلك. فاقترح آدم اختباراً. وضع آدم بعضاً من لعابه وبعضاً من لعابها في جرتين منفصلتين وتركهما مغلقتين مدة تسعة أشهر. وفي نهاية تلك الفترة فتح آدم جرته ووجد في داخلها ولداً وبنتاً صغيرين جميلين، لكن جرة حواء لم تحتوِ على أي شيء سوى العفن.

أنكر أن لليزيديين نسلاً مختلفاً عن باقي الجنس البشري. وعندما سُئل عن مصير الروح بعد الموت، قال إن أرواح الأشرار تدخل أجسام الحيوانات أو الزواحف، وتلك هي جهنمهم، لكن من هم أكثر شراً لهم جهنمهم من نار لا خروج منها على

الإطلاق، وأضاف «لكن لا يعرف أحد ماذا تستطيع رحمة الله أن تفعل». أما الأخيار فيتقمصون في أجسام إنسانية بعد رحلة في الفردوس، لكنها في نهاية كل الأشياء ـ إذا تطهرت بالكامل ـ تتحد مع الإله الأعلى، وتبقى في نعيم ولا تعود أبداً. سألته لماذا أعطوا هذا الاحترام الخاص لطاووس ملك. . . أجاب: «نحن مثل الإسلام لا نعتقد» أضاف بلباقة: «إنه هو سيد الشر، إنه رئيس الملائكة السبعة، وهو مع جبرائيل الذي ينتزع الروح من جسم الإنسان عندما يأتي عزرائيل من أجلها. والشر الموجود في قلوب الناس ليس منه، لكن من أنفسهم».

سألته عن سبب تبجيل الينابيع والأشجار، أجاب أنها مسكونة. قال نعتقد أن هناك كائنات، لا إنس ولا جان. يقول الناس إن هذه الكائنات تُرى أحياناً وكل منها يدعى «رجل الغيب». وأضاف بسرعة: «لكن من يراها؟ واحد من الألف. لماذا تسألين عن هذه الأشياء. أنت إنكليزية والإنكليز يعرفون أكثر مما نعرف!».

أما بالنسبة للصلاة، فقد أخبرني أن هناك خمس صلوات مفروضة على اليزيدي التقي: عند الفجر، وعند الشروق، وعند الظهر، وبعد الظهر والأخيرة عند الغروب. في كل مرة يجب على المتعبد أن يدير وجهه نحو الشمس. وقبل الصلاة يجب غسل اليدين والوجه. في الواقع قبل كل العبادات يجب على اليزيدي أن يغتسل، وقبل كل عيد يجب أن ينظف الجسم بالكامل إما بالماء الساخن أو بالماء البارد ويجب ارتداء ثوب أبيض. والصلاة أمر ضروري قبل تناول الطعام؛ وقبل الاحتفالات وأثناءها ـ كما قال ـ هناك صلوات خاصة.

كان المبشر قد أخبرني أن الصلوات اليزيدية ذات سجع وقافية، وهي مزيج من الكردية والفارسية. تُحفظ الصلوات عن ظهر قلب (كالببغاء) ولا يفهمها إلا القلائل ـ اللهم إن كان هناك من يفهمها. كان يعتقد أنهم لن يسمحوا لي بتسجيل بعضٍ منها، لأنها كانت تعتبر مقدسة على نحوٍ كبير. كان أيضاً قد حذرني أنه في ليلة يوم الخميس من العيد المقبل، عندما كان اليزيديون يتجمعون في الشيخ محمد لا يسمح للمسيحيين أو المسلمين بالتواجد. ماذا كانوا يفعلون في تلك الليلة الساهرة، «لا أحد يعرف».

تخيلت أنني كنت أعرف إلى ماذا كان يكره أن يلمح، لأن التلميح قد تمّ ضد كل طائفة سرية بالدور. كان الصائبة والمسيحيون واليهود قد اتهموا بشكل متباين بطريقة جاهلة أنهم في ليلة معينة من الشهر كانوا يتجمعون في الظلام رجالاً ونساءً، وتحدث تلك العلاقة المعيبة باسم الديانة، ولا يعرف أحد من معه في الظلام. تلك كذبة قديمة كتلك الكذبة الأخرى عن اليهود، بأنهم يأكلون لحم الأطفال المسيحيين في الفصح.

* * *

كانت ليلةِ السادس عشر من نيسان عشيةَ العيد. بينما كنا على طاولة الفطور، تمَّ الإعلان عن مجيء ضيف. كان راهباً من اليعاقبة يرافقه تابع علماني، كان رجلاً عليه مظهر الوقار ذا عين مريبة. أخبرني أنه يعرف الكثير عن اليزيديين، وأظن الدافع لزيارته كان استياءً غامضاً، من جهة، ومن جهة أخرى الفضول مثل هدفي الحقيقي من المجيء إلى هنا، واعتقاداتي الشخصية.

بدأ الحديث عن الكاثوليك اللاتين. «هل رأيتِ كنيستهم

الحديثة المهيبة؟ هل زرتها، وحضرت القداس ورأيت صورها ورسومها؟ لقد دفع البابا كلفة ذلك كله». بالنسبة للصور، نحن الأرثوذكس ليس عندنا شيء؛ والتابع ـ الذي كان أكثر ثرثرة من الراهب، وكان يتحدث بجمل قصيرة ـ أضاف هنا: «نحن نعيش من تقوى شعبنا: كل ما نملك هو من الهبات المجانية لشعبنا الخاص». تابع: «نقطة الاختلاف الكبيرة بين الكنيسة اللاتينية وكنيستنا هو المطهر». سألني: «أين جاء ذكر المطهر في الكتاب المقدس؟ يذهب الصالح إلى الجنة، والشرير إلى النار الأبدية، وهذه نهاية الأمر».

سألت: «لكن ماذا بشأن الأكثرية الذين ليسوا أخياراً ولا أشراراً؟».

تحوّل العلماني عن السؤال غير الهام، وسرد أخيراً قصة صدر إبراهيم ولعازر، بينما استفهم الراهب بمكر من أ. إن كنت مسلمة؟ ثم خاطبني الراهب، وأخبرني أنه قد سجل كثيراً من صلوات اليزيديين ذات القوافي. مدحت فعلته وقلت يهمني أن أراها، لكنه لم يكن راغباً في أن يريها لي فتحولت عن الموضوع.

قال بتهجم: «قد تجدين بعض الكهنة اليزيديين الذين يجيبون عن أسئلتك، لكن بالمال. ليسوا الآن كما كانوا في السابق. هناك مدارس وهم يفقدون شعبهم. لقد تغيّرت الأزمنة. لكنهم فقراء ولن يعطوا معلومات مقابل لا شيء».

أخبرته أن الهدف الحقيقي لزيارتي هو أنني أريد أن أرى عيد الربيع فقط، وأن أي معلومات أخرى يمكن أن أجمعها ستكون عرضية فقط.

قال: «هه. حسناً، لكنك لن تري شيئاً مما يحدث داخل مقام الشيخ محمد ليلة الخميس. لن يسمحوا لأي مسيحي بالاقتراب. لم يرَ أحد ماذا يحدث».

نهض كي يغادر، لم يأكل ولم يشرب شيئاً معنا لأن الوقت كان لا يزال الصوم الكبير عندهم.

بعد الفطور ذهبنا إلى بيت سيت غولي ووجدناها تئن في فراشها وفي المكان غير المريح نفسه. سُرت بالسترة التي جلبتها أ. كهدية التي ارتدتها بمساعدة زوجة ابنها، لكن حبوب الكينين ـ كما قالت ـ لم تنفعها إلا قليلاً. شكت أنهم تجاهلوها، وهمست إحدى الجارات في إذني أن المحبة التي كانت بينها وبين زوجتي ابنيها قد ضاعت.

علَّقت عائشة بطريقة فلسفية، «ربما ستموت»، عندما كنا ننزل. لقد شدتني في زيارة سابقة مثابرة وصيفة الشيخة التي كانت تغزل في غرفة مجاورة للمكان الذي ترقد فيه سيدتها مريضة. والآن جلبوا دولاب الغزل ووضعوه مع الغزّالة في الشمس بحيث أستطيع أن آخذ صورة. أعطيت قطعة قماش من حرير برتقالي اللون كثياب عيد للأطفال، وكانت هذه إضافة إلى قطعتها، وانهالت الدعوات والتبريكات على رأسي. في اليوم السابق كنت قد أخذت هدية مماثلة إلى زوجة المختار عرفاناً مني بلطفها لتقديم القطن من أجل سترة السرير.

مضت أ. ومعها أدوات الرسم، وتبعتُها بعد ذلك بقليل، وصولاً حتى بركة الغسيل عند رأس العين، وجلست بجانب بعض النساء المسيحيات اللواتي فرشن لي ثوباً على العشب قربهن. كان حضن إحداهن ممتلئاً برؤوس أزهار من نباتات البابونج. وكانت

تقطف السوق والأوراق فساعدتها بينما كنا نتحادث. قالت: «إن منقوع هذه الرؤوس مفيد للحمى والإمساك». أخذت النسوة الأكبر سناً بجانبها حفنة منها وأضافت «عندما تجفف الأزهار نضع مقداراً كهذا في إناء الشاي ونضيف إليه الماء الحار حتى يصبح كثيفاً كالعسل. ثم نشربه. ندعوه «بيبون اللبن» (Beybun al-leban)»، صاحت بعض النسوة اللواتي يغسلن الثياب ليخبرنني أن أ. «وهي امرأة طويلة» كانت هناك في الوادي. قالت إحداهن لي: «لماذا تذهبن وحيدتين؟. ألا تخافان؟»

«ممَ نخاف؟ أنتم شعب بعشيقا أناس طيبون».

ابتسمن بالموافقة على جوابي وصرخن: «ابقي معنا دوماً».

كانت إحدى النسوة تستخدم ـ إضافة إلى قطعة الصابون المصنوعة في البيت ـ العشبة الزلقة مثل الصابون المدعوة «شنان»[1]. من أجل الاستعمال كانت قد طُحِنت لتصبح مسحوقاً وأعطتني قليلاً منها بحيث يمكنني أن أغسل يدي عند النبع.

كانت هناك مظاهر ترقب في القرية. ففي بيت رشيد كانت زوجته منشغلة تخيط ثياب الاحتفال، مدت الحرير على وسادة وجلست على الحصيرة لتخيط. كان والد رشيد ـ ذو الوجه المنفتح والذكي كابنه ـ قد عاد من زيارته إلى جبل سنجار وجلب معه ابن رشيد الأكبر، وهو تلميذ في مدرسة عمه، كي يقضي فترة العيد مع جديه ووالديه. حضَّروا القهوة لي، ثم ألحوا أنني يجب أن أبقى كي أشرب الشاي معهم، ووضعوا أمامي صحناً من التين

---

(1) شنان هو الاسم الذي يطلق على نباتات ملحية متعددة من عائلة Chenopodeaceae.

المجفف من حديقتهم في سنجار. تحدث الرجل المسن بكبرياء عن ابنِ معلم مدرسته، الذي كان يعتبر مهبط الوحي في القرية حيث يعلِّم. قال: «يأتي الناس إليه كي يحلّ لهم جميع المشاكل. إن التعليم شيء عظيم؛ فهو يفتح العالم أمام الإنسان! أنا نفسي لا أعرف القراءة والكتابة، لكن حفيدي ـ الشكر لله ـ سيكون قادراً على قراءة جميع الكتب».

لم أتمكن إلا أن أجيب على نحو عادي. «ليست الكتب كل شيء. ولا شك أن خبرة وحكمة سيادتك ذات قيمة بالنسبة لجميع من حولك كقيمة الكتب للشباب الأصغر سناً». بعد ذلك استشرته حول تقديم هدية للفقراء اليزيديين بمناسبة العيد. إلى أي من رجال الدين يجب تسليمها؟. أشرقت ابتسامة لطيفة على عينيه وسأل رشيداً. أشار الاثنان إلى أن المال ربما تكون له فرصة كبيرة في الوصول إلى الفقراء إذا عُهِد به إلى رجل علماني موثوق. اقترحت أن يرافقني رشيد عندما أقدم الهدية المتواضعة، كشاهد يضمن توزيع المال. وأخيراً تمَّ الأمر، واستلم القوال سيفو المال هناك، ثم قسّمه إلى مبالغ أصغر وأرسل واحداً من أبنائه إلى بعض جيرانه الأكثر فقراً.

## الفصل الحادي عشر

# عشيّة العيد

«كُفّي يا سيذيريا عن نواحك، وتوقفي اليوم عن ألحانك الجنائزية. عليك أن تنتحبي عليه ثانية، وأن تبكيه سنة أخرى».

بابون/الأنشودة الرعوية I

كنت وجدان ننزل الممر بين الحدائق الخضراء عندما وصَلَتْ إلى مسامعنا أنغام مزمار مرتعشة، وكذلك ضربات طبل جوفاء، ورأينا عدة مجموعات تتجول بين القبور. حمل نسيم المساء إلينا عطر البخور التابلي مختلطاً بعطر الأعشاب التي وطئناها بأقدامنا. أخذنا طريقنا إلى مزار ملكي ميران المخروطي، وبعد أن صعدنا المنحدر العشبي وجدنا مجموعة من النسوة واقفات حول ضريح ينشجن ويضربن صدورهن أو يصفعن وجوههن براحات أكفهن على أنغام مرثاة حزينة يعزفها على مزمار خشبي[1] أحد القوالين، بينما كان شريكه يضرب على طنبور[*] (دف) مستدير كبير، كان في

---

(1) شِباب.

(*) الطنبور آلة وترية ولا علاقة له بالدف. (المراجع).

حافتُه أجراس صغيرة. وبعد عدة دقائق توقفت الموسيقى، وابتعد القوالان، وخرت النساء حول القبر ليكملن نواحهن، ويطلقن نحيباً نصف مغنّى يقطعه النشيج. وعند قبر آخر كان اللحن الحزين الصغير نفسه يُعزف المرة تلو المرة على وقع ضرب الطنبور المتزامن مع ضربات أيدي النساء على صدورهن. وعند كل قبر يزورانه كان القوالان يعزفان مدة عشر دقائق تقريباً، وعندما ينتهيان كانت إحدى النساء النائحات تدس بعض المال في أيديهما. لم تكن هناك أي ثياب احتفال براقة ولا أغطية رؤوس متألقة. كانت هؤلاء النساء متزوجات كبيرات السن وكن جميعاً يرتدين قناع الرأس الأبيض وقد لُفّ حول العمامة وثياباً من ألوان رصينة. كانت حولنا من جميع الأنحاء مجموعات من نسوة نائحات يجلسن إلى جانب قبور موتاهن: لم تكن تقف سوى نساء من كان القوالان يعزفان لأجل موتاهن. عند رأس أحد القبور بجانبنا، كانت امرأة تنشد مرثاة. وعلى معظم القبور وضعت بعض الرزم التي رأينا عندما فتحت أنها تحتوي القمح المكسور (البرغل) والبيض المصبوغ باللون البرتقالي اللامع. وضعت إحدى النساء يدها في الرزمة وأعطت بيضة إلى ولد جعله فضوله يقترب. أخبرني جدان أن الطعام يجب أن يوزع على أي شخص يمر من هناك بحيث يأكل ويبارك روح الميت. كان وعاء فيه بخور قد وضع قرب كثير من القبور وكانت أعمدة لولبية من الدخان ترتفع في الهواء الساكن. وعلى التلال المقابلة تمكنّا من رؤية مجموعات مماثلة من النائحات والقوالين ينتقلون من قبر إلى آخر. كانت أنغام المزمار وضربات الطنبور نفسها تعبر الوادي. كان للنغم إلفة متماسكة: لازمتنا: أنا وأ. ساعات.

على طريق العودة إلى البيت مررنا بجانب بركة الغسيل السفلى ورأينا نساء يغسلن، لا ثياباً، بل لحماً مذبوحاً للتو، لأن كل بيت يزيدي يجب أن يضحي بخروف أو جدي عشية يوم العيد. وإذا كان فقيراً جداً يمكن الاستعاضة عن ذلك بدجاجة، لكن القليلين يبقون دون لحم،لكن الأثرياء يوزعون على جيرانهم الأكثر فقراً. انتظرتنا سيري في البيت،وكانت أ. قد عادت من جولة الرسم. كانت ترافق العجوز فتاة صغيرة جلبت لنا هدية بمناسبة العيد، خمس بيضات ملونة، قدمتها مؤنبة.ألم يكن لدي أي قطعة حرير من أجلها؟ ولا حتى عباءة قديمة؟ ألم يكن لدي «أي شيء لحفيدتي هذه؟». أوضحتُ مرة أخرى أنه لم يكن لدينا أي شيء سوى ما يكفي لحاجات سفرنا، لكنني تذكرت دبوس زينة كان على وسادة دبابيسي، فأحضرته وثبته في ثوب الطفلة المتسخ. كانت الفرحة الخالصة التي أضاءت وجه الصغيرة مكافأة لم تكن تلك الحلية الصغيرة تستحقها. أعطتها أ. خرزة ضد العين الشريرة، ودعمت تلك الهدية بكتابة تعويذة قصيرة لسيري على قطعة من ورق بالحروف المانداثية، طوتها بعناية ووضعتها في ثوبها. وحتى لا تتفوق عليها في السحر غمغمت كلمات من تعويذة بصوت أبح فوق أ. متضرعة إلى مريم ـ أم الأطفال السبعة ـ أن تمنحها سبعة عشر طفلاً. ربما كان جدان قد حذرها ألا يطول بقاؤها، لأنها ـ بعد وقت قصير عندما وصل زائر ثان ـ غادرت ومعها حفيدتها.

كان القوال نفسه الذي رأيته قبل قليل يعزف عند القبور ـ القوال ريشو ذو الأنف الأفطس، هو الرجل الذي أخذني إلى بيت المبشر. وقد تعرف الآن على أ. وشرب الشاي معنا. كان قد رآني آخذ له

صورة عندما كان يضرب على طنبوره، وجاء ليسألني إنْ كنت سأرسل له النتيجة. وكشخص ودود وبهيج، أخبرنا أنه عندما كان شاباً خدم في قوة Levies للتجنيد الإجباري - وهي قوة يقودها الانكليز - وسرِّحت الآن وكان واضحاً أنه يعتبر هذا ميثاقاً بيننا. قال عندما ذهبت،أخذوني لأمثل أمام ضابط سألني عن اسمي وماذا أعمل، قال لي ريشو: «عليك أن تحلق لحيتك، فالجندي لا يترك لحيته»، لكنني أخبرته أني لا أستطيع لأن ديانتنا تمنعنا -نحن القوالين - من قصّ الشعر واللحية. فأخذني إلى إنكليزي آخر، سألني عدة أسئلة عن شعبنا وسمح لي أن أترك لحيتي».

تابع يقول: «نحن القوالين نسافر، ونلتقي أناساً من كل الأجناس والديانات. اعتدنا أن نأخذ السنجق (التمثال البرونزي للطاووس المقدس) وصولاً حتى روسيا والهند وكذلك تركيا وفلسطين وسوريا. لكن في هذه الأيام لم نعد نفعل لأن جميع هذه الأماكن لا تسمح لنا بالدخول، وجوازات السفر أصبحت صعبة المنال بسبب الحرب.

قلت إنني لم أكن أعرف أن هناك يزيديين في الهند. أجاب أنهم موجودون هناك. وكذلك هناك ناس لهم عادات مشابهة لعاداتهم. تحدثت عن الحزام المقدس للزرادشتيين الهنود الذي يربط عند الصلاة مع الوضوء، وأخبرته أنه عندما كان أحد هؤلاء الجنود في العراق أثناء الحرب الأخيرة، وفقد حزامه، ذهبت إلى كاهن مانديني كي يحيك له واحداً آخر بدلاً منه. «أنتم اليزيديون أيضاً لكم حزامكم».

أجاب أن اليزيديين عندما يصلون يغسلون أيديهم ووجوههم ويثبتون أحزمتهم بحيث يشبهون الزرادشتيين في هذا الأمر

وأضاف. «لكن وجهتنا في الصلاة تتجه نحو الشمس، نقف وأيدينا مفتوحة ونقوم بسجدة واحدة على الأرض».

وبعد أن دعانا لزيارة بيته، غادرنا.

حلّ المساء، وبدأ العيد في الصباح. وكان القوالون والنائحات قد عادوا إلى منازلهم. صعدت مع أ. في شارع القرية وقابلنا عازف المزمار وحيانا بلؤم. كان مشابهاً للراعي اليوناني: دوريان دافينس(Dorian Daphins) بعينيه الكستناويتين الصافيتين كبرك الماء في أراضي الخث (peat = نوع من فحم عضوي)، وابتسامته الخبيثة «ويعزف على نايه الجميل». أو كما اقترحت أ. مثل بيتر بان الجميل المزهو. كان صوت مزمار الراعي ـ مزماره أو مزمار غيره ـ يُسمع على نحو مستمر في الأراضي المرتفعة، وخلفه مباشرة مشت فتاة وفي شعرها باقة من نبات الحوذان كما كانت مجموعة من النساء عائدات، تتدلى على أكتافهن جلود ماعز منتفخة بالحليب، وأطفال صغار ثُبِّتوا تحت أذرعهن سمحوا لنا أن نمسد بأيدينا هذه المخلوقات الطويلة السيقان ذات السترات الناعمة، والأنوف الكليلة والآذان الطويلة الحريرية.

وهنا وصلنا إلى طاحونة الماء، دخلناها وتحدثنا إلى الطحّان. كان الحبّ موضوعاً في القادوس، يطحن بين حجرين كبيرين يدوّرهما تيار الماء الذي يجري من رأس العين، وزوجة الطحان تجمع الحب عن الأرض، تغرفه بيديها وتضعه في الكيس الذي كاد يمتلئ. استسلمنا أيضاً إلى إلحاح جيراننا الشرطة الذين أخذونا إلى مركزهم وأرونا بفخر الإسطبلات المعتنى بها جيداً وغرف الأسرجة، وصور المجرمين المحليين والرجال المطلوبين. بعد تفحص هذه الأشياء بعناية، قررنا، أ. وأنا، أن عدداً من هؤلاء

كانوا يبدون كالرسل. كان ذلك بتأثير اللحية ولباس الرأس. تذكرت أنني أصبت بالهلع عندما رأيت صور الدكتور هنري فيلد (Henry Field) الخاصة بأصل الأجناس البشرية لرجال كانوا يظهرون بمظهر القديسين والبطاركة في كوفياتهم (ألبسة الرأس) والعقالات (حزمة من حبال مفتولة). من دون ألبسة الرأس التي تضفي جمالاً على صاحبها تحولت إحدى صور موسى فجأة إلى مجرم مجذوب، وصورة يوحنا المعمدان إلى محتال من شارع المتشردين.

هبط الليل، وبعد أن تناولنا العشاء، خرجنا كي ننظر باهتمام جديد إلى مزار الشيخ محمد وتساءلنا عن كل ما يجري هناك أثناء الليلة الثانية من العيد، متأسفين أننا لن نعرف أبداً طالما أن جميع المتعالمين في ذلك المكان أعلنوا أنه من المستحيل على غير اليزيدي أن يحضر.

هكذا عدنا إلى فراشنا نترقب ماذا سيحدث في الغد، كما كان يفعل اليزيديون أنفسهم.

# الفصل الثاني عشر

## العيد: اليوم الأول

«الربيع في كل مكان، والمراعي في كل مكان، وفي كل مكان انتفخت ضروع الأبقار بالحليب، والصغار تُغذّى».

ثيوكريتوس/الانشودة الرعوية VIII

كان اليوم السابع عشر من نيسان (التوقيت الغربي)، الرابع من نيسان (التوقيت الشرقي). نهضنا باكراً، كانت الفتيات اليزيديات قد خرجن إلى التلال قبلنا ليجمعن باقات من أزهار الحوذان القرمزي، إذ لم تكن تُستعمل أي أزهار أخرى للعيد. وفوق كل بيت يزيدي في القرية كانت قد ألصقت ثلاث باقات من هذه الأزهار الزاهية بالطين الرطب رؤوسها نحو الأسفل، واحدة فوق المدخل وواحدة على كل عضادة باب، وفي الطين الذي كان يمسك الأزهار في مكانها، أدخلت قطع من قشور بيض ملون، ولطخ بعض أرباب البيوت العتبة وعضادات الأبواب بالدم من الخروف أو الحَمَل الذي ذُبح في الليلة السابقة.

كان كل شخص يحضّر ويستلم الهدايا من البيض المسلوق الملون. كان اللون البرتقالي هو المفضل، الصباغ النباتي البراق الذي كانت النساء تستخدمنه لميازرهن المحاكة يدوياً، لكننا رأينا أيضاً الأرجواني والأخضر واللون الأكثر اعتدالاً الذي ينتج عن ربط قشور البصل حول البيض أثناء السلق. لم يكن هناك لون أزرق، لأنه لون ممنوع علي اليزيدين، فهو للنسوة الماندينيات، ولا ترتدي أي امرأة يزيدية حلة زرقاء لكن يمكنها أن ترتدي خرزة زرقاء أو زراً أزرق اتقاء للعين الشريرة.

ذهبنا إلى بيت سيت غولي ووجدناها في الفراش مريضة جداً، لكن الحمى قد تراجعت. لقد أضعفت حبات الكينين سمعها، وحتى العيد لم يثرها. بالرغم من الحزن الذي كان يخيم على العائلة، فإن مدخل باحتهم كان مزيناً مثل البيوت الأخرى، وكانت باقات حمراء قد ثبتت فوق باب كل غرفة معيشة. ولم ينسَ أحد النحل، فقد علقت بعض باقات الأزهار القرمزية فوق المداخل التي كانت النحلات تدخلها وتخرج منها بنشاط. كانت الخلية قضية عجيبة. لقد كانت ببساطة سلة طويلة من القصب مطيّنة بالطين ومبنية في جدار غرفة المعيشة وكانت الفتحة الواسعة المطينة في مستوى الجدار الخارجي نفسه. وفي غرفة المعيشة نُشر فوقها كيس لئلا ينكسر بعض الطين وتحتشد أسراب النحل في الغرفة. كانت الأبواب إلى الخلية مثقوبة في خارج الجدار، وفوق هذه الفتحات وضعت الأزهار.

فرضت عائشة علينا أن نأخذ بيضاً وكذلك كل من قابلناهم تقريباً. في الساحة عند مدخل القرية، حيث كان الرجال والأطفال يمضون الوقت، كانت تجري إحدى الألعاب. كان أحد اللاعبين

يمسك بيضة في يده ويُظهر أحد طرفيها، ويفعل خصمه الشيء نفسه وعندما كانت البيضتان تقرعان معاً على نحو خفيف، يكون الخاسر هو من تنكسر بيضته أولاً. كان هناك موهبة في ذلك. وبعض اللاعبين كانوا يحصلون على عدد من البيض.

بحث عنا رشيد، ومعه المزيد من البيض، وذهبنا كي نزور القوال الرئيس في منزله. وبعد ذلك عدنا إلى ساحة القرية. كان هناك رجل معه صندوق الدنيا ويقوم بعمل ناجح. كانت هناك أداة تشبه الأرغن اليدوي. كان الزبائن يجلسون على مقعد منخفض ـ كل اثنين معاً ـ ويثبتون أعينهم على ثقوب خاصة للعينين. كان في الداخل ضوء ينير الصور الملونة على نحو مبهرج، كانت تسير على نحو منقطع بينما يدير المخرج مقبضاً. كان ينادي بموضوع كل صورة بينما يديرها «آدم وحواء»، «ست مريم وعيسى» (السيدة مريم ويسوع) وهكذا. كانت تشبه الصور التي يمكن الحصول عليها من حكّ أوراق الحظ المغطاة بمادة فضية اللون في أيام الشباب، بسيطة مثلها، براقة مثلها. كانت هناك مناظر صنعت في ألمانيا. منظر معركة تركية فيها الطرابيش تهزم الملحدين، القيصر الألماني عندما كان شاباً مع عائلته، القديسة مريم المجدلية («الليلى الجميلة») القديس جورج والتنين، منظر فيه جسر معلق (ستامبول)، نيقولاس الثاني وزوجته القيصرة، طفل معه قطيطة («لوندرا»)، منظر في جبال الألب، وغيرها. وكل ذلك لقاء قليل جداً من المال. نهضنا وضعنا الأجرة عن ولدين صغيرين أخذا بلهفة مكانينا وسرنا نحو بحزاني لنقدم التهاني لأصدقائنا هناك.

في بيت القوال سلمان سلم علينا ابنه الصغير ـ خضر ـ الذي كان وجهه يشع سروراً، وقدم لنا القهوة في الغرفة العلوية. وعلى

جدران هذه الغرفة أعجبت أ. بزخرفة مطابقة للزي الرائج في القرى، حلية معمارية من خيوط ذهبية مصنوعة على شكل زهرة: كانت البنات قد صنعنها من الأوراق الرقيقة التي تلفّ فيها لفافات التبغ. كانت جميع الفتيات متألقات في ثياب العيد، لكننا لم نر البهاء الكامل لثياب العيد حتى اليوم الثالث. وضعت كل فتاة باقة زهر صغيرة من أزهار الحوذان الحمراء في عمامتها، وألححن بمرح على أن تضع أ. بعضاً منها في قبعتها.

هطل المطر طوال اليوم فجعل العالم نظيفاً وطرياً، واليوم هبطت روح الربيع علينا جميعاً. في كل مكان، كانت حولنا مخلوقات من عمر الزهور. حمُرٌ صغيرة مولودة حديثاً يا لها من مخلوقات جذابة بأنوفها عديمة الحس وجلودها الملساء الزغبة الناعمة، والتي تبقى قريباً جداً من أماتها المربوطة وهي ترعى. كان هناك حوالي ستة منها على المنحدرات العشبية تحت بيت القوال. جديان وحملان وعجول ـ مرتبكة وبريئة ـ ودجاجات تهتم بصيصانها الصفراء، لقد كانت الحياة الجميلة تطل في كل مكان. قال جدان بلطف «هذا هو وقتها» عندما أغرى مهراً بالاقتراب منه.

ومع ذلك اعتذر القوال وغادرنا إلى ابنه، مسرعاً ومعه طنبوره إلى القبور قرب بحزاني، حيث رأيناه مع قوال آخر. توقفنا قربها في طريق عودتنا لنستمع إلى النغمة الصغيرة الحزينة التي كانا يعزفانها على الموتى، جاءت بعض النساء اللواتي كن يضربن صدورهن ووجوههن في اللحظة السابقة نحونا ومعهن طعام من التقدمات الموجودة على القبور. دعونا قائلات: «كُلا! كُلا» وقدما لنا بعض القمح المطحون والخبز واللحم.

كان بعض الغجر يجلسون في مجموعة عابسة بين النائحات،

يتسولون بعض تقدمات القبور، وقذفوا ببعض منها إلى دبهم الذي كان يتدحرج ويتهادى متراخياً بين القبور. رفضت بعض النسوة النائحات أن يعطينهم المزيد بسخط، وانتقاماً من هذا، بدأت بعض النساء الغجريات ـ وكانت واحدة جميلة منهن (أو اثنتين)، لكن وسختين وداكنتين وقد تدلى الشعر فوق عيونهما ـ تسخران منهن تضربان وجهيهما وصدريهما، بحيث إن النسوة اليزيديات انطلقن نحوهما بغضب، فانتقلتا من مكانيهما، والدب يجري خلفهما متثاقلاً، يجرّ خلفه سلسلته.

كان للموتى أيضاً عيدهم. لم يوضع الطعام على القبور وحسب، بل كانت أزهار قرمزية قد طُيِّنت على شواهد القبور. قبّلت النسوة هذه الشواهد وبكت. مزقت بعضهنّ شعورهن بأظافرهن وبدأن ينشجن، بينما كانت نسوة أخريات ينشدن. كان الجميع كهولاً أو كباراً في السن: لأنه لم يكن من المتوقع مجيء الفتيات إلى القبور. أشار أحد الصبية إلى عدة قبور لرجال اغتيلوا. قال وهو يشير إلى أحدهم. «لقد قتل الخارجون على القانون هذا الرجل. التقوا به في التلال وأنزلوه عن حصانه وطعنوه».

في بيت رشيد توقفنا لنرد الزيارة إلى والده صديق، لكن هذا الرجل العجوز كان لا يزال نائماً بعد الرحلة، لكن زائراً من بغداد جاء ليحيينا من الحديقة: كان أخا ميرا ونسه في طريقه إلى سنجار. قال إن أخته قد تعبت من الجنوب وستعود إلى شعبها قريباً.

وعندما وصلنا إلى بيتنا الصغير، وجدنا القوال ريشو هناك يتحدث إلى جدان. وعندما كنت أقدم الشاي، أخبرتهما أنه يقال إن ونسه عائده إلى الجبال، وأضفت: «لكنني أخشى أن تكون من خطر هناك».

دهشت لإجابتهما. قال الاثنان بقسوة : فلتمت !نحن لا نقبل أن تذهب امرأة يزيدية إلى بغداد، وحلب والمدن الأخرى وترى الغرباء، فلتمت : سيكون ذلك أمراً جيداً».

جادلتهما وسألت عن الجريمة التي اقترفتها حتى تموت. قلت لأحدهما : «أنت بنفسك أخبرتني، أن سعيد بيك، زوجها، هدّد حياتها وأنهما لم يكونا سعيدين معاً. هل تلومانها إذن على تركه؟».

أجاب القوال بسرعة : «كان يجب ألا تتركه. كانت زوجته ولها غرفتها الخاصة، وثيابها وكل ما تريد».

قال جدان : «إنه أميرنا». وأنهى ذلك الكلام الموضوع إلى هذا الحد. أخبرني القوال كيف أن سعيد بيك كان قد قتل زوجة أخرى. «جاءوا وقالوا له إن زوجته مريم قد عشقت غلاماً (عبداً أبيض). لم يفعل شيئاً. انتظروا. كانت في أحد الأيام جالسة تتحدث إلى الغلام، بين الأعشاب الطويلة والشجيرات. شاهدوهما : ذهبوا وأخبروا سعيد بيك قائلين : «مريم الآن مع الغلام بين الأعشاب الطويلة». هنا أخذ أميرنا مسدسه وجاء وأطلق النار عليها ثلاث مرات ببطنها لكن الرجل هرب. كانت تنزف وكانت يداها ممزقتين، وجرّوها إلى القلعة، وكانت لا تزال حية وهنا خلّصوا عليها بخنجر. وبعد ذلك ذهب سعيد بيك في إثر الرجل، وعندما وجده أطلق النار عليه أيضاً».

وبينما كنا نتناول الغداء، وصلت عائشة وطفلها، وجلبت لنا البرغل واللحم من بيت الشيخة. ذكرت حماتها. قالت متنهدة : «تكرهني» : لا أريد أن أرى وجهك! زوجك قتل ابنتي!».

ثم ندبت وحدتها في ذلك البيت المأساوي. أخبرت أ. قائلة :

«أنا يتيمة ولست من القرية : بيتي بعيد وليس هناك من أقاربي أحد بالقرب مني سوى أخت متزوجة في بحزاني. زوجي في السجن ولم يبقَ لي أحد سوى هذا ـ» وبقولها هذا رفعته وقبلته. جلسا معاً على الأرض بينما أنهينا وجبتنا، والطفل يزحف ويضحك ويوسخ الأرض، وأحياناً يطلب ثدي أمه الذي لم يمنع عنه أبداً.

شعرتُ بالتعب وغادرتُ. أبهجتها أ. بأن سمحت لها أن ترى غرفتها، وثوبها المنزلي وثياب نومها وأشياء زينتها. قالت عائشة وهي ترفع المشط: «عندك هذا، لماذا إذن تحتاجين هذه؟» وهي تمسك بفرشاة الشعر.

دعانا القوال ريشو لتناول الشاي، وكان قد أعطانا توجيهات كيف نصل إلى بيته. لكن عندما وصلنا، كان لا يزال خارجه ومعه طنبوره يقوم بزيارة القبور : لكن زوجته وضعت لنا فَرشات ووسائد على الأرض المكنوسة جيداً. كان البيت يتألف من غرفتين وكان هناك موقد في غرفة المعيشة حيث كان يعيش وينام وزوجته وأطفاله وجروَه السمين. والغرفة الأخرى التي يتم الوصول إليها عبر مدخل دون باب، كانت مخصصة للديكة والدجاجات. بعد فترة قصيرة عاد وانطلق يقوم بواجبات الضيف على نحو بهيج، يتحدث عن فترات رحلاته، وخبراته مع الانكليز. سخن الماء لتحضير الشاي على موقد بريموس لمّعه حتى أصبح يبرق كالشمس، ولم يكن أبريقه أقل لمعاناً قال بفخر مبرر: استخدم مستحضر براسو. اعتدنا أن نلمع به عندما كنت في الجندية».

كان المزيد من الزوار ينتظروننا عندما عدنا. كان رشيد ووالده هناك ومعهم هدية من البيض المتعدد الألوان والكليشة (فطائر العيد المحشوة) وصحن كبير من التين المجفف من أرضهم في سنجار.

أخبرْنا رشيداً كم كنا مسرورين في ذلك الصباح لرؤية خلية النحل المزخرفة، وذكرت له أننا في انكلترا كنا نستخدم في السابق سلالاً لخلايا نحلنا، لكننا الآن نستخدم خلايا خشبية ذات أجزاء منفصلة. لمعت عيناه فوراً كما كانت تفعل عندما كان يسمع عن أي شيء عملي وجيد. قال لي يوماً «سيدتي! إنك تسألينا كثيراً من الأسئلة: ماذا تفعلون في هذا وذاك، والآن نحن نريد أن نسألك كثيراً من الأسئلة: ماذا تفعلون في بلادكم في هذا وذاك، نريد أن نتعلم». كان يريد أن يعرف كل شيء حول هذه الطريقة الحديثة لإيواء الدبَاس (dabbas) ـ كما كانوا يسمون النحلة هنا ـ والكلمة تعني «صانع العسل». كيف كانت هذه الخلية تصنع؟ وكيف كانت الأجزاء تُركّب معاً وتفكّ؟ وعندما نعود، هل يمكننا أن نرسل له صورة ونخبره بالضبط كيف كان شكلها، بحيث يستطيع البدء بهذه الطريقة الأفضل لتربية النحل هنا في بعشيقا. وَفَينا بوعدنا قدر المستطاع. أرسلت أ. كتاباً عن تربية النحل اعتقاداً منها أن أخاه سيستطيع قراءته وترجمته له: تحدثت مع سلطات التربية والتعليم في بغداد واتصلت بوزارة الزراعة وطلبت منهم إرسال خلية عيِّنة. غادرت بغداد قبل أن أسمع أنهم فعلوا ذلك. لكن مسؤولاً كبيراً في التربية أكّد لي أنه سوف يستعجل الأمر. آمل أن يكون قد فعل ذلك.

غادرونا وكنت على وشك تدبير أمر الرسائل عندما وصل ثلاثة معلمين لزيارتنا فجلبنا لهم الشاي الطازج. كانوا جادين في زيارتهم وتحدثوا بحماسة، بالرغم من أنه كانت تنقصهم الأفكار الأصلية حول الموضوع وألقوا أمامنا التفاهات التي كانوا قد تعلموها: ليس من المطلوب من معلم المدرسة أن يفكّر على نحو مستقل. لكنهم كانوا يقومون بعمل جيد على ما أظن.

عندما غادرونا في وقت متأخر، تناولتُ عشائي مع أ. ثم هربنا إلى السطح وشربنا في الهواء النقي الطلق مشروبات من كل النبات العطرية الزكية الرائحة. كان القمر مغطى بالضباب، لكن كوكب الزهرة كان يبحر بحريّة في السماء. وهكذا بعد أن حرر الامتدادُ الواسعُ من التلال الصامتة - التي أغرقها القمر بمسحة من الجمال - عقولَنا من النظريات التعليمية، خلدنا إلى النوم ونحن نعلم أن الماء يُسخَّن في كل بيت يزيدي في تلك الليلة. لأنه بعد التضحية الكبرى بالخرفان والجديان، يحدث الغسل الكبير الذي ليس هو إلا التطهر المألوف في عيد الربيع. وفي كل مكان وفي كل بيت كان اليزيديون يطهرون أجسامهم من الرأس إلى القدمين تحضيراً للغد. الحداد، التضحية، رموز الانبعاث والتطهير بالماء - كل تلك خيوط قديمة كانت حاضرة في نموذج عرفته جيداً.

## الفصل الثالث عشر

# العيد: اليوم الثاني

«اختر معي أن تذهب للرعي معي لحلب القطعان،
ولصب منفحة الجبن الحادة، ولتهيئة الأجبان...».

ثيوكريتوس/الأنشودة الرعوية XI

أثناء الليل هبت عواصف رعدية وهطل مطر غزير، وعندما نهضنا وجدنا قمم الجبال قد حجبتها الغيوم، والسماء رمادية لا شمس فيها. وبينما كنا جالسين على طاولة الفطور وصلت امرأة ومعها صحن من اللبن الرائب ـ لبن الغنم الجيد. لم نرها، لكن ميخائيل قال إنها جلبته من بيت شماس الكنيسة. كان هناك شماسان من اليعاقبة، وبعد قليل سألنا جيراننا من أي شماس يمكن أن يكون. قالوا بعد تفكير «لا يمكن أن يكون الشماس أيوب، لأنه لا يملك أي غنم، لا بد أنه الشماس حنا».

قصدنا بيت الشماس حنا الذي رحب بنا بحرارة عند باب الباحة، وفي الداخل وُضع مقعد لأجلنا على المصطبة المرتفعة، التي جلست عليها سيدة البيت، وبعض كناتها وأولادهن. كانت

هذه السيدة منهمكة في خياطة قطعة حريرية خضراء لامعة تركبها على أطراف وسائد محشوة بإحكام. هذه الوسائد - القاسية والصلبة - كانت تستخدم إما وسائد للرأس في الفراش، أو كمساند عند الجلوس على الأرض أثناء النهار. يغطي الحرير الأطراف، وتُرّكب على الوسط قطعة من كتان أبيض يمكن نزعها وغسلها.

كان البيت واسعاً وكانت عائلات الأبناء المتزوجين العديدة تعيش في الدار المسوَّر. لم يكن بيتاً جليلاً فحسب، بل كان قرية بحد ذاته، كما قالت أ. ، ففيه كانت تحدث نشاطات مختلفة من طحن وصنع صابون، وعصر زيتون، وخَبز، والخ. . .في مختلف الغرف، تحت الأرض أو فوقها. كان للأغنام والماعز والحمير مساكنها تحت مستوى سطح الأرض، وتحت الأرض أيضاً كانت هناك صناديق التخزين الترابية العالية، المستطيلة الشكل وعليها زخرفة من شريط ترابي حول قممها. كان يُخزَّن فيها القمح والعدس والفول والتين والحبوب من مختلف الأنواع. كانت هناك طاحون لطحن السمسم تشترك معها في الغرفة تحت الأرضية، وكان السمسم يسحق مسبقاً في الباحة المكشوفة فوق بالدقاقة (وهي اسطوانة) حجرية مربوطة إلى مركز وتد على مصطبة مرفوعة. هناك قضيب طويل من المركز مربوط إلى بغل أو حمار يدور ويدور حولها حتى تصبح البذور جاهزة. كانت طاحون السمسم تحت تتألف ببساطة من حجرَي طحن أسودين مستديرين منقَّرين وكانا يبدوان كأنهما صنعا من مقذوفات البراكين. والطاحون تدعى بأسماء مختلفة : الرحى، أو المدار أو الجغارة. وبعد ذلك يُحمَّص السمسم قليلاً ويصبح كثيفاً وزيتياً. إذا مزج مع العسل أو شراب الفاكهة فإنه يستعمل كمربى، يوضع على خبز رقيق.

إذا كانت هناك حاجة لزيت السمسم فإنهم يصبون الماء على البذور المسحوقة لفصل العناصر الثقيلة عن الزيت الذي يطفو على السطح. والراسب (تِلف) يباع أو يستعمل في عدد من الأطباق. على سبيل المثال، يمكن تحضيره مع الزبيب كنوع من الحلوى.

في الغرف العلوية هناك مؤن مخزونة: أجبان من صنع البيت، قوارير ضيقة العنق تُملأ بالفواكه والتمور والجوز والعدس المجفف وأشياء أخرى جيدة، صفائح بترول تحتوي على الزيت وأكوام من صابون زيت الزيتون المعتق. كان الصابون من نوعين: واحد يستعمل في التنظيف وللثياب، والآخر لأغراض أكثر خشونة. كانت أوراق الكرمة المجففة والمثبتة بخيطان، معلقة على الجدران: كانت هذه تستعمل لأجل الدولما[1]. وكان القمح يسحق في الطاحون في الساحة لصنع البرغل[2]، الذي يؤكل مثل الأرز مع اللحم أو يخلط في نوع من الثريد. مقابل غرف المعيشة كان هناك الفرن (التنور)، ذهبنا إليه لنرى النسوة يصنعن ويخبزن الكليشة للعيد. وهي تبدو مثل الفطائر المحشوة ولها المذاق نفسه. والحشوة تصنع من التمر والزبيب والجوز والسكر والفلفل والكبابا والقرفة وزبدة الطبخ[3]. كانت العجينة السميكة تُطوى حول المزيج، وتغطس النساء أيديهن العارية في صحن من البيض الموضوع أمامهن ثم يدلكن صفار البيض على الفطائر لجعل القشرة الخارجية صفراء. والبيض يفيد أيضاً في لصق الكعك على

---

(1) قطع كفتة صغيرة؛ أوراق الكرمة والباذنجان والخيار الصغير تحشى بالأرز مع اللحم والبهارات.

(2) العيشة.

(3) الدهن.

جدران الفرن. وهو شيء ترابي مقعر يسخن مسبقاً بحرق القش الممزوج بالروث. نظرنا إلى داخله ورأينا الكليشة نصف المشوية ملتصقة بالحائط.

سألتهن كيف يصنعن الخبز.

قلن: «غالباً ما يكون من القمح ودون خميرة. نضيف بعض الملح والقليل من دقيق السمسم». يمزج العجين ويدحرج على طاولة حجرية مستديرة ناعمة (الفرشا) تستند على ثلاث أقدام حجرية (كراسي). عرض هذه الطاولة الحجرية قدم ونصف. والأسطوانة الخشبية، وهي لا تختلف عن مرقاق العجين الذي نستعمله، تدعى الشوبك. بعد أن يدحرج العجين ليصبح رقيقاً، يكمل تشكيل الخبز قضيب طويل سميك يدعى «نشابي». يرفع العجين بعناية، لأنه يكون رقيقاً كالورق، ويوضع على وسادة من جلد، وبهذه الوسادة يقذف ببراعة على جدار التنور. وتكون النتيجة الخبز المحلي أو كاك، والكلمة الكردية: «نان». الخبز أبيض لذيذ الطعم، ويمكن طيّه بسهولة. يلفّ الناس اللحم فيه ليقوا أصابعهم من الدهن، ويستخدمونه كملعقة أو مغرفة أيضاً.

وفي أثناء تطفلنا على الأسرار البيتية استهلكنا العديد من كؤوس الشاي الحلو، وأكلنا بعض الخبز المغموس بالسمسم، ودخنا السجائر مع مضيفنا، وكذلك أهدينا الخرزات الواقية من العين الشريرة والشوكولاته للأطفال. ثم أخذنا طريقنا، تتبعنا الوداعات الحارة والابتسامات.

جلست هنيهة على سطحنا الذي كان يطل على فناء دار بيت الجيران. كان حوالي خمسة أو ستة أطفال من مختلف الأعمار من الرضيع الذين يزحفون على أربع، على الوسخ والزبالة وأشياء

أخرى مبعثرة، يتقاسمون الساحة مع الديكة والدجاجات وحمار أبيض وسخ زال بعض شعره، وعدة كلاب كبيرة مشعثة تهرش على نحو مستمر بسبب القراد والبراغيث. كانت الباحة تحتوي غرفة مكتملة البناء وكومة من الحجارة وحفرة. كانت هناك ثلاث أو أربع غرف معيشة تنفتح عليها؛ وكان درج حجري يؤدي إلى السطح وغرفة الاستقبال.

بعد برهة وصل حمار آخر، على ظهره أباريق ماء رطبة يتدلى اثنان على كل من جانبيه، تقوده عذراء حافية القدمين. كانت ترتدي تنورة قطنية زرقاء، وسترة فضفاضة حمراء خبا لونها، ولباس الرأس المعتاد: العمامة ذات المناديل والقطع النقدية. كانت ضفائرها التي طولتها بصوف أسود مثبتة بذيول فضية وكانت ترتدي عقداً ضخماً من خرز كهرماني اللون.

مسّحت الأم مرة وسخ طفلها لتنظفه بردائها المتسخ، وطوت ثيابه فوق رأسه لتفعل ذلك، ثم صبت قليلاً من الماء من إحدى الجرار على الرداء المذكور، دلكته قليلاً ووضعته مع الثياب الأخرى المنشورة لتجف على كومة من الحجارة. نزل الماء الوسخ إلى الأرض التي كانت الحظيرة النقالة لطفلها، لكن ذلك لم يقلقها كما لم يقلقها سرب الذباب. كانت الفرش والبطانيات تنشر على سطح المصطبة، وكان كلب نائم يستلقي معها في الشمس غير المستمرة. كان بعض الأولاد السود أحياناً يظهرون فجأة، ويثبون مرحاً على الدرجات أو يقفزون في الباحة. كانت خلف هذا كله التلال الخضراء التي تفوح بروائح ألف عشبة، وفي صمت الظهيرة كانت تُسمع موسيقى غير متساوقة مع آلة المصفار الموسيقية.

وفي فترة بعد الظهر كانت الشمس قد ارتفعت، ودعونا إلى بيت الرقيب الكردي في الشرطة، قرب مدخل القرية والساحة حيث كانت المقامرة على البيض الملون لا تزال مستمرة.

خرجت زوجته، وهي سيدة ترتدي سترة مخملية أرجوانية، تستقبلنا بكلمات الترحيب، وبسمة الحفاوة تنير وجهها الجميل، وأخذتنا إلى غرفة استقبالهم، النظيفة والمرتبة جيداً. كانت على الجدران زخارف مصنوعة من أوراق تغليف السجائر المطوية والمتعددة الألوان. كنت قد أشرت إلى هذا النوع من الزخرفة البيتية في مكان سابق، وكانت هناك أيضاً صور في أطر. كانت هناك الصورة الملونة المعتادة للكعبة، لأن مضيفنا كان مسلماً، كما كانت هناك رسوم مفعمة بالحيوية للمحارب عنتر والملك الحكيم سليمان. كان عنتر ـ المحارب الأسود ـ يشق رأس فارس عدو كانت تنبجس من جمجمته نقاط كبيرة من الدم، وكان السيف قد شقّ الرأس حتى فمه. كان على وجه الضحية تعبير كئيب، لكنه كان لا يزال ممتطياً ظهر جواده. وراء السيّاف كانت فتاة ـ ربما عبلة ـ تجلس في هودج على ناقتها تمد غصناً ـ ربما من غار النصر ـ نحو بطلها. كانت الصورة الأخرى تبدو وكأنها بريشة الفنان نفسه. كانت تُظهر سليمان على عرشه، وحاشيته حوله، ومجموعة من الحيوانات تقف أمامه: ربما، لأنه يقال إنه كان يفهم لغتها، كان يصغي إلى ما تقول. كان هدهد يحوم قرب رأسه، وإلى يسار المجموعة وقف جني طويل يبحث من قرونه وحافره وذنبه عن كل العالم يشبه الشخصية البارزة التي لا يتفوه اليزيديون باسمها. كان في الغرفة أيضاً صور الرقيب وأطفاله، ولكن لم تكن هناك أي صورة لزوجته الجميلة. عرضت عليها أن

آخذ لها صورة، لكنها رفضت بأدب؛ قائلة: ليس ذلك من عادة الأكراد.

خيّمت الكآبة على أهل البيت بالرغم من ابتسامات مضيفنا، لأن الرقيب كان يحمل رتبة مؤقتة،وفي ذلك اليوم بالذات، دون أي ذنب ـ حرم من شريطة من رتبته. يبدو أن الأمر كان مسألة دفع مال. جاء أمر من بغداد أن عدد من يحملون رتباً مؤقتة يجب تخفيضه ولم يكن هذا الرقيب وحيداً في خيبته.

* * *

كانت المقامرة على البيض لا تزال مستمرة في الساحة. وحوالي المساء تجولنا نحو الأرض المحرمة: مزار الشيخ محمد. كان الباب مفتوحاً وكان فناء الدار الأخضر والمزار خلفه يبدوان مغريين. تريثنا عند العتبة ونظرنا إلى الداخل. كان الرجال مصطفين هنا وهناك في الباحة المربعة، جالسين وظهورهم إلى الجدار، وعندما رأونا عند الباب صاحوا لنا بحسن الضيافة: «ادخلا، ادخلا». تقدم الكوتشك العجوز في ثوبه الأبيض ليحيينا بأقصى كياسة وهو يبتسم برقة. كان يتنقل معنا كمضيف للمكان. كان جزء من الباحة في الظل لكن شمس المساء غمرت الجزء المجاور للجدار المنخفض الذي يفصل الأمكنة المرصوفة والمرجة عن حديقة المزار، ذات أشجار الزيتون والتين في أوراقها الحديثة.

طلبوا إلينا الجلوس، فجلسنا على حصيرة من اللباد قرب المختار، الذي كان قد تجمع مع كبار اليزيديين الآخرين ووجهائهم هنا من أجل سهر الليل عشية العيد. جلب لنا أحد القوالين القهوة، قليلاً من القهوة المعتادة المرة عند أسفل فنجان

لا مقبض له. أثناء التقديم يقضي العرف بحمل الفناجين وقد وُضع الفنجان داخل الآخر في يد، وإناء القهوة النحاسي (الدلة) في اليد الأخرى.

هنا جلسنا في المكان المحرم في الساعة المحرمة ولم يقل لنا أحد «لا». سجلتُ ملاحظاتي عن كل ما حولي. كان سحر وهدوء المكان يفوقان الوصف. على العشب الأخضر في وسط الباحة كانت تنتصب جرة فخارية في محمل خشبي، وقارورتان بجانبها وكان هناك كأس لاستخراج الماء البارد. وكذلك، كان هناك عمود حديدي يحمل مصباحاً حديدياً يحتل مكانه على العشب على الجانب الآخر من الممر المرصوف الذي يؤدي مباشرةً من المدخل إلى باب المزار. كان هذا المصباح من نموذج المصابيح الموجودة في معبد الشيخ عدي، أي إنه كان صحناً مربعاً فارغاً له أربع حواف وُضع في كل منها فتيلة طويلة. سألت رشيداً إن كان لهذا الشكل المحدد معنى، وبعد قليل من التردد أقرّ أن له معنى. قال إنه يمثل «زوايا الأرض الأربع، الشمال والجنوب والشرق والغرب وطريق الشمس».

أثارت أجوبته اهتمامي، لأن الزرادشتيين الهنود (Parsees)، عندما يرسمون إشارة الصليب لأطعمتهم المقدسة، يعطون الشرح نفسه والكاهن النسطوري عندما يرسم علامة الصليب فوق القرابين المقدسة (الخبز المقدس) يتمتم «من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب». في الواقع كان ذلك برهاناً ضئيلاً آخر على أن الصليبَ في الطقوس رمزٌ للشمس بكل معنى الكلمة.

كان العشب ينمو على كلا جانبي الممشى الأوسط، كما في ساحة معهد رباعية الزوايا، لكن المكان المرصوف كان يدور حول

الباحة، وفوق هذه كانت الحصر قد نُشرت للرجال الذين جلسوا على جوانب الجدران. كان هؤلاء يرتدون عمائم حمراء وأحزمة متعددة الألوان، والثياب كانت في معظمها بيضاء وشرقية بالكامل، في الواقع كنا وجدان: هو في بزته ونحن في ثيابنا الغربية، المتطفلين الوحيدين من العراق الحديث والقرن العشرين.

دخلنا الغرفة الأمامية في الضريح، بعد أن خلعنا أحذيتنا، ووضعنا تقدمة، لكننا لم نحاول أن ندخل الغرفة الداخلية لئلا نؤذي مشاعرهم، بالرغم من أنهم لم يبدوا أقل اعتراض. لكن كان من السهل أن نسترق النظر إلى الداخل، وكان الناووس الحجري المقدس في الداخل يشبه أي ضريح لأي قديس مسلم. كان مغطى بأقمشة حريرية خضراء وحمراء. في الغرفة الأمامية كانت مصابيح زيت الزيتون المقدس موضوعة في أرجاء الأرضية. وكان واحد أو اثنان منهما مطليين بالفضة وفيهما أخاديد للفتيل. والمصابيح الأخرى كانت جميعها من النوع اليزيدي ذي الفتيلات الأربع. كان المدخل إلى المزار مبنياً من رخام موصلي رمادي اللون، وعليه كتابة عربية تقول إن صديقَ بن رشيد ـ أي والد رشيد ـ المسمى باسم جده ـ كان قد أعاد بناء المزار بورع. كنا حذرين عند الدخول والمغادرة ألا نلمس بأقدامنا حجر العتبة، الذي كان عالياً وعريضاً كما هو في كل المزارات اليزيدية ـ لأن لمسه قد يعتبر تلويثاً.

عُدنا إلى مقاعدنا قرب المختار، وكانت بجانبنا حجرة متصلة بالباحة حيث جلست نسوة شغلن أنفسهن لاحقاً بتحضير الطعام. كان على وجه الكوتشك ـ وهو رئيس الجميع ـ ملامح الهدوء والسعادة: كان هذا يوم أيامه في السنة لأن الضريح في عهدته على نحو دائم وكان الجميع ضيوفه.

كان اليزيديون يَصلون باستمرار، وأثناء دخولهم لم يكونوا ينظرون لا إلى الشمال أو اليمين، بل كانوا يسيرون مباشرةً صاعدين الطريق المرصوفة إلى المزار. وفي منتصف الطريق كانوا يلمسون الصدر بكلتا اليدين، ويحركون أيديهم إلى الأعلى بحركة لطيفة، ثم ينزلونها إلى الأسفل بضربات قوية على جانبي الوجه واللحية. وعند مدخل المزار، طأطأوا رؤوسهم وانحنوا وركعوا وقبّلوا العتبة الحجرية وكلا عضادتي الباب وكذلك الحجارة بجانب وداخل المدخل، ثم دخلوا. وعند الخروج قبّلوا الجدار عن يمين المزار، في كوة كان أحد المصابيح يشتعل فيها.

وبعد ذلك بقليل حدثت ضجة بسيطة قرب المدخل الخارجي ودخل موكب صغير وتحرك بصمت إلى الأمام، بينما هبّ جميع من كانوا موجودين واقفين. كان هذا الموكب يرأسه الكوتشك، يبدو مثل النبي إيليا، وقوال ومعه طنبور كبير وآخر معه ناي، وكان يتألف من رجل وامرأتين، تحمل إحداهما طفلاً على ذراعيها. على الأقل كان هذا ما ثبت أنه الشيء الغامض المقنّع بقماش حريري أخضر عندما خرجوا جميعاً من المزار، حيث تركوا الحرير الأخضر على الضريح. شرح المختار أن الطفل كان مريضاً وأنه نذر الحرير الأخضر للشيخ محمد إذا شفي. كنا قد رأينا للتو تحقيق النذر، وفي صباح الغد يصعد رجل إلى البرج المستدق المحزز ويثبت القماش الحريري الأخضر على الكرة الذهبية عند القمة بحيث يعرف كل العالم رأفة القديس. حالما انقضى الموكب جلسنا جميعاً من جديد. كان أشخاص آخرون يَصلون بين الحين والآخر ومعهم تقدمات منذورة للمزار، وكلما كان يحدث هذا، كان يجري الدخول الاحتفالي ثم وقوف الجميع. في إحدى

المرات كان رجل عجوز يتشبث بمخروط من السكر في غلافه التجاري الأزرق. كان هذا لتحلية الشاي يوزع بسخاء في المكان المقدس.

ومن وقت لآخر كانت القهوة تحضر وتوزع للجالسين عند الجدران، ونحن من بينهم. بعد فترة حدثت ضجة أخرى: أُحضرت أشياء كبيرة مغلفة في قماش بني وأعطيت للقوالين الجالسين في الزاوية الجنوبية من فناء الدار، ومن جديد نهض الجميع احتراماً للأشياء المقدسة. أشعلت الكوانين(*) بقرب القوالين ثم أخذوا من الصناديق البنية الطنابير الضخمة الخاصة بمهماتهم، وسخنوها على كوانين النار كي تتقسَّى جلودها. كان هناك ثلاثة قوالين: وكل يحمل طنبوره، وقوالان أصغر معهما مزماران.

عدنا إلى أماكننا من جديد وبدأ القوالون عندئذ ينشدون على أنغام الطنابير والمزامير. كانت النغمة مختلفة جداً عن تلك التي سمعناها عند القبور. كانت أقل شعبية، وكان من الصعب تتبعها من حيث الإيقاع والموضوع. كان القوال الكبير يقود ضرب الطنابير التي لم تكن تبقى دائماً هادئة، لكن من إشارة غير منظورة من القائد كانت ترتفع أو تقذف إلى الأمام أو إلى الجانبين. كما لو أنه بدافع متسق، مثل انعطاف طيران الطيور، تبقى دائماً معاً على نحو دقيق.

كان الإنشاد خفيضاً وبالسلم الموسيقي الكبير، كان كل الموجودين يستمعون بوجوه مهتمة موقرة، وفي الصلاة باللغة

(*) جمع كانون النار. (المراجع).

الكردية التي تلت الإنشاد سمعنا اسم «الشيخ عدي». أثناء الصلاة لم ينهض الرجال الموجودون في الفناء، بل جلسوا وأيديهم مفتوحة موضوعة على ركبهم، راحات أكفهم إلى الأعلى، وأنهوا صلاتهم بِمَسْحِ وجوههم كما يفعل المسلمون عندما يتلون الفاتحة. عندما انتهت الصلاة هبّ الجميع واقفين برهة ثم جلسوا من جديد. تلا ذلك أنشودة أخرى، أكثر ارتفاعاً من الأولى وأكثر قوة في درجتها. وهنا أسجل ملاحظات أ. عنها:

«كان إيقاع الطبول الكردية في الأنشودة الثانية في المقياس الثامن، مرخماً (مؤخر النبرة) قليلاً. تكرر أحد المقاطع الموسيقية ست عشرة أو عشرين مرة: 1، 2، 3، 4 و5، 6 و7 و8 مربوطة معاً (نغمة واحدة إلى أربع ضربات). يعني ♩♩‿♩-♩♩♩♩ - وبعد ذلك تغيرت إلى لازمة مكررة أربع مرات: ♩♩♩♩♩♩♩♩> مع التشديد على الضربة الأولى، والجميع أسرع بقليل من المقطع الأول وتتسارع باستمرار حتى التصاعد (التحطم) الأخير. ظهر هذا كمقطع شعري واحد. كان هناك أربعة أو خمسة مقاطع شعرية؛ بعدها يتغير الإيقاع فجأة إلى ـ 1 وـ2، وـ 1 وـ 2، يعني: ♩-♩-♩-♩- ثم بعد ذلك انعكست فجأة إلى ♩♩♩♩♩♩♩♩> مكررة أربع مرات وتصبح أسرع وأعلى حتى تنتهي بالتصاعد الأخير الأكبر من الجميع. كان يترافق هذا مع اللحن المرافق من الصافرة يُعزف على مزمارين كالصافرة لكن أكبر، وكذلك إنشاد خافت من القوالين باللغة الكردية».

أضافت إلى وصفها أن حركة الطنابير قد نُفّذت بحماسة وعلى نجو مفاجئ. أولاً التلويح إلى الأعلى ثم القفزة للأمام يرافقهما

تطبيل أشد بالأصابع يجب أن يكون قوياً جداً لإحداث نغمة مرتفعة جداً. والتصاعد الأخير المزامن للخشخشة المجاورة التي أدخلت على حواف الرق (الدف الصغير)، أضاف عاطفةً وحماسة للموسيقى التي يصعب إيصالها بأي خيال.

كانت الشمس تغيب، وطيور السنونو تحوم إلى الأمام والخلف تصطاد ذبابات المساء. علاوة على ذلك استطعنا أن نسمع زقزقة طيور الوروار القلقة ـ وهي إشارة أكيدة على حلول الربيع ـ ولم نكن قد رأينا أياً من هذه الطيور الجميلة حتى ذلك الصباح بالذات. عند الغسق، نهض الكوتشك العجوز، وقوراً في حلته البيضاء، وصبّ زيت الزيتون في مصباح العمود على العشب، ثم أشعله بقطعة من خشب تحترق، بعد أن نظم الفتائل الأربع بعناية في أخاديدها، كانت أعمالاً كهنوتية ووقورة. لقد كان قداساً كهنوتياً.

أخبرنا رشيد الذي جاء ليجلس بجانبنا، أن الزيت قد عصر من الزيتون في الفناء، وأشار إلى حديقة المزار وراء الباحة، وكان يحيط بالجميع جدار خارجي. بدأنا نتساءل إن كنا سنبقى. لم نكن نريد أن نفرض أنفسنا، قلت لرشيد إن احتفالات الليل ستبدأ، لأن الشمس قد غابت، فاعتذرنا للانصراف. ألقى حديثاً قصيراً علينا، بحيث يستطيع الجميع أن يسمعوا. قال إن الصلوات التي جرت الليلة كانت صلواتٍ وإنشاداً، كتلك التي سمعناها، والتي لم تكن لشخص غير يزيدي ميزة سماعها في هذا المكان المقدس من قبل. وتابع يقول لم يسمح يزيدو بعشيقا سابقاً لأي شخص بالدخول إلى مزارهم في هذا المساء، ولن يفعلوا ذلك ثانيةً. لقد دعونا للدخول ليظهروا لنا تكريماً خاصاً، وليعبروا لنا عن تقديرهم

لحضورنا وصداقتنا. كان ذلك ردّاً منهم ولو كنا رجالاً، لما كانوا سمحوا لنا بالدخول، لكن لأننا امرأتين وصديقتين يرحبون بنا كي نبقى. لكن طلبوا إلينا ألا نخبر الآخرين أنا كنا حاضرين، لئلا يطالبونا بحق الدخول وذلك لحصول سابقة لهذا الأمر.

أجبنا أننا قد تأثرنا تأثراً عميقاً وحقيقياً بالتكريم الذي أظهروه لنا، وأننا لن ننسى ذلك. ولن نذيع في الخارج الميزة التي أتيحت لنا. قد يبدو لمن يقرؤون هذا الكلام، أن هذا الفصل بالذات مخالفة لوعدنا، لكنني أظن أن الوعد المقطوع يقصد الناس في المنطقة المجاورة، وليس العالم بصورة عامة، ونحن لم نقل شيئاً لهؤلاء. لذلك أكتب هذا اعتقاداً مني أنه لا يستطيع أحد أن يفرض نفسه دون دعوة على هؤلاء الناس ذوي اللطف والكياسة، أو يزعجهم بالإلحاح عليهم لإعطاء امتيازات لن يعطوها إلا من تلقاء نفسهم. إنني أعمل بنظام الانتظار حتى أُدعى بحرية لدخول الأبواب المغلقة، وهي الطريقة الأكثر حكمة وجدوى للحصول على معلومات، على ما أعتقد.

بعد أن جلس رشيد واثقاً بجانبنا، أشار إلى شاهدة قبر في البقعة المرصوفة وأخبرني أنها لأخيه الأكبر المدفون هناك، والذي اغتاله الضباط الأتراك بخسة قبل انسحابهم بقليل أثناء الحرب الأخيرة. كان وقتها في حديقة قرب تل بيلا، تخص العائلة. جاء الأتراك ليلاً وبعد أن قرعوا على البوابة طلبوا حسن الضيافة التي منحناها لهم. «استقبلهم عمي، ثم سألوه عن اسم أخي. فأخذهم عمي إلى المكان الذي كان يستلقي فيه نائماً، أفرغوا مسدساتهم في جسده وهو نائم. قبل أن يعرف بغدرهم. والله، لقد رأيت أمي، وكم تبدو مريضة وضعيفة. تعود شيخوختها إلى ذلك

التاريخ. أمضينا خمس سنوات نبكي ولا نكاد نأكل. كان أخي أفضلنا جميعاً، ومنذ ذلك التاريخ لم يعد أبي كما كان من قبل».

حدثت في الخارج ضجة وهمهمة، وأخبرونا أن «بابا شيخ» ـ وهو الرئيس الديني لجميع اليزيديين ـ قد وصل. وقف الجميع، وغنت النساء بارتعاش «بهلاهلهن» الحادة، ودخلت قافلة من الناس. بابا شيخ هذا رجل طويل كبير السن ومنتصب القامة؛ يرتدي عمامته العالية البيضاء التي تصل في أسفلها حتى فوق عينيه. كان يرتدي الثياب البيضاء بالكامل ونطاقاً أسود حول خصره: كانت عباءته البيضاء من قماش أبيض من حياكة محلية. وعلى بعد خطوة وراءه كان يسير ابنه، رجل كهل ذو بشرة داكنة. لمحتهُ عيني لحظة قرب يزيدي علماني ذي خصلة مشعثة من الشعر الأشقر بلون وردي تبرز من تحت قبعته وله شارب طويل يذكرني بلوحة فيها إنسان من ألمانيا القرون الوسطى، وأدركت كم كانت طبقة الشيوخ متباعدة في سماتها العرقية. كان ابن بابا شيخ ـ مثل الكثيرين من طبقته ـ داكن البشرة كأنه أفغاني.

تقدم الشيخ بجلال. فحياه الوجهاء بالوقوف احتراماً. تجوّل في أنحاء الفناء يقبّل الجدران في عدة أماكن، وعندما وصل المقام، حيا عضادتي الباب بالطريقة نفسها. ولدى مروره بجانب التجمع، وجه بضع كلمات هنا وهناك، مقدماً يده لكل رجل بدوره كي يقبلها. كان تقبيل اليد يسير على النحو التالي: العلماني يقبل يد الشيخ ويرفعها إلى جبهته، ثم يرفع الشيخ اليد التي قبلها العلماني إلى فمه هو، كما لو أنه يريد أن يوصل القبلة إلى هناك. وعندما وصل إلينا ـ في زاويتنا ـ تفحَّصَنا قليلاً، ثم مرَّ بجانبنا كأننا لم نكن موجودين، وتقدم نحو جارنا من الجهة اليسرى.

وعندما عاد إلى مكانه فوقنا، بقرب المقام، رأينا رشيداً وأباه يقتربان منه ليعطياه التفسير الواضح. جلب لنا رسالة تقول إننا يجب أن نقترب منه.

اقتربنا منه وقد شعرنا كالدبابير في خلية النحل، وقلت له بصوت منخفض بعض كلمات الترحيب، وعبرت عن شعورنا بالشرف الذي أعطوه لنا بالسماح لنا بالبقاء، وعن أملنا ألا تكون الرحلة قد أنهكته. ترجموا له كلماتي لأنه لا يعرف العربية. كان لطيفاً، وعدنا إلى زاويتنا ثانيةً.

وبعد قليل رأينا النساء في غرفة الخدمة مشغولات بتحضير أطباق كبيرة من الهريسة، وهي في العراق السفلي وجبة للحجاج، عرفتها كما هي، ثريد مطبوخ دَسِم، منعش ولذيذ، يمكن تسخينه في الرحلة أو بعدها. كانت هناك ملعقة خشبية ضخمة تنتصب على الجدار، استُخدمت لغَرْف الحساء إلى الصحون. كانت هناك وسادة مغطاة بالجلد موضوعة أمام الشيخ، وعليها كومة من أرغفة رقيقة منبسطة من الخبز الكردي، مع لحم وطبق من الهريسة. وبعد ذلك وضعت صحون من الهريسة، فيها عدة ملاعق خشبية، وصحون من اللحم الحار على فترات في جميع أنحاء الفناء بحيث يتمكن الجميع من تناول الطعام، كل عدة أشخاص من طبق واحد. أكلنا كالآخرين، وبعد ذلك قدم لنا صانع القهوة المزيد منها. بقينا إلى وقت متأخر.

أنهى الشيخ ـ الجالس على عرش من جلد الخروف ـ وجبته. وجلبوا له غليونه، ذا الطول الهائل، الذي يبعد أربعة أقدام من حوض صغير إلى قطعة الفم المستديرة الفخمة من العنبر. أشعل ابنه ـ الواقف باحترام أمامه ـ الغليون، لكنه أثناء ذلك كسر الحوض

الفخاري. فأحضروا فوراً واحداً آخر وركبوه وسُلِّمَ الغليون المشتعل إلى سموه. كان مع الشيخ كيس تبغ مربع كبير مطرز، ومن وقت لآخر كان يكرم شخصاً في الفناء بتمريره إليه ودعوته له كي يشارك. ابتهج جدان ـ الذي وجّهَ إليه الشيخ بضع كلمات ـ عندما طلب إليه أن يلف لنفسه لفافة ـ إذ لم يكن معه غليون ـ من حقيبة الرجل العظيم. اشتهيت أنا وأ. ـ ثلاث أكياس تبغ كردية. كانت من قماش من صنع منزلي، غالباً ما تغطس في صباغ بهيج، وتخاط بألوان برتقالية وخضراء وأحياناً ـ تكون مطرزة ـ كما لو كانت حقيبة.

أخَبَرنا الجميع أن سهرة الليل ستكون كلها في الإنشاد والصلاة. «مثل الإنشاد والصلاة التي رأيتماها». قال لنا رشيد. «ويجلبون المرطبات والقهوة بين الحين والآخر. يا خاتون! لقد رأيتِ وعرفتِ ما نفعل هنا. ابقَيْ إذا شئت لكني أخشى أن تتعبي دون حاجة».

فهمت القصد من التلميح فنهضت كي أذهب، بعد أن استأذنت من الشيخ وحييت المختار. مررنا عبر الباب المحرم، وعدنا في هدوء في ضوء القمر.

## الفصل الرابع عشر

# العيد: اليوم الثالث

"هل كان مثل هذا الرحيق هو الذي أغوى الراعي
كي يرقص ويسير حول قطعانه....؟"

ثيوكريتوس/الأنشودة الرعوية VII

عندما نهضنا، ذكّرنا أنفسنا أن هذا هو اليوم الذي كان كل رجل وامرأة وطفل هنا ينتظر بشوق طوال سنة كاملة، يوم الأيام الجميل البهيج؛ هذا اليوم الذي كانت كل امرأة على بعد أميال من هذا المكان تخيط وترسم الخطط له، وتعمل على أن يكون لكل طفل ثوبُه الجديد، وتُخرِج متاع العائلة من الجواهر والمطرزات، وتخبز كعك وحلويات المهرجان، وتخرج ثياب زوجها الخاصة بالاحتفالات؛ هذا اليوم الذي كان ذروة مسرات الربيع، «المرغوب إلى حد كبير».

هرعنا إلى السطح حالما انتهينا من ارتداء ثيابنا، ومن هناك إلى التلال الخضراء خارج القرية حيث القبور متجمعة حول المزارات البيضاء، رأينا نساء يزيديات واقفات قرب موتاهن يضربن

صدورهن ووجوههن على إيقاع ناي وطنبور. كان أدونيس(الراعي الوسيم)(*) لايزال نائماً. طل فجر يوم الفرح، لكن الموتى كانوا يُذكَرون والأطعمة الشهية توضع على الأرض التي تغطيهم.

بدأ النهار، كما أذكر، بهذه النغمة الرصينة التي ارتفعت لتصبح نغمة متصاعدة؛ في البدء كانت دينية النبرة، ثم أصبحت بالتدريج مرحة على نحو يصعب كبحه. وصارت روح المعرض والاحتفال تتعالى كل ساعة حتى أصبح الجميع في حالة تشبه الجنون.

تجولنا في الصباح الباكر وقابلنا واحداً أو اثنين من الرجال الذين رأيناهم داخل مزار الشيخ محمد في الليلة السابقة. كانت الصلوات والأناشيد قد استمرت حتى ما بعد منتصف الليل وقالوا إنها كانت ستتابع حتى الفجر، لولا أن هبت ريح عاصفة وهطل مطر ربيعي غزير ما جعل المتعبدين يهرعون إلى المخابئ. الغرف حول المزار صغيرة، بحيث إنها تركت للقليلين ممن سيتابعون السهر، ومن بينهم بابا شيخ، والقوالون والكوتشك ذو الرداء الأبيض.

على امتداد المرجة الواسعة المتموجة الممتدة أمام المزار، كان قد نصب ملجآن من قماش صنع من شعر الماعز مزودان بالأغصان للحماية من هطول المطر المحتمل. لكن غيوم المطر كانت قد انقشعت، وأصبحت السماء زرقاء وصافية لأن الشيخ

---

(*) كلمة (أدون) بالفينيقية تعني السيد. وأدونيس: إله فينيقي يموت ويبعث باستمرار شغل حيّزاً كبيراً في الأساطير الإغريقية. أحبته كلّ من أفروديت، (إلهة الحب والجمال) وبرسفونه (إلهة العالم السفلي)، فحكم له زيوس (جوبيتر) أن يبقى ثلث العام مع برسفونة (في عالم الأموات بالعالم السفلي) وثلث مع افروديت، والثلث الأخير حرّاً في اختيار مكان إقامته. (المراجع).

شمس نفسه قد أعطى أوامره للطقس. وعلى السهل العشبي والطرقات عند سفح التلال، انطلقت حشود نحو ذلك المكان. جثم الباعة المتجولون في صف مزدوج طويل على الطريق إلى المزار. كانت أمام بعضهم أكوام من الحلويات المزوقة بألوان تذكّر بصبغ الأنبلين. كان الآخرون بائعي جوز وفواكه مجففة. كان العليق الأخضر المجفف من شجرة الغزوان (البطم)[1] الذي يسمى بالعربية «بطني»، يشكل أكواماً جميلة من اليشب. كانت هناك هدايا رخيصة وأقنعة وَرَقيّة وحيوانات من ورق، ودمى بشكل طواحين هواء وأخرى صغيرة. كانت هناك صينية كبيرة مستديرة كان عليها عصا تشبه عقرب الساعة تدور عندما تُدفع دفعة خفيفة. كانت تقف على مقصورة فيها بعض الأشياء الصغيرة الرخيصة، وكان من يوظف فلساً أو اثنين يحصل على جائزة. كان عبقري هذه اللعبة ينادي على نحو مستمر: «نصيب! نصيب!» وهو ما يعادل «جرب حظك!».

كان الغجر المتعصبون دوماً والذين يعملون في مجموعات، يحومون حول الحشود المتزايدة بسرعة. كم كنت سخيفة عندما أخذت بعض الصور ندمت عليها لاحقاً، لأنه مع انقضاء النهار، أصبح المعرض أكثر اكتمالاً والثياب أكثر فخامة.

غادرنا هذا الهرج والمرج ودخلنا إلى المزار نفسه. كان الكوتشك، الذي أصبح أكثر شحوباً وضعفاً بسبب حاجته للنوم، لا يزال المضيف اللطيف؛ لكن الباب كان مفتوحاً ليوم أمام

---

(1) أعطاني السيد إيفان غست اسمه العلمي: «Pistacci Mutica» تستعمل بذوره للصباغ.

الجميع، حتى لمن ينتمون لديانات أخرى. وُضع مقعد أو اثنان للأفندية ـ كما كانت الكتبة والموظفون يسمون ـ فقد كان من المتوقع مجيئهم من مدينة الموصل. كانت هذه المقاعد مصفوفة بمحاذاة الجدار الذي يدور حول بستان الزيتون، وملأت المكان الذي كان في الليلة السابقة قد شغله القوالون بمزاميرهم وطنابيرهم.

لكن ما هذه الروح الوثنية التي هيمنت على مزار القديس؟ كان سهر الليل بالمتعبدين ذوي العمائم، وأناشيده وصلواته من الممكن أن ينقضي مثل عبادات الطائفة الصوفية، وهي في الواقع باطنية وانتقائية، لكنها إسلامية في مظهرها الخارجي. اليوم كان القناع مخططئاً، وبدا لي أنني أرى وجهاً ضاحكاً يحدق من ورائه. كان إلهاً مسروراً. إلهاً قديماً، إلهاً شاباً، يود لو يرقص فوراً، عارياً دون خجل.

جلسنا على أحد المقاعد وراقبنا الزوار الذين كانوا يتدفقون إلى داخل المزار. كان من بينهم مسلمون ومسيحيون، ومعظمهم من النساء. قبّل كثير منهم الجدران باحترام مثل اليزيديين لأن البركة تأتي من ذلك، والقديس قديس، أياً كانت ديانته. تقاطرت النساء إلى الداخل وصعدن على الدرج إلى سطح المزار المنبسط. جلسن هنا لكي يتمكَّنَّ من رؤية ما سيلي على نحو جيد. كانت النسوة اليزيديات، بقلنسواتهن من القطع النقدية اللامعة، وعمائمهن، وأباريم أحزمتهن الفضية، وسلاسلهن وتعويذاتهن وخرزهن متألقات إلى حد كبير، لكن النسوة الكرديات من القرى كن يفقنهن تألقاً. كانت أول من رأيناها ملكة سبأ حقيقة ـ حبست أنفاسنا، مزوَّقة بالمعادن الثمينة، والخرز، وكانت الألوان في ثيابها المتعددة أكثر مما يستطيع المرء أن يرى. وصل المزيد

منهن، وحتى سليمان في جلاله، لم يكن لابساً مثل واحد منهم. كنَّ جميعاً في ألوان متلألئة، بينما توجن أنفسهن على عروشهن على السطح، وأغطية رؤوسهن تلمع في الشمس. قالت أ. «كم كنَّ يمتعن أنفسهن بألوان فوق الألوان ـ». الأحمر الضارب إلى الأرجواني والأرجواني والقرمزي والبرتقالي أو ألوان زهر الربيع، والأخضر المفعم بالحيوية، والأصفر والبنفسجي الزاهي والزهري، كل هذه الألوان كانت تتجمع معاً بجرأة فاخرة، ولكن الأسود كان يضاف لجعل قوس قزح هذا أكثر تألقاً بالتغاير الصارخ. كانت تتدلى منهن خرزات كبيرة كهرمانية وملونة، سلاسل فضية، زينة وتعويذات، وكانت رؤوسهن قد أثقلها الذهب والفضة والمناديل الخضراء والحمراء التي كانت تتألف منها العمائم المثبتة بدبابيس فضية كبيرة.

كان علينا أنا وأ. أن نعمل جاهدتين للاحتفاظ بسلوكنا الجيد. كانت إحدانا تهمس في أذن الأخرى: «آه انظري، انظري!» كلما مرت قادمة جديدة بجوارنا، لأنه في هذا المشهد المتغير الألوان من النساء، كانت كل قادمة جديدة تبدو أكثر بهاءً من أخواتها، وكالعادة أدهشتنا كثيرات من النساء القرويات ببشرتهن الشقراء. لاحظت إحدى العذارى الوسيمات الصغيرات وقد اصطبغت ضفائرها باللون الأحمر من الحنة. كانت ترتدي أردية برتقالية متعددة الظلال، بعضها فاتح وبعضها داكن يميل نحو الاصفرار. هذا إضافة إلى خديها اللذين طلتهما أشعة الشمس بلون الذهب، فأعطتها مظهراً ذهبياً.

كان الأطفال على درجة من السرور تعادل سرور كبارهم. كان الأولاد اليزيديون، ـ وكانت أطراف أكمامهم البيضاء الطويلة معقودة

خلف أعناقهم ـ يرتدون سترات مطرزة أو ـ إذا كانوا فقراء ـ فإن أمهاتهم قد خاطت لهم صدوراً مبهرجة لستراتهم القديمة يرتدونها فوق بناطيلهم الفضفاضة. وكانت هناك أبازيم فضية ضخمة لأحزمة البنات.

صعدنا إلى السطح الذي كان يزداد احتشاداً كل لحظة. كانت بعض النساء المسلمات من الموصل، مجللات بالسواد، مثل الغربان بين طيور ذات ريش رائع، يجلسن مع الأخريات هناك. لاحظت أن كثيراً من النساء الكرديات قد ثبّتن أكياس تعويذات مربعة كبيرة على أذرعهن اليسرى، وكن يرتدين حلى متدلية فضية، وقطعاً نقدية ذهبية وشرّابات من جميع الألوان الصارخة، ليس فقط على رؤوسهن، بل على أجسامهن. كانت شعورهن مجدولة وقد أطلن ضفائرهن اصطناعياً بصوف غنم أسود، ينتهي بتخريمات كروية، أو سلاسل تصل إلى كواحلهن. ثبّتت واحدة أو اثنتان من أحلى الفتيات وروداً حمراء على عمامتيهما. واكتست إحدى الفتيات الأنيقات الشابات بالأصفر الفاتح: كان ميزرها ـ أو رداؤها الفضفاض ـ الذي حيك محلياً ـ مصبوغاً بلون أكثر قتامةً، وكان على ثيابها الأخرى درزات وقطع خضراء لامعة. كانت ميازر كثير من النساء ـ وألوانها المفضلة كانت البرتقالي والأحمر ـ مطرزة بنجوم أو مثلثات. وبينما كانت إحداهن تقف فوق النسوة الجالسات، كانت القبعات من القطع النقدية والزخارف الفضية على السطح المشمس تتلألأ كخوذات الجنود أو دروع الزرد.

عُدنا إلى الباحة مرة أخرى، وكنا المرأتين الوحيدتين هناك، ووجدنا أن عدداً من الرسميين والوجهاء من الموصل قد وصلوا، وجلبوا معهم بعض رجال الشرطة لحفظ النظام. جرت أعمال

تعريف واحترام. كان هؤلاء الرسميون، بصداراتهم وبذلاتهم الرسمية الأنيقة (العراقيون العصريون يرتدون قبعات غير رسمية): يثيرون الإعجاب وهم يأخذون أمكنتهم على المقاعد. جلس أحدهم ـ وهو يستطيع التحدث بالانكليزية ـ بجانبي واستعرض براعته في تلك اللغة. قال بطريقة متعالية: «هؤلاء الناس يستخدمون القرآن، لكن في كل مكان ترد فيه كلمة شيطان يتلفونها من نصوصهم».

لم يخفض صوته على نحو خاص عندما أبدى هذه الملاحظة. من المؤكد أن هذا الرجل ـ الضيف على اليزيديين هنا ـ كان يعرف أن الواجب الإلزامي على كل يزيدي يسمع هذه الكلمة المحرمة أن يذبحه.

توسلت إليه وأنا خائفة: «اسكت أرجوك ألا تقول هذا الاسم هنا». لئلا يسمع أحد من مضيفينا ـ بالرغم من أنهم كانوا صُمّاً على نحو دبلوماسي، لكنني لم أعد أتساءل لماذا استثنوا الأجانب من احتفالاتهم.

نادى هذا الرجل العظيم واحدة أو اثنتين من البنات الصغيرات وسأل بطريقة لطيفة عن اسميهما وإن كانتا تذهبان إلى المدرسة وفي أي صف هما. لكن الطفلة اليزيدية الجميلة، التي اعترفت بعد جهد كبير أن اسمها «حماسي (Hamasi)»؛ كانت ترتدي زينة غير عادية على رأسها: زراً ذهبياً بشكل فنجان كبير بقدر كأس البيضة في داخله بعض أحجار الفيروز وياقوتة، ومن الخارج مزركش بتخريمات وأحجار فيروز مركبة فيه. لا شك أن هذه الأشياء كانت متاعاً موروثاً.

وبعد ذلك صدرت صرخة طويلة فيها زغردة نساء في الخارج، وعلى السطح وحول المبنى. هناك شيء ما على وشك الحدوث. علمنا ما يجب توقعه: لأن جدان كان قد أنذرنا. في الواقع بينما

كان سيدا احتفال اليوم في الخارج، قد أُشير إليهما لنا بينما كانا يتنقلان إلى داخل الحشد، يطلبان المنح من المعجبين بهم. كان هذان علمانيين وكانت أدواتهما لا تشبه أدوات القوالين. كان الطبال يحمل طبلاً ضخماً ـ الطبل ـ والزمار يحمل مزماراً خشبياً واسع الفتحة يدعى «زورنايا» أو «زورنا»(*).

جاءت لحظة دخولهما الاحتفالي واصطف القرويون اليزيديون ببناطيلهم الفضفاضة وعمائمهم الحمراء؛ ووجوههم الشقراء الملفوحة، في صفوف على الجانب الأبعد من فناء المزار الأمامي الصغير، كل بوصة منه مكتظة بالمتفرجين، باستثناء البقعة من المرجة والطريق المرصوفة إلى الضريح، التي شطرته إلى نصفين. ازدادت شدة الصرخات ودخل الاثنان معاً.

حالما دخلا، خرَّا راكعين على نحو مثير، ينظران إلى ضريح المزار، وخيّم الصمت إلا من زغردة مرتجفة عالية النغمة في الأعلى. رفع الزمار مزماره إلى شفتيه وأطلق رعشة مستمرة ثاقبة، ودعم الطبال ذلك العزف بدوي طويل. وبينما كان راكعاً، انتفخ خداه مثل بورياس(Boreas = إلَه الريح الشمالية الإغريقي)(**) وترنح الزمار بجسمه إلى هذا الجانب وذلك، كما لو أنه ينشد رقية سحرية أسمى. دام هذا مدة عشر دقائق كاملة، عشر دقائق مثيرة عاطفية على نحو خارق للطبيعة. ذكرني ذلك إلى حد ما بمنظر باليه بتروشكا الذي يستدعي فيه الساحر دُماه للعوده إلى الحياة.

---

(*) زُوْرْ نَيْ = من الفارسية الناي القوي. (المراجع).

(**) بورياس: ريح الشمال، ابن استرايوس (التنيان) وأمّه ايوس (ربة الفجر). (المراجع).

كان الجسم المتمايل، والمزمار في الشفتين والنظرة الآمرة المصممة مثل السحرة لكن هذا لم يكن تنكراً. إن ما كنا نشهده هنا كان احتفالاً دينياً أو سحرياً حقيقياً. لم يكن للروح المستعادة إلى الذاكرة إلا علاقة قليلة بمحمد العربي، أو ذلك الآخر المبجل والمتوفى الشيخ محمد الذي تستلقي رفاته في هذا الضريح. كانت الدعوة موجهة إلى روح الربيع بالذات. كانت توجه صرخة إنذار إلى الموتى الذين يستلقون في قبورهم، تأمرهم بالعودة للحياة. كانت تدعو الأرض كي تستيقظ وتعطي الثمار. كان صعود النسغ في الأشجار، والدافع إلى التناسل عند الحيوان والإنسان ينفخان روح الحياة في ضرورتها الملحة واتقادها.

وأخيراً انتهت لحظات التوتر. توقف الطبال والزمار، وهبّا واقفين، قبّلا الجدران الخارجية وعضادتي الباب والعتبات الحجرية بينما كانا يتجهان نحو المزار، ثم اختفيا في الداخل مع الكوتشك.

وعندما ظهرا ثانية، تشكلت حلقة من الرجال شبكوا أذرعهم وأيديهم في الباحة. كان شرف الرقص في هذه الدبكة، أول دبكة تُرقص في شهر الربيع هذا، يباع بالمزاد إلى من يدفع أكثر.

أخذ المزمار والطبل موقعيهما، وبدأت الموسيقى التقليدية التي كانت تعزف كل سنة في عيد الربيع على مدى قرون ـ ربما ـ تصدح من جديد.

بدأت الدبكة. ربما هي أكثر الرقصات الشعبية إثارة، بالتأكيد تلك الرقصات التي رأيتها. إيقاعها في خبط الأقدام وحني الأجسام لا يمكن مقاومته. فهي تبدأ رصينة، بخطوات إلى الخلف والأمام وخبط أقدام هنا وهناك، ولكنها وهي تستمر يصبح القفز والانحناء

أكثر عفوية. وعلى السطوح كانت النسوة يزغردن بلا انقطاع، منحنيات إلى الأمام كي يتمكنَّ من الرؤية، ويحتشدن على الدرج. كان الرجال يختلطون في جميع أرجاء المكان الصغير.

وأخيراً انتهت هذه الرقصة الأولى شبه الدينية، واندفع الناس الموجودون داخل المزار إلى الخارج بفوضى شديدة عبر المدخل الضيق إلى الشمس في الخارج، حيث كانت الحشود قد تكاثرت وأصبحت جمهرة كبيرة من الناس. وفوراً تشكلت حلقة جديدة على المرجة الخضراء أمام المزار، حيث كان الطبال والزمار يعزفان موسيقى مؤثرة في الوسط. توسعت الحلقة وتوسعت. . . . كان الراقصون يقطعون الحلقة وينضمون إليها. وانضمت إليهم مجموعات من البنات أيضاً، والأخيرات منهن فقط يشبكن أيديهن مع الرجال. كن أكثر تحفظاً في حركاتهن من الرجال، الذين كانوا يلقون بأكمامهم الطويلة فوق أكتافهم وينحنون ويقفزون إلى الخلف، لأنه في الدبكة السورية كان أحد الراقصين يلوح بمنديل في الهواء. وهنا كانت الأكمام الطويلة تتماوج إلى الأعلى لتنوب عن المناديل المرفرفة.

في تلك الأثناء لم تفتر أنغام الطبل والمزمار، بل استمرت لافتة ومرحة، تصل إلى أعصاب عميقة في الجسم أو الروح تهتز رداً على ذلك. هنا كان سحر الزمار الأرقط (Piper Pied). أنا متأكدة أن هذا الزمار قد تبعه شريكه ومعه الطبل، وإلا لما كان الأطفال يرقصون خلفه. كان إيقاع الطبل المكمل الطبيعي لموسيقاه. الناي والطبل، المزمار والدف، الزورنا والطبلة، هذه توائم، أزواج طبيعية. ارتبطوا معاً بقانون الإتباع القديم، لا ينفصل أحدهما عن الآخر كزوجين سعيدين. أحدها يناغم ويثير

الروح، والآخر يجبر القدمين. من المؤكد أن كليهما من برج «الثور» كما يقول السير أندرو أغيوتشيك، «وهكذا هي الأرجل والسيقان»، كما يقول سير توبي. هكذا اقفزوا وانحنوا، متشابكين معاً، ودوروا ودوروا، واضربوا الأرض بأقدامكم على موسيقى المزمار والطبل! وكانت فترة راحة عند الظهر. ربما جلب البعض خروفاً صغيراً بعد ليل قضوه في السهر، وأكل الجميع كثيراً من اللحم والبرغل والفطائر المحشوة، التي كانت ربات البيوت الماهرات قد حضرنها للعيد. في الصباح المبكر قابلنا بابا شيخ، ومعه غليونه الطويل الجميل، يصحبه ابنه وعدد من التابعين المحترمين، ذاهبين إلى بيت صديقنا «صديق» للاستراحة. لم يكن يشرف على الأفراح والرقصات التي كانت تدعى محلياً «الطوافي».

التقينا به مرة ثانية بعد الظهر في بيت مضيفه، حيث كان يعمل كل أفراد العائلة دون كلل لإكرام الحشود من الضيوف. على الساحة أمام باب البيت كان راقصون حول الزمار والطبال، يرقصون باجتهاد أيضاً. كان الباب مفتوحاً مرحّباً. وعلى المقاعد الطينية داخل المدخل المقنطر وحدائقه، نُشرت حصر ووسائد وجلس الضيوف باسترخاء، بينما رشيد ابن البيت المتعب ـ لكن المهتم ـ حرص على أن يقدم لكل من يدخل الشاي الحلو في كؤوس، أو القهوة المرة ذات النكهة الخاصة، التي حمَّصها وطحنها وحضّرها بيده. كان والده الذي يدخن الغليون وبابا شيخ يجلسان معاً على حصر متباعدة قليلاً كما يناسب وضع الضيف الأهم: البابا شيخ كان يسحب من غليونه الطويل ويناقش مع ضيفه الوقور مسائل تؤثر على خير العالم اليزيدي. وكان بابا شيخ أيضاً يرتدي عمامته البيضاء الكبيرة فوق حاجبيه الكثيفين، مع ظهور قليل من الشعر

الأشيب نحتها. طلبت منحي شرف أخذ صورة لكلا الشيخين وتكرما بإعطائي الموافقة. استغل بابا شيخ المناسبة ليطلب مني تأييد مسألة تهم الجالية. فكان عليّ أن أخبره أنه ليس لي أي نفوذ في مثل هذه الأمور، لكن إن تصادف أنه عليَّ أن أعبر عن رأيي، فإنه لن يجدني متأخرة في التعبير عن مناصرتي، عندها قام بإيماءة تدل على التفهم. وأخيراً، لم أكن سوى امرأة، كما يبدو لهم. كنت تواقة لسؤاله بالسماح لي بأخذ صورة له مع هذا الغليون البارز، لكن لن يكون في ذلك أي شيء من اللياقة.

إضافة إلى ذلك، كانت اللغة حاجزاً بيننا لا يمكن تخطيه.

انسحبتُ أ. وأنا بعد محادثة قصيرة مع رشيد، محادثة ألقت الضوء على اليزيديين حتى أمرائهم الروحيين والدنيويين بالتالي. قد يكون تكرار هذا خرقاً للسرية، لكن أكدت لي قوة الولاءات المزدوجة لهذا الشعب الأبي والجدير بالاحترام.

غادرنا الرقص والجلبة وضيافة بيت صديق المكتظ، وصعدنا وادي رأس العين، الذي أُفرغ اليوم من أجل المعرض. هنا صعدنا تلة الشيخ ملكي ميران وجلسنا على العشب القصير نراقب راقصي الدبكة الذين كانوا يبدون مثل الدمى الواثبة ثم نحدق في هدوء الوديان العريضة الطويل، وفي التلال الخضراء المزروعة بالقبور بمخاريطها البيضاء نحو بحزاني، وإلى الجبال الصخرية عن يميننا والتي كانت تخبئ المغارة المقدسة. رآنا ولد ذو وجه بني واقترب منا أكثر وأكثر وجثم، يراقبنا مثل طير دوري الحديقة الذي ينتظر فتات الخبز. كان يريد أن يرانا عن كثب، ويرى هاتين المرأتين بعاداتهما الغربية واللتين كان يقال إن أطفالهما قد فُصلت عن جسديهما بجراحة سحرية، واللتين تملكان آلتين غريبتين

إحداهما تكتب والأخرى تخيط فوراً، واللتين كانتا ودودتين جداً ونائيتين جداً. مشينا نحوه: أخبرنا أنه ابن الشماس أيوب، وأنه يذهب إلى المدرسة وحدّثنا عن عائلته ونفسه.

شعرنا بتأنيب الضمير بشأن سيت غولي، فسرنا عبر التلال لنتجنب العودة من عند القرية. ومررنا على منزلها. كانت لا تزال مستلقية حيث تركناها، مريضة خائبة الرجاء، وكانت عمامتها البيضاء متسخة ومورووبة على رأسها الأشيب، وكان الذباب الكثير يحوم حولها وحول فراشها. وكالعادة تجمعت العائلة على الدرج الطيني المكشوف الذي يؤدي إلى المصطبة التي كانت تستلقي عليها. كان واضحاً أنهم لم يكونوا يظنون أنها ستبقى طويلاً في هذا العالم. قالت لي زوجة أحد أبنائها: «إن كانت تسر الرب دعوتها إليه، فليكن ذلك! وإذا لم تكن تسره دعوتها، فليكن أيضاً».

كانت السيدة العجوز تئن، لكنها نهضت وجلست واستخرجت رسالة كان ابنها مراد قد أرسلها لها من سجنه. ومن جديد وعدت أن أفعل ما أستطيع كي أضع قضيته المعقدة أمام السلطات. وهذا ما فعلته. في الموصل ناقشت الأمر مع المتصرف الذي قال إن القضية خرجت من يده: وفي بغداد حاولت أن أضع المسألة أمام وزارة الداخلية. لم أستطع أن أفعل أكثر من هذا، لأنني عندما اسودت غيوم الحرب، طرت بسرعة إلى انكلترا، لأتمكن من رؤية ابنيَّ اللذين كانا في الجيش البريطاني،إن أمكن. توسل إليَّ جدان أن أبذل جهدي من أجل شيخته، وسمعت لاحقاً أنه قد دفع مالاً، من مدخراته الخاصة القليلة كي يساعد سيدته بالوراثة.

* * *

كانت تلك آخر ليلة لنا في بعشيقا. كانت أ. ستعود في الصباح إلى كركوك، وأنا سأنطلق إلى جبال هكاري (Hakkari). بعد العشاء صعدنا إلى السطح. كان القمر ساطعاً، وريح طرية عذبة الرائحة تأتي من التلال، عدد كبير من ماعزات سوداء تجري في شارع القرية. وفي باحة غير بعيدة كانت بعض الفتيات يرقصن ويصرخن بصرخات الفرح، يرقصن في حلقة الدبكة السعيدة، وكانت حلاهن الفضية الجميلة تتألق في ضوء القمر. كن يخطين على إيقاع تصفيق المتفرجين، لأن الزمار والطبال كانا يستريحان استعداداً لاستئناف مرح اليوم التالي في قرية بحزاني.

استيقظت عند منتصف الليل وسمعت صوت غناء ـ ضعيفاً لكن واضحاً ـ يرافقه الناي المقدس وطنبور القوالين آتياً من المزار. في صباح اليوم التالي علمت أنه في تلك الساعة كان أحد الرجال قد صعد المخروط وربط في قمة الكرة الذهبية قصاصات من حرير قُدِّمت وفاءً لنذر، كي ترفرف هناك كألسنة من العرفان للفضائل التي منحها القديس. من بينها ـ من دون شك ـ تلك القطعة من الحرير الأخضر التي أخبرت حكاية شفاء الطفل المريض. استمرت الصلوات والرقص والغناء طوال الليل، كما أخبرنا رشيد المنهك عندما جاء باكراً ليودعنا ويعتذر عن والده الذي كان لا يزال نائماً. هو نفسه لم يكن قد ذاق طعم النوم طوال ثلاث ليال، لكنه لا يستطيع أن يدعنا نذهب دون أن يتمنى لنا رحلة موفقة.

نحن الآن نحزم حقائبنا. كانت أ. تحمِّل فراشها وحقيبتها على سيارة ذاهبة إلى كركوك، بينما دبر لي الشرطة عزيزاً السائق كي يوصلنا إلى شيخان، حيث كنت أتوقع مجيء حيوانات تحميل لتأخذنا إلى شيخ عدي. كانت عائشة وطفلها يراقباننا بينما كنا

نحزم الحقائب ونربطها، وجاءت سيري لكي تمنحنا صلاة مشوشة أخيرة، وجاء القوال ريشو كي يودعنا وكذلك أصدقاء آخرون بمن فيهم جميع أفراد الشرطة ومصطفى الرقيب، الذي ذكر كلمة أخيرة عن شريطة رتبته.

غادرت أ. أولاً، وانطلقتُ بعد قليل، وتركت السيارة قرب الطاحون وأخذت طريقي فوق الجدول قرب امرأة تعمل في غسل الملابس، وأثناء صعودي على منحدر عشبي مكشوف كانت فوقه نباتات كزبرة الثعلب الزرقاء رأيت ما يشير إلى يوم جميل آخر. عند القمة كان بيت «الرئيس» تحميه بوابات حديدية جميلة كما يليق بعمدة المكان. هنا حدثت وداعات أخرى وقدمنا الشكر الجزيل لكل اللطف الذي لقيناه أثناء نزولنا. ارتشفنا القهوة الوداعية: والتحقتُ من جديد بالسيارة التي كان فيها جدان وميخائيل وعزيز الكئيب ينتظرونني وانطلقنا.

## الفصل الخامس عشر

# رحلة الحجاج

**«تعال، وعد إلى وطنك من جديد بهدايا لطيفة!»**.

ثيوكريتوس/الأنشودة الرعوية XXII

كانت المرحلة الأولى من رحلتنا قصيرة. توقفنا في بحزاني، حيث كان المير «سعيد بيك» يرافقه القوالون والطاووس المقدس، سيبقى في ذلك اليوم. والطاووس المقدس ـ السنجق (Sanjak)، تمثال برونزي يرمز إلى طاووس ملك. هناك العديد من هذه التماثيل: يؤخذ كل منها ويعرض للمؤمنين الذين يجلبون التقدمات إلى المير وتمثل دخلاً سنوياً كبيراً، لكنه تقلص الآن لأن القوَّالين لا يستطيعون عبور الحدود إلى البلدان الأخرى، بسبب المصاعب والقيود المفروضة عبر ظروف الحرب. والسنجق (وهو حرفياً العَلَم) يُرونه بالسر. منذ سنوات، بعد أن علمت أن أحد هذه التماثيل محفوظ في بعيدري، حيث يسكن المير، عندما كنت أقوم بزيارته في القلعة سألت إن كان مسموحاً لي أن أرى الطير المقدس. كان الجواب الذي أستحقه: «إنه ليس هنا».

وطبقاً لعدة حكايات يختلف التمثال في شكله من تمثال غير

متقن لشيء ما يشبه الحمامة أو الديك، إلى الطير المتخذ تقليدياً وله ذيل كالمروحة ويُرى بالفعل في متحف ساوث كنسينغتن (South Kensinglon Museum). وكيف تمّ الحصول عليه، لا أعرف.

وسبب اختيار الطاووس كرمز دنيوي لأمير الملائكة، ناقشه النقاد مرات كثيرة، والسيد م. ليسكوت، في كتابه الذي نُشر مؤخراً عن اليزيديين في جبل سنجار، لخص النتيجة السلبية إلى حد ما، لمناقشاتهم.

كنت هنا على بعد مرمى حجر من الطاووس المقدس، ومع ذلك فقد قررت ألا أُظهر علمي بوجوده. قادنا أحد القوالين في الشارع الضيق وأخذنا إلى داخل الفناء المحتشد بالناس في أحد البيوت الأكبر في القرية. كانت الدجاجات تحفر بأظافرها قرب أقدام الرجال الواقفين في فناء الدار، وكان بعضهم ـ دون شك ـ ينتظرون دورهم لزيارة الطير المقدس. كان الطاووس في غرفة على جانب الفناء: رأيت القوال يوجه بعض الواصلين إلى الباب.

على الإيوان ـ غرفة المنصة المكشوفة ـ جلس المير، وعلى المقاعد المنتشرة مع سجادات حول الجدران الثلاثة كان عدد من الزوار، نهض اثنان منهم لإعطاء مكانهما لي ولجدان. ومن بين هؤلاء الناس كان واحد أو اثنان يرتديان معطفين أوروبيين وسدارتين عراقيتين، العلامتين الرمزيتين للمواطن البلدي والرسمي، ومقابل المير جلس الكاهن اليعقوبي المحلي في ثيابه السوداء. كان بابا شيخ وابنه أيضاً حاضرين، وبذلك كان الأسياد الروحيون والزمنيون مجتمعين تحت سقف واحد.

كان سعيد بيك، أمير اليزيديين، وزوج ونسة، رجلاً طويلاً وليس بشعاً، لم يبلغ الأربعين من العمر، وله لحية سوداء طويلة

عقصت في خصلة الحب (كالتي يرسلها رجال القرنين السابع عشر والثامن عشر فوق الكتف). استقبلني استقبالاً ودياً، وأخبرني أنه كان ينتظرني منذ بعض الوقت في الشيخ عدي. شرحت له سبب تأخري وشكرته على عرضه ضيافتي هناك، لأنه بكل لطف قد وضع غرفة الضيوف هناك تحت تصرفي. قال إنه أعطى الأوامر بأن يُروني كل ما يرى هناك (قفز قلبي من الفرح لهذا) وأنه يجب فعل كل شيء لجعل إقامتي مريحة، وشكرته مجدداً على حسن ضيافته وترويه. انتقل الحديث إلى الأمور العادية المهذبة، قطعتها أسئلة من الكاهن الذي كان جالساً بجواري عن إقامتنا في بعشيقا. جلبوا القهوة التي تقتضيها أصول الضيافة وشربناها، وبعد ذلك بينما كان الصباح ينقضي، طلبت الإذن بالمغادرة. رغب المير أن يرسل معي رجلين للمرافقة، لكن لما لم يكن لهما مكان في سيارة الفورد وصلنا إلى حل وسط. أرسل فقيرٌ ابنه وهو ولد وسيم ذو عينين بنيتين صافيتين واسمه حجي، استطاع أن يحشر نفسه بين جدان وميخائيل في الخلف بين الأمتعة، بينما أحطت نفسي بأشياء أصغر في المقعد قرب السائق عزيز.

كانت الطريق تتبع التلال السفحية وكانت أزهار صفراء تنتصب مثل الشمعدانات فوق القمح الجديد. كانت بعض الحقول بنية غير محروثة، تركوها مراحة للسنة القادمة. كانت طيور اللقلق تبحث بين الأخاديد. بين حقول القمح رأيت كثيراً من الأزهار البهيجة المدعوة «غيت غيتك»، ولها ورقة تشبه أوراق الكتان وزهرة قرنفلية اللون لكنها تشبه المنثور البري. بعد أن اجتزنا تلال تيبي غاورا وخورساباد، وهي أسماء مألوفة من أشياء موجودة في صناديق المتحف، وصلنا إلى قرية الفاضلية بين بساتين الزيتون إلى

يمين الدرب. هنا كان حصان وحمار مشدودين معاً إلى نير يحرثان الأرض البنية الخصبة، وكان المحراث طبعاً سكة الحراثة البسيطة التي يمكن أن يحملها الفلاح على كتفه إلى البيت. تابعنا على خط التلال الفسيحة وتحتهما مباشرة هناك بساط أصفر ملتهب من الأزهار، ربما أزهار من نوع المرغريتا.

كانت القرية التالية تدعى نويره، تقع على تلال منخفضة إلى الجهة اليسرى؛ كومة من البيوت الطينية ذات السطوح المنبسطة يرتفع أحدها فوق الآخر مثل الدرج وفي أعلاها بيت أبيض يبدو عليه الثراء عند أعلى التلة. هنا كان يلتقي الطريق من بعشيقا إلى الطريق من الموصل إلى شيخان (أو عين سيفني= إذ إن للقرية اسمين). توقفت الحراثة عند هذه البقعة، وكانت الأرض على كلا جانبي الطريق تمتاز بالأزهار البرية التي امتدت نحو الأعلى، وعند القمة شاهدنا تلالاً زرقاء، وخلفها سلسلة جبال يكوسها الثلج. تعرجت الطريق صعوداً ونزولاً وعند كل صعود كانت التلال أكثر قرباً. كانت هناك أزهار في كل مكان. المرغريتا والحوذان والياقوتية واللبلاب الملون بلون الخزامى الجميل، والذي يسمى شعبياً «اللِّفلاف».

كانت أعمدة البرق تسير معنا لأن عين سيفني متصلة الآن بالعالم الخارجي، وكانت طيور الوروار تحط على الأسلاك أو تنقضّ في أسراب فوق الرؤوس تطلق سقسقات متكررة عالية. تصل هذه الطيور التي تشبه الجواهر، التي تتوهج ألوانها كالزمرد، متأخرة عن اللقالق والسنونو. في هذه المناطق، يدعى هذا الطائر الدرغلة «طير الزهور» لأنه يأتي مع الزهور.

مررنا بجانب قرية من الجهة اليمنى واقعة على تلة حمراء في

جميع أنحائها أزهار الحوذان الحمراء. لاحظت كثيراً من الأزهار البرية هنا، ورأيت ثانيةً تلك الزهرة الصفراء الجميلة التي تشبه وردة الصخور، والتي أنعشتنا بعطرها في بعشيقا. من بين أصدقائنا القدامى كان نبات السيفية الأزرق وعناقيد من أزهار نجم بيت لحم، لكن أزهار السوسن كانت تنمو في كل مكان. كنا نصعد إلى مكان أعلى وعندها ـ فوق بقعة من النرجس ذبلت الآن ـ رأينا الطريق تتلوى إلى «بعيدري» على التلال السفحية إلى يسارنا، وقربها ـ لكن أبعد قليلاً ـ يقع الكوش (Al-kosh) حيث يرقد النبي ناحوم ودير ربان هرموزد (Rabban Harmuzd) المحفور في الوجه الصخري للجبل. أخبرني رجل من تل كيف (Tel Keyf) أنه في الأيام التي سبقت بناء الكنيسة على هذه الصخرة الشديدة الانحدار، طلاها الرهبان بالكلس والحليب. وقال: «وكان النور الساطع منها يشبه الألماس، وكان من الممكن رؤيتها من مكان بعيد كالموصل».

كانت السيارة تقترب الآن من عين سيفني الواقعة أيضاً على تلة، وفوقها كان ينتصب المخروط المرتفع الأبيض لمزار يزيدي كالمنارة. في هذه البلدة الصغيرة خليط من سكان مسلمين ومسيحيين ويزيديين. تحت البيوت كانت بساتين من الزيتون ومنحدرات عشبية والكثير من نباتات الحوذان البصلي.

تحركنا بسرعة ونحن نصعد السفح الشديد الانحدار. كان العمال مشغولين على الطريق، كانوا يحولونها إلى طريق رئيسة مفروشة بالإسفلت، تربط عين سيفني بالموصل على نحو دائم؛ في الوقت الحاضر غالباً ما تصبح معزولة طوال أسابيع أثناء أمطار الشتاء.

توقفنا قبل السراي حيث المكاتب الحكومية. هنا أعطيت تعليمات بالسؤال عن سعادات أفندي وبزيارة القائمقام. وجدت صاحب المقام الأول جالساً في أبهة وبرود في ظل شجرة توت كبيرة، يدخن ويتحادث مع الرفاق. كانوا قد أخبروه بقدومي واستقبلني بنبل، وعرَّفني على عدة موظفين محليين، بمن فيهم معلم المدرسة الذي كان وجهه يدل على ذكاء وطباعه الفاتنة تبشر بالخير لعين سيفني.

وعندما سألت إذا كانت حيوانات التحميل التي طلبوها لي قد وصلت بدا أن الأمر الذي لم يكن هاماً، يمكن تسويته لاحقاً. شربنا القهوة تحت شجرة التوت بينما كنت ألتمس الأخبار عن الحرب، فقد كان عند القائمقام مذياع؛ في الواقع كان هذا المكان بالمقارنة مع بعشيقا، يعتبر مدينة كبرى.

بعد القهوة («لا تستعجلي! لا تستعجلي! فلديك وقت طويل»)، أحضروا الشاي في كؤوس، ثم أخذني معلم المدرسة، الذي كان ابناه: ولد اسمه وسام وابنة صغيرة خجولة، ينظران إليَّ من مكان حماية والدهما تحت ذراعه وركبته، إلى مبنى المدرسة. كان المعلم ـ مع مساعدين له ـ يعلمون الصغار هنا في عين سيفني، القراءة والكتابة والحساب بالرغم من أن الصفوف ـ وليس غرف الصفوف ـ كانت تزداد في أعدادها، قال إن اليزيديين هنا ـ كما في بعشيقا ـ كانوا يكرهون إرسال الصبية إلى المدرسة لأن شجرة المعرفة تحمل ثماراً محرمة ولا يجوز سوى للشيوخ القراءة والكتابة. لكن هذا التحيز يضعف، وعدد التلاميذ اليزيديين يزداد.

عدنا إلى شجرة التوت وسألت إذا كانت البغال قد وصلت. أجاب المفتش والقائم مقام ـ لسوء الحظ ـ أنها كانت في الحقول

تعمل. ألم تصلهم رسالة من الموصل تخبرهم بقدومي في ذلك اليوم؟ نعم، بالفعل، لكن لم يكن هناك شيء محدد.

قالوا: «على كل حال، لماذا لا تذهبين بالسيارة؟ الجميع يذهبون إلى هناك بالسيارة».

منذ سنوات سافرت مرتين إلى شيخ عدي بالسيارة، دون أمتعة في الطقس الجاف، وفي كل مرة كنت أعجب كيف وصلت السيارة سليمة تقريباً. فالطريق غير مناسبة للسيارات ـ حتى في منطقة تنطلق فيها السيارات، وخصوصاً الفورد ـ بمرح فوق طرقات لا يمكن تسميتها كذلك إلا بجهد كبير من الخيال.

أجبت أن عزيزاً ـ سائقنا ـ الذي يعرف أن الطريق من عين سيفني كانت سيئة ـ رضي أن يأخذنا هذه المسافة في الظروف الخاصة بحيث إنه لم يبتعد أكثر من ذلك، وان عزيزاً هذا قد دفع مؤخراً ـ أو استعار كي يدفع ـ ستين جنيهاً لسيارته الفورد المستعملة، وأنه كان يدللها كما يدلل ابنة عمه.

قالوا إنهم يأملون أن تأتي سيارة أخرى.

لم يبدُ أن ذلك محتمل. قالوا: «سنتحدث إلى سائقك». أرسلوا في طلب عزيز وقال إنه يعلم أن الطريق سيئة جداً، وإنه لن يقود سيارته فوقها.

حاولوا إقناعه بلطف. «لكن ليس بهذه الدرجة من السوء. لقد أُدخلت عليها تحسينات كثيرة! تحسَّنت كثيراً: لقد تم العمل عليها، وبالفعل تسير السيارات عليها كثيراً من المرات».

وللبرهان على قولهم، أحضروا سائق سيارة يزيدياً. عرَّف عن نفسه كسائق سيارة وكصاحب حيوانات التحميل التي لم تصل.

أضاف قناعاته إلى قناعات السلطة. أكد لتوما الشكاك ـ عزيز ـ مبتسماً ابتسامة الواثق، أن الطريق كانت جيدة. هناك مكان أو اثنين ـ قد يكونان صعبين، لكن من السهل السير عليهما أو حولهما، وأنه ـ هو نفسه ـ قد قاد سيارته إلى شيخ عدي. سمح عزيز لنفسه أن يقتنع دون رغبة وهو عابس.

قال السائق اليزيدي: «سوف أرافقكم وأريكم»، وعندما قلنا إنه ليس في السيارة سنتيمتر واحد فائض، فقد كانت تحوي خمسة أشخاص مع فرشهم وأدواتهم المنزلية، قال بابتهاج إن ذلك لا يعني شيئاً. فبإمكانه التعلق على السيارة في الخارج.

وهكذا وسط تنهدات الارتياح من قبل المسؤولين، انطلقنا على الدرب.

قلنا لأنفسنا آملين: «ليس بهذه الدرجة من السوء؛ لأن نصف الميل الأول كان بالتأكيد ليس أسوأ من الدرب الذي يؤدي من بعشيقا. لكن من بعد ذلك بقليل صار أسوأ: في الواقع أصبح سيئاً على نحو لا يمكن وصفه. خرجنا من السيارة ومشينا، بينما كنا نسمعها تجهد، تئن وترتطم، تظهر في أوضاع رهيبة بينما كانت تجتاز الصخور، أو تهبط أو تشق طريقها بصعوبة، وهي تنزل عن جرف منحدر. قررت وأنا أسير ـ أولاً ـ لو كانت هناك جمعية للرفق بالسيارات لكنت انضممت إليها، وثانياً ـ أنني سأضيف مبلغاً كبيراً إلى السعر الذي رضي عزيز مكرهاً أن ينقلنا لقاءه إلى هذا المكان البعيد.

كانت العملية فعلاً رحلة حجاج بالنسبة لعزيز، قنوط كبير وقطع صخرية ضخمة، لكننا سررنا بالمشي. اقتربنا من الجبال كثيراً. وأحياناً عندما كانت الطريق تصبح أفضل على نحو غير متوقع، كنا

نركب من جديد، لكننا كنا نعتذر ـ لأن عزيزاً في محنته ـ كان يطبق فكيه بإحكام ويقود السيارة بتهور عند المطبات والأخاديد، وهو يطلق اللعنات بينما نحن نتمسك ونتمتم. «سنمشي يا عزيز! دعنا نمشي». أو بإلحاح أكثر «ياواش، ياواش!» على مهلك على مهلك! تماماً مثلما كان جون جيلبن (John Gilpin) يتوسل إلى جواده. لكن دم عزيز كان فائراً، ولم يهتم. بدا أنه يلمح بالقول: «إذا تحطمت سيارتي، فيجب أن تكونوا فيها!».

وصلنا إلى جداول عبرناها على حجارة العبور بينما كانت السيارة تجهد خلالها. وأصبح الوادي جميلاً على نحو متزايد. وكان من البديهي وجود أزهار برية، وكذلك كانت هناك شجيرات أيار مزهرة، وأشجار سنديان على منحدرات التلال ظهرت عليها الأوراق الجديدة الغضة. على أرض الوادي كانت حقول الأرز وقد أُغرقت بالمياه. وبجانب أحد الجداول التي خضناها، جلس راع يرتدي قبعة صغيرة مستديرة من لباد مستريحاً تحت شجرة سنديان وفي يده مزمار مزدوج.

أصبحت الطريق الآن تتبع هذا الجدول، كما أصبح الوادي أضيق. وكانت أشجار الدفلى ـ التي لم تكن قد أزهرت بعد ـ تنمو هناك بكثرة. وبعد ذلك عبرت الطريق الجدول مرة ثانية واتجهت وجوهنا نحو الجبل. وبعد هذه توقفت السيارة، وعلقت في بقعة من الوحل. كنا قد مررنا للتو بجانب القرية الصغيرة لاليش، ومن هذه المنطقة لم يكن هناك سوى مسافة ربع ميل سيراً إلى المزار، وعجزت السيارة عن التقدم بأي حال من الأحوال. لذلك تركتهم كي يفرغوا الحمل ثم انطلقت وحيدة، بعد أن وعد جدان أن يجد ناساً من لاليش كي يجلبوا لنا أمتعتنا.

كان السير صعوداً على طريق الحجاج الظليلة تلك إلى شيخ عدي أمراً ساراً. يحاذي الممر الجدول الذي يندفع صاخباً في حوض حجري. كانت الجبال ترتفع على كلا جانبيه: صخرية وتكسوها الأشجار. في منتصف الطريق جلستُ على صخرة كبيرة كي أصغي إلى خرير الماء، واستنشق عطر الأعشاب والتربة المبللة واستمتع بالخضرة والظلال المتماثلة في هذا المكان الجميل. سمعت صوتاً، ثم ظهرت امرأة كردية وابنتها وأخذتا طريقهما على حجارة العبور كي تلتحقا بالممر الذاهب إلى القرية الصغيرة في الأسفل ونظرتا إليّ بابتسامات تنم عن الدهشة وأجابتا على تحياتي باللغة الكردية. على أكتافهما كانتا تحملان أكياساً كبيرة مزخرفة ممتلئة بأرغفة الخبز.

نهضت وتابعت سيري إلى الأعلى، وصوت خرير الماء المندفع يزداد ارتفاعاً وأوراق النباتات الخضراء عند النبع العذب تصبح أكثف. كانت الأشجار كثيرة في الوادي المقدس، وأشجار التين تنمو بحرية قرب أشجار السنديان الصغيرة القوية، وأشجار التوت المنتشرة، وأشجار البطم المهيبة[1] التي تعطي ثماراً بلون اليشب، والتي تعتبر مقدسة بحيث لا يجوز حرق خشبها.

فجأة عند أحد منعطفات الممر، انحرفت والتقيت وجهاً لوجه بآخر مظهر غريب كنت أتوقعه، شرطيين عراقيين بادراني بالتحية، بقدر مشابه من الدهشة. قال أحدهما: «سمعنا أنك قادمة، لكننا توقعناك منذ يومين». لم أكن مسرورة لأنني ظننت أنهم أرسلوهما

---

(1) غزوان: انظر الملاحظة السابقة. تنتج الشجرة صمغاً وثماراً وتستعمل أوراقها علفاً للحيوانات وللصباغ.

على حسابي، لكن تبين أن حضورهما لم تكن له أي علاقة بحضوري. وقعت جريمة كبيرة في الوادي مؤخراً وأُنشئ مركز صغير للشرطة في لاليش وعند المزار، من أجل المحافظة على الهدوء.

كان الرجل الذي تحدث إليَّ صغيراً نحيلاً ذا وجه أسمر. أخبرني أنه لكونه من منشأ جبلي، فقد توسل أن يرسلوه إلى الجبال، ليس بالضرورة جباله، بل أي جبال. ارتاب رؤساؤه في الأمر، لكنهم أخيراً منحوه وظيفة هنا مع فقدان شريطة من رتبته وتخفيض في أجره. قَبِلَ بسرور، وأخبرني أنه كسب من هذا. «لأن في المدينة، يا خاتون، تذهب كل أموال الشخص بسرعة على الطعام والثياب والسجائر. هنا أعيش تقريباً لقاء لا شيء، وليس لديَّ احتياجات، وأوفِّر المال. الجبال موطني وهي أفضل من المقاهي ودور السينما والكالابالاغ(*) (الاضطرابات). لا أرغب في رؤية المدينة ثانيةً».

والشرطي الثاني، أعلى منه مرتبة، كان إنساناً أنيساً، ومع أنه مسلم، فإن لباقته ولطفه قد نالا احترام وحب اليزيديين الذين يعيشون قرب المزار.

مشينا معاً نتحدث ووصلنا فجأة إلى ممر مقنطر من حجارة رمادية، كانت تقف تحته خادمتان للمزار متشحتان بالبياض تشبهان الراهبات. كانت الكبرى امرأة في أواخر العمر المتوسط، ذات تعابير تدل على حلاوة وإباء فريدين، وكان اسمها كما علمت لاحقاً «ضيا كوته». وكأرملة من عائلة صالحة، اعتزلت العالم

---

(*) القلبالغ: كالبالك (تركية) وتعني زحام، حشد، تجمهر. (المراجع).

وجاءت إلى هنا، وأصبحت رئيسة الدير أو «كبانه» (Kabaneh)، في هذه الجالية الصغيرة من السيدات البيضاوات. وكانت الأخرى فتاة متدربة نذرت أن تمضي حياتها دون زواج في خدمة المكان المقدس. كانتا ترتديان فوق ثيابهما البيضاء ميازر من صوف أبيض حيك محلياً. وكان خماران ملفوفين على عمامتيهما البيضاوين النظيفتين ثم لفّ حول الجزء الأسفل من الوجه. كانتا تمشيان حافيتين، كما يفعل جميع اليزيديين في الأحرام المقدسة. وعندما جلستُ معهما لاحقاً في الفناء الأمامي لمعبد شيخ عدي، رأيت ثالثتهن تجلس على جدار قرب شققهن الخاصة. تذكرت على نحو غير واضح أنني رأيتها في زيارة سابقة لشيخ عدي منذ حوالي سبعة عشر عاماً. أصبحتْ الآن مسنة جداً وكان وجهها كثير التجاعيد والندوب. كان أنفها المعقوف الذي ينحني كي يقابل ذقنها يظهر في مظهرها الجانبي وهي جالسة على الجدار الرمادي. وكان ظهرها منحنياً وكانت تفتل مغزلها دون كلل بينما كانت أصابعها المسنة تحرر خيوطاً من قطن أبيض ملفوفة حول ذراعها اليسرى.

قلن لي: «إنها تغزل الفتائل» لأن غزل الفتائل لمصابيح المعبد واحد من أعمال النسوة المقدسات. كانت تبدو لناظري ـ وهي جالسة هناك مسنة ومستغرقة في العمل ـ مثل كلوثو (Clotho = واحدة من آلهات القدَر)(*) تغزل خيوط قدر البشرية. لم تنظر إلى الأسفل ولا مرة واحدة، بالرغم من أنها ـ لا بد ـ سمعت أصواتنا، إن لم تكن

---

(*) ربات القدر ثلاث: كلوثو ClLOTHO ولاخيسز LACHESIS وأتروپوس ATROPOS ويُصوَّرن يغزلن بخيط الحياة، ويقطعنه عندما يحين الأجل. ولهن أسماء أخرى في الأساطير الأوروبية ولاسيما في شمال أوروبا. (المراجع).

أصبحت صماء، ولم تقترب مني أثناء بقائي هناك أو تتحدث إليَّ. وفي إحدى المرات تقابلنا وجهاً لوجه، لكنها استدارت إلى الخلف فوراً. كان الوجه الجميل فارغاً والعينان العجوزان لا تريان. أخبرتاني أنها في عمرها هذا أصبحت صامتة ومنقبضة النفس، ولا تفعل شيئاً طوال اليوم إلا العمل بمغزلها.

استبقت الأحداث بحزن. أخذتني هذه السيدات البيضاوات والشرطة على طرق ملتوية تحت ممرات مقنطرة وعبر باحات قديمة مرصوفة يندفع ماء الجبل عبرها في أحواض مرصوفة؛ وبجوار معبد شيخ عدي نفسه حيث نُحتت الحية السوداء المشهورة على الحجر الطويل قرب المدخل، نزلنا درجات ومررنا تحت المزيد من الممرات المقنطرة، حتى وصلنا إلى الفناء الذي أكرم وفادتي عنده في زيارتي الأولى حراس المزار.

يقع هذا الفناء إلى الجنوب من المعبد، وعلى جانبه هناك غرف نوم الفقير ريشو ـ الكنَّاس ـ أو خادم المزار. اقترب ليستقبلني ووضع الوسائد على المصطبة الحجرية تحت عريشة من الأغصان، كي أستريح في ظلها بينما كان الشاي يُحضَّر ويُحلّى ويُقدم في كؤوس صغيرة مخصورة، طرياً مغلياً فوق نار مكشوفة من خشب الجبل. كانت عائلته تعيش معه هنا، لأنه بخلاف السيدات البيضاوات والشاويش الفقير، وبالرغم من حياة الزهد التي يعيشها، يجوز له الزواج. كان الكناس ـ أو الفراش كما كان يدعي أحياناً ـ يعمل خادماً للمزار مدة سنة فقط، ويدفع ثمن هذا الامتياز، الذي يُمنح لمن يدفع السعر الأعلى. دفع فقير ريشو للمير ثلاثمائة وخمسين ديناراً (350) عن سنة استئجاره، وفي السنوات العادية كان يأمل أن يكسب هذا المبلغ وأكثر بكثير من تقدمات الحجاج الذين يزورون

المزار، خاصة في عيد التجمع الكبير في الخريف، عندما كان الآلاف يسافرون إلى الوادي ويخيمون على سفوح التلال وفي الأكواخ الحجرية المنتشرة على جانبيه. كان الحجاج لايهبون المال وحسب، بل الجواهر والحلى الذهبية والفضية، بحيث إن القيم على المكان يغادر الوادي عادةً رجلاً أكثر ثراء مما كان عندما دخله. لكن توقعات سنة الحرب هذه كانت متشائمة.

واجباته استقبال الحجاج ـ وتلقي أجورهم ـ لكي يريهم المزارات وعلى نحو خاص معبد وضريح شيخ عدي، وأن يحافظ على نظافة الأماكن المقدسة ويكنسها، وعند كل غروب شمس كان يضيء المصابيح والأنوار المقدسة. لم يكن هذا عملاً سهلاً على الإطلاق. في كل ليلة كان يستخدم مَنَّيْن اثنين (Mans)(*) من زيت الزيتون في رحلة الإنارة، يعني ذلك ثلاثة عشر حقاً (Huqqas) كما قال لي. لم يكن الـ «منّ» يعني لي أي شيء، «والحق» هو أكثر المكاييل غموضاً، لذلك سألت فقير ريشو إن كان بإمكانه إعطائي فكرة عن معنى الـ: منّ. أجابني «إنه صفيحة بترول تحتوي منٍّ ونصف تقريباً».

كان الفقير ريشو ـ خادم هذه السنة ـ رجلاً صغيراً نحيفاً شاحباً من نموذج يختلف كثيراً عن قرويي بعشيقا الوسيمين الأصحاء، الأمناء. كان يبدو أكثر شحوباً ونحافة: كان وجهه النحيل ضعيفاً وعليه آثار الجدري، وعيناه سوداوين بلهاوين ونادراً ما كان يبتسم. كان من أهالي بعيدري حيث يعيش المير، لكن زوجته، تلك الفتاة الجميلة الممتلئة الجسم الحسنة الطباع التي ولدت

---

(*) مَنَّيْن = مثنى المَنْ وحدة وزن تساوي ستة حُقَقْ ونصف. (المراجع).

صبياً، وكانت ترضع الآن طفلة، كانت من بحزاني. كانوا يشتركون في الغرفتين مع امرأة أخرى ـ زوجة أخيه ـ وهو فقير رأيته في بحزاني، والآن يتجول مع القوالين والطاووس المقدس. كانت هذه المرأة زوجة والد حجي، الولد اليزيدي الذي رافقنا من بحزاني. وكانت لها أيضاً طفلة رضيعة. كانت هاتان العائلتان تأكلان، وتطبخان وتجلسان على الفناء المرصوف أمام غرفتيهما، تغسلان أطباقهما في جدول ينزل في قناة مرصوفة قرب المزار.

كنت آمل الكثير من الرسالة التي أرسلها رشيد معي إلى الشاويش، الحارس الدائم للمزار، لأنه كما أخبرني رشيد يتكلم العربية تماماً كالكردية، وخاب أملي عندما وجدت أنه ـ أيضاً ـ كان غائباً يتجول في القرية. قيل إنه رجل ذو معرفة، ليس في أمور الدين فقط، بل في أمور العالم وكنت آمل أن أتعلم الكثير منه. وحالما رأيت فقير ريشو ـ الذي كان يتلعثم باللغة العربية، أدركت أنني سأجد من الصعب أن أجد الحماسة الكافية، ولم يمضِ وقت حتى اكتشفت أنه كان متعصباً غيوراً في طبعه. لكنه كان كثير التدقيق حول واجباته كمضيف، وأن الغداء البسيط الذي ازدردناه عندما ذهبنا من عين سيفني، دعموه فيما بعد بوجبة قدموها لنا في مسكنهم. كانت تتألف من دجاج وأرز منقوع في الشنينة وكنا نفرغه في أفواهنا بقطع رقيقة من الخبز الكردي.

كانت غرفة الضيوف التي أخذني الفقير إليها، مبنىً صغيراً بُنيَ فوق غرفة حجرية، على بعد خطوات من حوض المعمودية وعن جدول سريع يسير فوق قناة مرصوفة، وللوصول إلى بيتي المرتفع المحاط بالنوافذ من جميع الجهات ـ سررت بستارات الكابتن سي ـ كان عليَّ أن أنزل بعض الدرجات من الطريق المرصوفة

التي تؤدي إلى أعلى التلة قرب أحواض المعمودية، كي أصل إلى الفناء الحجري الكبير حيث كانت أقواس عن كلا الجانبين تؤوي باعة متجولين وسلعهم في موسم عيد الخريف. وبعد ذلك قادتنا درجات أخرى إلى المصطبة الترابية التي تظللها شجرة ضخمة وقديمة جداً، ومنها كانت درجات أخرى تنزل نحو المصطبة الصغيرة الجديدة وغرفة الضيوف التي كانت تظللها شجرة توت وحيدة. كانت غرفة الضيوف الشيء الأقل جمالاً في كل المنطقة المكتظة بالمباني والباحات، فقد كان لها سقف حديدي، ولم تطرأ عليها أي تحسينات، في الداخل، كان المطر قد بقَّع الجدران قليلاً، لكن كانت هناك مقاعد للجلوس أو النوم، والكثير من الأوتاد لتعليق الثياب، وخزانة متداعية إلى حد ما فيها رفوف وواجهة زجاجية لم يبقَ منها سوى لوح زجاج واحد أو نحو ذلك. كانت مأوى ممتازاً ومريحاً على نحو استثنائي للمسافرين، وكانت كالقصر إذا ما قورنت بغرف الإقامة الكردية العادية التي يشتركون فيها مع الحيوانات.

وجود مثل هذا العدد الكبير من النوافذ أمر بهيج. في أحد الجانبين كنت أرى صخوراً وأشجاراً، وممراً صخرياً يؤدي إلى بعض الأماكن المقدسة الأخرى، ومن النوافذ الأخرى كان هناك منظر فوق مجمّع من الباحات القديمة والأقواس المقنطرة والماء المندفع، بينما كان القليل من ستائري يكفي لحجب أحد جانبي الغرفة عن الرجال الذين كانوا يجلسون طوال النهار على المصطبة تحت. هنا كانوا يلعبون الشطرنج بثمار البلوط وبعض حبات البازالياء والحجارة كقطع شطرنج، على رقعة مرسومة على الأرض بعصا مدببة: هنا كان الشرطة مع جدان وميخائيل يأكلون الطعام

الذي يُرسل إليهم يومياً من بيت الفقير، وهنا ـ بعد الغروب ـ كانوا يُحضرون أغصان سنديان كبيرة ويشعلونها ناراً ترتفع ألسنتها وتنخفض، ويجلسون حولها يتحدثون إلى أن يتغلب عليهم النوم. ثم كانوا يستلقون على بسط وألحفة وينامون حول النار. من إحدى النوافذ التي لم يكن عليها ستارة استطعت أن أرى الفقير كل صباح يقوم بجولاته بالنار المقدسة، وأرى ألسنة لهب صغيرة ترتفع حالما يضع الفتائل المشتعلة هنا وهناك في طريقه. كان يحمل طبقاً كبيراً من الزيت في يده اليسرى. كانت شفة واسعة قد لُحمت عليه، وعليها كانت هناك باقة من الفتائل المشتعلة، تتدلى أطرافها في الزيت. قبل الغسق بقليل (اختفى ضوء النهار في وقت مبكر، لأن الشمس الغربية اختبأت فوراً خلف الجبال)، انطلق حافي القدمين في جولاته، حاملاً طبقه ومغرفته. كان يضع هنا وهناك، على زوايا ناتئة من حجارة البناء أو الصخور، فتيلة كي تشتعل، وفي كل كوة، كان يصبّ زيتاً ويضع فتيلة جديدة مشتعلة في شفتها. وفي شيخ عدي، ما عدا المعبد، حيث كانت تستعمل المصابيح المربعة المشابهة لتلك التي رأيتها في الشيخ محمد، كانت المصابيح من الشكل الكلاسيكي القديم ومصنوعة من الحديد. وعندما اقترب الخادم ومعه أضواؤه، وقف الجميع ولم يعودوا إلى مقاعدهم حتى اختفى في ممر أو تحت قنطرة، ثم كان يظهر من جديد في مكان أعلى، بين المباني أو الصخور.

ومن جديد استبق الأحداث في حكايتي. كان واجبي الأول عندما يُكنس مكان سكني، أن أتخلص من الأمتعة وأنصب سريري الصغير. كانت هذه الأمتعة قد وصلت بطريق الممر المنحدر من لاليش على ظهور القرويين، وعلى رأسهم السائق نفسه، الذي

خجل قليلاً لأنه أخبر عزيزاً أن الطريق كانت جيدة. ظهر عزيز نفسه لاحقاً، بعد أن سحب سيارته من الطين بمساعدة القرويين. كان مندهشاً ومسروراً عندما دفعت له ربع دينار علاوة على السعر المتفق عليه وافترقنا بعلاقات طيبة، بعد أن وعدني أن يخبر المسؤولين في عين سيفني أنني أفضّل في رحلة العودة حيوانات تحميل، وأنني لن أحتاج سيارة حتى أصل إلى هناك.

كانوا قد جهزوا لي طاولة في حجرة الضيوف، وضعت عليها حوض الغسيل، لكن الفقير بدا منزعجاً عندما رأى مصباحينا المقاومين للريح (مصباح مزود بمدخنة) اللذين يعملان بالنفط. قال: «لا يمكن استعمال هذين هنا لأننا لا يجوز أن نحرق إلا زيت الزيتون». أشار إلى مصباحين صغيرين مثل الضوءين العاتمين الأحمرين اللذين يُشعلان أمام المذبح في الكنيسة المسيحية. كانا يحتويان ملء ملعقة أو نحو ذلك من زيت الزيتون وفتيلة واحدة. نظر ميخائيل وأنا، كلٌّ إلى الآخر، في شيء من الذعر.

سألت بتواضع «هل يمكن استخدام الشموع؟» ولم أذكر أن الشمع من شمع البترول.

بعد قليل من التفكير أعطانا الفقير إذناً بذلك. وتساءلنا إن كان سيمنع استخدام فرن البريموس الذي كنا نستعمله للطبخ، لأن ذلك لن يعمل بالتغذية من زيت الزيتون. لكنه لم يعترض أبداً. نصب ميخائيل موقد البريموس في الغرفة الحجرية تحت، وغضّ الفقير نظره بتحفظ عنه. كانت هناك عقبة أخرى. لم تكن التدابير الصحية متوفرة، لأنه لا يجوز لأحد أن يدنس الوادي المقدس. من أجل ضرورات الطبيعة، كان على الحاج أن يتسلق إلى الضيافة الوثنية في الجبال. ومع ذلك لاحظت أكواخاً تستعمل إسطبلات

في الفناء للبغال والخيول، وأنه لا مانع إذا بالت الحيوانات أو ألقت روثها. كانت القطط أيضاً تطوف في المكان، خفيفة الأقدام كالراهبات، لكن الكلاب كانت تُطارد حالما تقترب. وأحياناً كانت تفلح في التسلسل من القرية إلى الأسفل، بحثاً عن الطعام.

## الفصل السادس عشر

# شيخ عدي: حرم المعبد

**«من حوله حرم مقدس، والجدول الدائم الجريان الذي ينزل من الصخور ومن كل الجوانب تكثر فيه الخضرة من أوراق الغار والآس والسرو الزكية الرائحة».**

**ثيوكريتوس، قصيدة الحِكَم.IV**

طبقاً لعرف إسلامي، اتخذ الشيخ عدي بن مسافر، الذي توفي وله سمعة القداسة في عمر الشيخوخة حوالي العام 1163 ميلادية 559 هجرية، ملاذاً لنفسه ولتلامذته في دير مسيحي في لاليش في جبال هكاري، أي في الوادي الذي يظهر فيه ضريحه المشهور اليوم، وهذا المكان يذكرُ فعلاً بدير من العصور الوسطى والجو المفعم بالتنسك. الراهبات الثلاث بعمائمهن وأغطية رؤوسهن، والمرتديات ثياباً طاهرة من الرأس إلى القدمين، يكملن الصورة. يتحركن كالأشباح التي لا أجسام لها، يزرن المزارات أو يجلسن يفتلن بمغازلهن ويجدلن صوف خروف أبيض يصنعن خيوطاً، لعباءاتهن، أو قطناً أبيض لفتائل المصابيح. كنت أرى كل صباح

رئيسة الدير والراهبة المبتدئة تنطلقان في رتل أحادي في رحلة حجّ حول الكثير من المزارات، تقبلان الحجارة بورع بينما كانتا تجتازانها حافيتين. وبينما كانتا راجعتين في أحد الأيام، في ضوء الشمس المبكر لاحظت أن المبتدئة قد جمعت باقة من أزهار الحوذان القرمزي وغرزتها في عمامتها البيضاء كما لو أنها لا تزال تتذكر عيد الربيع، ورقصة الدبكة العنيفة والمسرات التي أقسمت على هجرانها إلى الأبد.

كانت الشمس تتحكم ببرنامج يومهما: فقد كانتا تتجهان نحو الشمس للصلاة، وكانت صورة هذا الجرم السماوي الواهب الحياة محفورة في كل مكان في المزارات. ولد شيخ عدي في حوالي نهاية القرن الحادي عشر في بعلبك في سوريا، على مرأى من الآثار الجليلة التي كانت تحتضن سابقاً معبداً لإله الشمس. ومن المحتمل أنه زار هذا المعبد الواسع الذي كان لا يزال حتى ذلك الحين سليماً. من المؤكد أنه غالباً ما كان يمر تحت باب معبد باخوس في بعلبك، الذي نحتت عليه نباتات الخشخاش والقمح بمهارة دقيقة ولبقة، تذكرً بالنص الصامت أن الموت ليس إلا نوماً ونسياناً، وأن الحياة الهاجعة لا بد أن تندفع من جديد نحو النور كالقمح. أحضر الصوفي معه هذه الذكريات عندما جاء إلى مكان الأمان المحمي هذا، حيث ضراوة الشتاء تضعف، ويجيء الربيع ويمكث طويلاً.

ليس هناك من شيء معروف عنه يتحدث عن أي شيء سوى استقامة الرأي، لكنه كان صوفياً، وكان يُشتبه أن عقائد الصوفية السرية تؤمن بوحدة الوجود (Pantheism= الله في كل شيء وكل شيء هو الله)، وأن الطوائف الصوفية تعزز العقائد القديمة. من

المؤكد أن ذرية أخويته «العدوية» كانوا دائماً يُتهمون بالإيمان بوحدة الوجود والوثنية، ومن الممكن أن يكون المبشرون البوذيون، أثناء مرورهم على طريق الحرير عبر بلاد فارس والشرق الأوسط، كسبوا على مرور القرون بين الباحثين عن الديانات أنصاراً لعقائد التقمص، إذ ليس اليزيديون وحدهم، بل الدروز أيضاً، يعتقدون أن الحياة على الأرض تتكرر مرات عديدة.

دخل جدان الذي خلع حذاءه في اللحظة التي مرّ فيها من المدخل إلى الوادي ومضى حافياً طوال مدة بقائنا هناك، ودخل المعبد فوراً (أو الكنيسة)، ركع أولاً وقبَّل الحجارة والمدخل ووقف لحظة يصلي صامتاً. ثم وضع تقدمته على حجر العتبة قرب النقش النافر للحيّة السوداء. يحتفظ هذا النقش بسواده الفاحم لأنه كان يمسح بمزيج من زيت الزيتون والمادة السوداء التي يتم الحصول عليها من دخان المصابيح المقدسة. وكم كانت دهشتهم كبيرة عندما لم أزر هذا المزار الأكثر أهمية من الجميع كي أقدم احترامي لضريح شيخ عدي. فقد كنت قد استكشفته في مناسبتين سابقتين ونويت هذه المرة دخوله في اليوم الأخير من إقامتي. أخبرت الفقير قائلة: «من الأفضل ترك الأفضل حتى الأخير».

وهكذا أرضيت نفسي بتفحص المبنى من الخارج. من الواضح أنه أُعيد ترميمه عدة مرات. وليس فقط الأعراف الإسلامية بل المسيحية أيضاً تدَّعي أنه كان مرة كنيسة لأحد الأديرة، ومن المحتمل أنه بدوره قد بني على موقع مزار وثني، لأن هذا الوادي، الذي تزوره شمس الصباح الأولى، ويسمع فيه خرير كثير من الجداول، لا بد أن يكون مقدساً منذ الأزمنة القديمة. للوصول إلى المعبد (دعونا نسمّه معبداً)، على المرء أن يعبر الفناء

الأمامي المرصوف بالحجارة، ذا التجاويف المقوسة على كلا الجانبين اللذين وصفتهما في الفصل السابق، ويمر تحت طريق قصيرة ذات قناطر فيها مقاعد عن الجانبين للاستلقاء أو الجلوس، ومن هناك ينزل درجات إلى بهو المعبد نفسه، المرصوف أيضاً بالحجارة الرمادية. عندما يكون باب هذا المعبد مفتوحاً نستطيع الرؤية مباشرة من هذا الممر المقنطر المعتم عبر الفناء إلى الداخل. وفي الداخل، أنير هذا الظلام الدامس بضوء ضعيف من النور المستمر لمصباح من زيت الزيتون. والفناء كبير نوعاً ما. والممر المقنطر الموصوف أعلاه الذي يوصل إليه، موجود في زاويته الشمالية الغربية ومقابل دار المعبد بالضبط، الذي تحرسه الحية السوداء الكبيرة في أعلى الجانب الغربي من الباب. يشغل المعبد كل الجانب الغربي من الفناء، وعلى حجرات الجدار الكبيرة هناك نقوش ومنحوتات غائرة، أو خطوط طُمس بعضها وبعضها الآخر واضح. وفي الجدار الجنوبي من الفناء هناك غرف: إحداها ـ وهي المخصصة لخزن الخبز المقدس ـ تحميها صورة غريبة فوق الباب لأسودٍ يقابل واحدها الآخر بفكين مفتوحين على خلفية حلية مسننة. فتحوا باب هذه الغرفة على مصراعيه، لكنني لم أدخل، لأن الأرض كانت مكسوة بالخبز، وفي العراق يعتبر الدوس على الخبز خطيئة، إذ ينظر إليه أنه طعام خاص من الله للحفاظ على حياة الإنسان. سرهم السبب الذي قدمته لعدم دخولي.

تؤدي درجات وممر مقنطر في الطرف الغربي من الحائط الجنوبي بانعطاف حاد إلى اليسار والأسفل، إلى الفناء الأسفل حيث يعيش الفقير مع عائلته وهناك يكرم الضيوف. وعلى بعد من

هذه الدرجات أيضاً هناك باب يؤدي إلى الشقق الخاصة بالسيدات البيضاوات وإلى غرفة علوية والمصطبة التي رأيت عليها راهبة مسنة تغزل. حجارة بناء معظم المجمع الكامل من المباني غير مثبتة بالملاط، مربعة ومستطيلة ومستوية إلى حد ما، وتبقى في مكانها بفعل ثقلها. كتل الحجارة ضخمة لكنها ليست من الحجم غير العادي: يبلغ طول الكتلة وسطياً قدم واحدة أو اثنتين، وقدم أو أكثر بالعرض. لكن الحجم يختلف على نحو كبير جداً وبعضها الآخر صغير. وفي الفرجات الفاصلة بين الحجارة هناك نباتات وأعشاب؛ وبين الحجارة المرصوفة في فناء المعبد هناك أزهار مرغريتا وأزهار سوسن صغيرة ذات رائحة عطرة تنمو بحرية.

والدوافع الرئيسة للتزيينات على الجدران، وعلى معظم المزارات في الوادي، هي الشمس والقمر (هلال وبدر) والنجوم (السداسية أو الخماسية هي الأكثر شيوعاً)، والأزهار التقليدية، والغوبال أي عصا الشيخ المعقوفة، والمشط الذي يقال إنه رمز لشعر ولحية القوالين والشيوخ. ولاحظت ـ خلافاً لما سمعت ـ أنه ليس هناك يزيدي لديه أدنى اعتراض على لفظة «مشط»، بالرغم أنني مرة سألت ضيا كوته ـ الكبانه ـ عما يمثل النقش على الحائط فقامت بحركة تشبه تمشيط الشعر، وكان ذلك ببساطة لأنها لم تكن تعرف الكلمة العربية.

على الواجهة الغربية من المعبد في الفتحة فوق الباب، هناك صورة لقرص الشمس الملتهب، وهذا القرص يحتوي في داخله هلالاً ونجمة خماسية وعلى كلا الجانبين نقوشاً باللغة العربية تسجل أسماء المانحين الذين رمموا أو أعادوا بناء المكان. تحيي معظم هذه النقوش في الوادي، والتي كان بعضها مكسوراً أو

مقلوباً رأساً على عقب، ذكرى أسماء الذين أعادوا بناء المزار، وكان بعضها الآخر غير واضح. والعصا (غوبال) مرسومة بأشكال أخرى بجانب الجزء المعقوف الذي يشبه عكازة المشي العادية. والجزء المعقوف يكون مستديراً بحيث يحيط بقرص شمس وعلى حجر آخر تنتهي العصا بهلال في القوس الذي نحتت فيه نجمة سداسية. هناك جسم غير منتظم ذو سبعة مسامير في نهاية العصا، وصفه الفقير بأنه «غورغيزة» أو صولجان. يقف بجانبه أسد مشوه الوجه أو بدائي. وعلى حجر آخر على واجهة المعبد أنبوب ذو خمسة ثقوب ـ الشبَّاب ـ خاص بالقوالين، وبجانبه جسم قيل إنه الكفكير، أي المغرفة الكثيرة الثقوب للبرغل، لكنها بدت لي عصا تنتهي بشمس. ولم تكن الحية السوداء الكبيرة سوداء فاحمة كما في الزيارات السابقة وكانت بحاجة إلى طبقة جديدة من مادة المصباح السوداء. وإلى جانب حجر الحية هناك جسمان قيل إنهما صولجان وملعقة. ولم أرَ في أي مكان من المعابد شكلاً بشرياً.

وبينما كنت أنتظر جدان كي يخرج من المعبد، لاحظت عقربة بيضاء وسخة كبيرة، أطلق عليها حجي اسم «دوبشيك»، كانت تكمن في تجويف نقش على الجانب الأيسر من الباب. أخرجها، وكان حريصاً على ألا يقتلها، وثبتها في الأرض المرصوفة، بينما كانت ترفع ذيلها فوق ظهرها، وتهاجم العصا تكراراً، فظهرت عليها بقعة رطبة من السم. شرح حجي أنه لا يجوز أن يُقتل أي مخلوق في هذا المكان المقدس؛ وعندما تم العثور على عصا أخرى، ضغط العقرب بين الاثنين ونقلها إلى بقعة أخرى أقل قداسة لإعدامها. عاد وهو يقول بعد أن تمت العملية: «والله كان في داخلها مئة واحدة صغيرة».

لو أن أحداً قُرص، ما كان عليه إلا أن يذهب إلى مزار «أبو العقربي». أكدَّ لي حجي، أن التراب من هذا المزار يشفي أي لدغة عقرب إذا وضع فوراً على الجرح، وأخذني لأراه. كان ينتصب على سفح التلة، التي ترتفع شاقولية على الجانب الشمالي من المعبد، مع عدد من المزارات والملاذات الأخرى الصغيرة للحجاج، والمبنية من الحجارة دون أبواب، والتي تبدو مثل المظاهر المألوفة في الطبيعة، والمستقرة على المنحدرات ذات المصاطب بين الصخور والبقع العشبية التي تزيدها الأزهار البرية حلاوة وجمالاً.

على مقربة من شيخ العقرب هناك المزار الهام للشيخ عبد القادر، وهو على ما أعتقد،ليس القديس الذي يحمل الاسم نفسه والذي مسجده في بغداد، مكان حج للمسلمين السنّة من جميع أنحاء العالم، بالرغم من أن هذا الصوفي العظيم كان معاصراً وصديقاً لشيخ عدي. كان هذا الشيخ عبد القادر «واحداً من رفاق الشيخ عدي». وعن الآخر، الأكثر شهرة ـ عبد القادر الكيلاني، كما أخبرني أحد اليزيديين منذ سنوات ـ أنه كان هناك ارتباط حميم بين روحه وروح الشيخ عدي بن مسافر بحيث لو أن هذا الأخير وقف في دائرة يعزى إليها بعض السحر الورع، فإنه يستطيع أن يتحدث إلى صديقه في بغداد «كما لو أن كلاً منكما يتحدث إلى الآخر باللاسلكي».

والمزار مزيّن بصورة للشمس، يحوي قرصها الداخلي ثلاث عشرة بتلة أو شعاعاً. تحت مزار عبد القادر مباشرةً وبجانب الجدار الشمالي للمعبد تنمو شجرة بطم ذكَرٌ قديمة، يعتقد الحجاج أن أوراقها، إذا وضعت على العينين، فإنها تشفيها وتوقف الإفراز

منهما. والفراغات الفاصلة في الجدار الشمالي على واجهته الخارجية مملوءة بقطع رقيقة من الحجارة والحصى الصغيرة.

أخبرنا حجي ـ وكان جدان قد انضم إلينا: «إذا وضع الحجاج حجراً هنا وهم يؤمنون، فإن أمنية قلوبهم تتحقق». وفوراً التقط جدان حجراً ووضعه بين الفراغات الفاصلة، وحذوت حذوه.

سألته: «هل يجب أن تكون الأمنية سرية؟».

«لا، من المسموح التصريح بالأمنية. ما كانت أمنيتك يا خاتون؟».

أخبرتهم أنني كنت أتمنى نهاية سريعة للحرب فهللوا بعمق. «يا لها من أمنية طيبة، بالله، أمنية جيدة».

خلف الجدار الجنوبي للمعبد، كما ذكرت سابقاً، يقع مسكن الكناس، لكن بينه وبين المعبد ممر شبه تحت أرضي، وتحته قناة ماء حجرية واسعة توصل الجدول المندفع إلى أسفل التلة. وعلى مسافات فاصلة فتحات مربعة تنتشر هنا وهناك يظهر منها الماء على فناء آخر خلف المعبد. هنا يغوص الماء إلى الأسفل من جديد باستثناء المكان الذي بقي فيه سيل الماء دون سقف، ـ في بقعة واحدة ـ لأغراض الشرب والغسيل. وعلى أحد الجدران هناك كومة كبيرة من خشب السنديان مكدسة، ومحفوظة هنا من أجل شيّ لحم العجل الضحية في موسم عيد الخريف الكبير. هذا الثور ـ الذي فهمت حتى الآن أنه يجب أن يكون أبيض ـ قد يكون حسبما أخبرني الفقير ـ من أي لون وغالباً ما يكون أسود. يقاد الثور حول مزار الشيخ شمس في موكب وبعض الأزهار على رأسه، ويُذبح تحت المزار مباشرةً بحيث يكون ذلك بوضوح تقليداً

للتضحية للشمس. عندما تقطع رقبة الحيوان بسكين مقدسة، ينشر مانح الثور عباءته بحيث ينثر بعض الدم فوقها، لأن هذا يجلب البركة له ولمن يهمه. أخذت هذه المعلومات من اليزيديين، لكن الفقير أنكر حكاية العباءة وعندما سئل عما كان يقال عند ذبح الثور. قال: «لا شيء سوى باسم الله». «كان ذلك بوضوح غير صحيح، وإنني أعرف أنني إن كان عليَّ اكتشاف ما يحدث في هذا الاحتفال الممتع، فإنني يجب أن أشهده بنفسي».

وبالذهاب حول الطرف الشرقي من المبنى، وبالمرور بجانب شجرة توت ضخمة، رأيت الماء يندفع تحت صخرٍ وحجارةً في الشلال: قد يكون هذا منفذاً إلى النبع (زمزم) الذي وصفته مس غرترود بِل والدكتور ويغرام عند المرور عبر المغارة تحت المعبد، بالرغم من أنني لم أستطع التأكد من ذلك. كانت شجرة توت ثانية تنمو هنا وكانت هناك درجات تؤدي صعوداً إلى غرفة كبيرة مقنطرة تستخدمها الحاجّات أثناء موسم عيد الخريف. وفي الجدار الشرقي من هذه الحجرة هناك حفرة، يُعتقد أنه إذا وقف شخص على بعد حوالي خمسة عشر قدماً، ومدّ ذراعيه ويديه أمامه، وأغلق عينيه وخطا إلى الأمام على نحو أعمى ونجح ثلاث مرات في إدخال رؤوس أصابعه في الفجوة دون لمس الجدار نفسه، فإنه سينال تحقيق رغبة سرية. إن أمنيات القلب لا تنال بسهولة.

كان الوقت قد تأخر، وعدت عن طريق فناء المعبد. فيه خزان من الماء الجاري، تطفو فيه أحواض خشبية (شقافق =shaqafaq)، وعندما نظرت فيها رأيت في الماء الرائق سمندل ماء أسود وأصفر وهو الذي تتميز به مياه الوادي المقدسة. وهذه الزواحف، تكون بطول سبع أو ثماني بوصات عندما تكون مكتملة النمو، وتعتبر

مقدسة ولا تُقتل. بمثل هذا التلون الشديد من المؤكد أن هذه المخلوقات تكون سامة، لكنهم أكدوا لي أنها ليست كذلك.

تمنيت لحجي وعمه ليلة سعيدة وعدت وحيدة عبر الباحات المعتمة ووصلت مسكني فوق الماء الصاخب. كنت أسمع صوته الذي لا يتوقف كلما استفقت في تلك الليلة. ولولا ذلك كان الصمت عميقاً. وحتى في النهار كان ثغاء الماعز والغنم لا يُسمع أبداً في الوادي، ولا حتى خوار البقر: كان حرماً للسناجب والطيور. فوق اندفاع الماء المسرع بمحاذاة ممره المرصوف كنت أسمع أحياناً نداء موسيقياً وحيداً كأنه لؤلؤة تسقط في الليل، أو نغمة مفردة من ناي قوال. في إحدى الأمسيات سألت ما هذه، فأجابوا أنها كانت طيراً اسمه توتوي (ألطِطَّوي) (Totoy). قالوا: «إن العندليب أيضاً يغني في الليل لكنه لم يأت إلى هذه المرتفعات بعد».

## الفصل السابع عشر

# مزارات الشيخ عدي

«من مكان قريب جداً كان الماء المقدس ينبثق من كهف الحوريات بهمسات عذبة الأنغام».

ثيوكريتوس/الانشودة الرعوية VII

بينما كنت مستلقية في الفراش في صباح اليوم التالي، وبَخَّت نفسي على الانطباع المشوش الذي أخذته عن المكان بمجمله. قررت أن أرسم خطة واضحة عن المزارات في ذهني، واستكشفت متاهة المباني والصخور طبقاً لنهج معين. قلت لنفسي معتذرة «إن مصدر القلق هو أن المكان كله جميل وغير متوقع، وهو معقد وتنمو فيه الأزهار بحيث إن المرء يُغرى على الابتعاد مثل رِد رايدينغهود ( بطلة حكاية ليلى والذئب) في الغابة وينسى حتى تسجيل الملاحظات، وتكون النتيجة أن جميع الملاحظات الهامة عن الواقع تصبح غامضة بسبب تذكر مباهج صغيرة لا علاقة لها بالموضوع».

لذلك بعد أن أحضر لي ميخائيل طعام الفطور إلى المصطبة

المشمسة، ووضع الطاولة في ظل شجرة التوت، أخرجتُ قلم رصاص ودفتر ملاحظاتي السميك وقررت أن أكون حية الضمير. وضع حجي نفسه تحت تصرفي بالكامل، كان يعرف المزارات وكان مستعداً كي يأخذني إلى كل مكان.

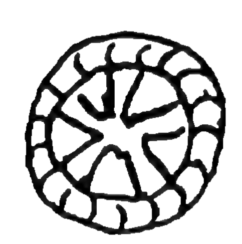
بدأت بأحواض المعمودية. من بين الاثنين المفتوحين، كان الأدنى هو الذي يستعمل للمعمودية. في كليهما يستطيع المرء أن يرى سمندل الماء الغريب الأصفر والأسود على القاع الحجري. يُملأ جرن المعمودية من الأعلى بالماء الذي يخرج من فوهتين، ووسطُ أرضه أعمق من جوانبه بدرجة، بحيث إنني أفترض أن المعمدان ـ الذي قد يكون قوالاً أو ميراً ـ يقف على أحد المستويين والشخص المعمَّد على الآخر. هناك ممر مقنطر صغير ـ يغلق بباب خشبي ـ يسمح للماء بالجريان إلى الأسفل من غرفة أعلى، ومدخلها في الأعلى. سألت عن المعمودية مرات عديدة. لا يعَمد سوى الذكور في الحوض المكشوف، واليزيديون ـ مثلهم مثل المسيحيين ـ يمرون في هذا الطقس مرة واحدة فقط، لكن المعمودية ليست ضرورية للخلاص، ولا تعتبر إذناً بدخول الطائفة، بل تمنح القداسة والطهارة والبركة فقط. ولا يمكن القيام بها في مكان آخر، وإذا منعت الظروف شخصاً من المجيء إلى شيخ عدي فإنه لا يكون في خطر أن تصيبه الآلام والعقوبات. وهذا الطقس يمكن القيام به في وقت متأخر في الحياة، لكن من واجب كل يزيدي أن يجلب أطفاله إلى الوادي المقدس من أجل هذا الطقس. يعرَّى الرضيع أو الطفل أو الشاب من جميع ثيابه ويغطس ثلاث مرات بالكامل. الفقير ـ أو المير ـ لا يتعرى، بل يرتدي ثياباً جديدة لهذه المناسبة. لا يصلِّي صلاة كاملة بل ينادي

باسم الله فقط (هذه المعلومات من الفقير مقبولة مع التحفظ). يدفع الولد خمسة وسبعين فلساً (حوالي شلن واحد و6 بنسات) من أجل معموديته، والبنت خمسين. والبنات ـ اللواتي يُعرّين أيضاً ـ يغطَّسن في الغرفة المغلقة فوق. وللوصول إليها يصعد المرء بضع درجات إلى يسار الخزانات، حيث هناك باب منخفض يتيح الدخول. لم يكن المفتاح مع حجي لذلك لم يكن بالإمكان إلا تخمين شكلها بالاستماع إلى أصوات الماء المندفع في الداخل. تعلو المداخل نقوش بالية بالعربية والحجارة السبع التي تتشكل منها عضادتا الباب وعتبته، مزينة بنقش نافر قليلاً، يُظهر الفن الحرفي الجيد. والتصميم الفني الرئيس مزهرية لها قمة تشبه الزهرة، وحلية ثلاثية الوريقات ـ أو زنبقة (شعار ملوك فرنسا القدماء) تزين جسم المزهرية التي تقف على منصة واضحة محددة المعالم. على كلا جانبي المزهرية تظهر مقابض أو مسكات تشبه سوقاً أو أغصاناً ذات نهايات زهرية الشكل. هناك غرفة أخرى ـ مغلقة أيضاً ـ تقع فوق غرفة معمودية البنات، لأن الاثنتين مبنيتان على جانب التلة. وغرفتا المعمودية والخزانات يتوّجها مخروط أبيض، ويعرف الجميع باسم كان يسبي (Kan Yasbi). يلاحظ على جدران هذا المزار ومزار الشيخ شمس ـ الذي تؤدي إليه الدرجات بجوار الغرفتين، أن فكرة الصليب مهيمنة على كتل حجرية مزينة تشاهد هنا وهناك. مقابل غرفة البنات هناك شجرة صغيرة مجففة رُبِطت إليها كثير من قطع القماش وفاءً لنذر. تطلب الحاجات قطعة صغيرة من خشبها، يعلقنها حول أعناق أطفالهن الرُّضَّع اعتقاداً منهن أنها تطرد العين الشريرة. وبين الحجارة المرصوفة تبرز أعشاب وأزهار المرغريتا والحوذان والهندباء البرية والياقوتية.

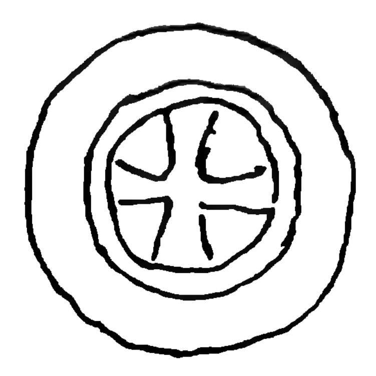
يقع مزار الشيخ شمس ـ الثاني في الأهمية بعد مزار الشيخ عدي ـ في أعلى مجموعة من الدرجات. لاحظت أن اللقب الرسمي للمزار ـ شيخ شمس الدين ـ كان يستعمله اليزيديون قليلاً، وفي الواقع ـ أظن أن أي إنسان اسمه شمس الدين (Sun -of- the- Faith) قد كسفه منذ زمن بعيد إله الشمس نفسه. كان هناك شيخ شمس الدين حقيقي، واسمه الكامل كان حسن بن عدي شمس الدين. كان اسم (the faith = الدين) هو جزء من الاسم، يقدم قناعاً إسلامياً ملائماً، والشيخ شمس قد لا يكون سوى اسم الإله القديم شميش (Shamish) الذي لا يزال جيرانهم في الجنوب، المانداثيين ـ يصلّون له صلاة غير صادقة. والشمس إضافة إلى روح المكان الغامضة والتي إشارتها المنظورة هي الماء الوثاب، هي الألوهيات أو ربما يجب أن يقول المرء إنها رموز لله الكلي التكريم في الوادي على نحو كبير. والأسد الذي يظهر على كثير من العتبات هو حيوان الشمس، وتظهر الكثير من رسوم الشمس المرة تلو المرة، يرافقها أخوها الجرم السماوي الكبير، القمر والنجوم الملازمة.

ينتصب رواق معمد أمام باب مزار الشيخ شمس، وفوق هذا الباب حُفر ما يشبه مخروط برج يزيدي، وبجانبه هلال ونجمة. وهناك حجارة أخرى مزينة على الجدران من الجهة اليسرى. وإلى يمين الباب نحتت حية بوضعية التمدد العادية. وعلى وجه حجر العتبة هناك نجمة، وعلى الجدار إلى اليمين، غوبال أو عصا معقوفة. عند مدخل المزار خلعت حذائي، لكن الضريح بداخله ليس جديراً بالملاحظة. تستمر الدرجات صعوداً إلى السقف الذي تقف عليه القاعدة الصلبة للبرج المستدق المحزز. ويعلو هذا

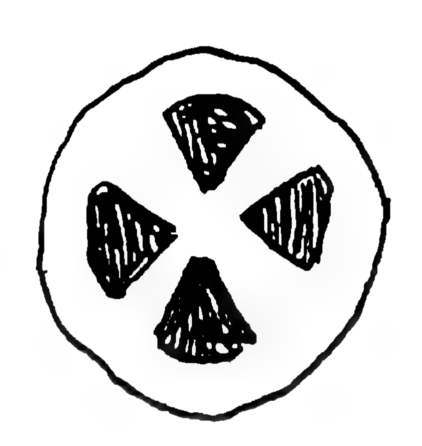
الأخير كرة ذهبية أو مطلية بالذهب. وينتصب المزار إلى ارتفاع أكبر من كرة الشيخ عدي بكثير، ويتوجب على الكرة أن تدرك الأشعة الأولى للشمس المشرقة عندما يبدأ ظهورها في الوادي.



في طريقنا الى الشيخ شمس نشاهد على الحائط شكل يشبه حبل له حافة



في طريقنا الى مرقد الشيخ عُدي أول شيء يشاهد على السلم فوق القوس الكبير



على جانب القوس في شيخ شمس

ديكورات من شيخ عُدي

تقع المصطبة ذات الأزهار والأعشاب عند مستوى التلة التالية على مستوى سطح الشيخ شمس، وبعد أن ابتعدنا عن السطح نحو الجهة الجنوبية وصلنا إلى مزار السيدة فخرا (Lady Fakhra). وكما قلت في فصل سابق، هذه القديسة راعية النساء أثناء المخاض، ويساعد الغبار المأخوذ من مزارها في الولادة إذا وضع تحت الوسادة أو إذا شربته المرأة مع قليل من الماء. والنساء العقيمات يضعن طيناً مصنوعاً من الغبار على رؤوسهن عندما يزور رجالهن سرير الزوجية.

هذه بقعة جيدة للتأمل منها إلى الوادي تحت، حيث ترتفع الأبراج المستدقة من بين الغابات المورقة، لكن هنا وهناك على الجوانب الصخرية للتلال على كلا الجانبين تقوم أكواخ الحجاج أو المزار الأصغر دون أبواب. والأقواس القاتمة اللون التي يمكن رؤيتها من بعيد تبدو كالعيون الساهرة. كانت النحلات تطن بين الأزهار، وعلى الدرجات نبتت أزهار من نوع الزنبق تنحني أجراسها القشدية اللون نحو الأسفل وتتأرجح مع ثقل الحشرات الزائرة.

والمزار التالي على الجانب كان مزار نصر الدين. مبنى بسيط مقنطر من دون فناء أمامي أو حتى مدخل. بدلاً من الباب هناك قوس مزدوج وهناك أسد غير متقن يحرس الجهة اليسرى من المدخل، وحية ملتفة تحرس الجهة اليمنى منه، وهي الحية الوحيدة التي رأيتها في هذه الوضعية في شيخ عدي.

إلى الأعلى قليلاً وصلنا إلى مزار قاضي بيلبان (Kadi Bilban). فوق مدخله أسد آخر غير متقن، فكاه مفتوحان وذيله منحنٍ فوق ظهره، وعلى كلا جانبيه حيّات متمددة عمودية من النموذج

اليزيدي العادي. للمبنى مدخل ثان مزين أيضاً، تشمل نقوشه غوبالاً (عصا معقوفة) وإلى يسار التلة نزولاً هناك شجرة مقدسة بجانبها كوى للمصابيح. أخبرني حجي أن الغبار من مزار نصر الدين مفيد للاضطرابات المعدية ويشفي من الإمساك. عبرنا الآن رأس الوادي الكثير الأزهار بعد أن نزلنا منحدراً شديداً وعبرنا فوق المعبر جدولاً كانت تخفيه في بعض الأماكن شجيرات عليق متدلية، صعدنا التلة التي ترتفع على الجهة الشمالية من الوادي.

هنا مغارة في الوجه الصخري، دخلناها لأن حجي قال إنها مزار تزوره النساء على نحو خاص. في وسطها عمود مغطى بالاسمنت ومدهون بالكلس لم أكتشف إن كان هذا الجسم المنتصب طبيعياً أم لا. تقوم النسوة باحتضانه بالذراعين، ويحاولن أن يجعلن رؤوس أصابعهن تلتقي، ويصلين إن ـ كن عقيمات ـ أن تُفتح أرحامهن، وإذا كن غير متزوجات أن يفضّ زوج محتمل بكارتهن. تجلب كل متضرعة معها تقدمة، وعندما تتحقق أمنيتها تقدم هدية عرفاناً بالجميل. يدعى الكهف ـ أو بالأحرى العمود ـ أوستونا مارضا (Ustuna Mardha).

وفي مكان قريب جداً ـ على سفح التلة نفسها ـ هناك مُصلّى صغير مستطيل، يختلف شكله وهيكله كثيراً عن أشكال وهياكل المزارات الأخرى. فالحجارة التي بني فيها مشكّلة بحذر، وفي الأعلى يهوًى بحجارة صغيرة موضوعة طولانياً على مسافات منتظمة. ليس هناك أي ملاط بين الحجارة وهي منحوتة على نحو جيد بحيث إنها تستلقي متوازنة. فوق الباب نقش نافر قليلاً لنمرين مربوطين بالسلاسل يواجه أحدهما الآخر، وعلى واحدة من عتبات الباب رسم يمثل سلسلة. هذا هو مزار بير حجالي (Pir Hajjali)

الذي تستطيع قوته الغريبة أن تشفي من الاضطراب الشديد. إذا مزج الغبار من هذا المزار بماء من النبع المقدس ووضع على الرأس، فإنه يقال إنه يعيد سلامة الذهن إلى الذين انحرفت عقولهم؛ وذوو الأمراض المستعصية أو العنيفة يتم إحضارهم إلى هذا المكان ويُقيَّدون بالسلاسل طوال ليلة أو حوالي ذلك، إلى أن يطرد القديسُ روحَ الجنون التي تتلبسهم.

هناك مزار آخر ـ على الجانب الشمالي من الوادي ـ يدعى شيخ اسماعيل (Shaikh Simail)، لكنني لم أستطع أن استنبط بوضوح القيمة الشفائية للغبار من هذه البقعة. تمتم حجي بشيء ما حول «الهوا» (الريح)، وهو الاسم العام لجميع الآلام الجسمية، سواء أكان سببها تطبُّل البطن، أو الروماتيزم أو ذات الرئة.

ذهبت بعدها في مهمة إلى مامه ـ زوجة الفقير ـ في مكان سكنها. في الباحة مررت باثنين آخرين من سكان المزار، أحدهما شاب يزيدي في العشرين من العمر، قد يكون أقارب الفقير، والثاني شيخ ذو لحية بنية ولطيف يستحق الحب. كان بالعادة يشاهد على حجارة الرصف تحت العريشة يقطع الخشب، لأنه كان يصنع ملاعق من خشب السنديان الذي يقدمه الوادي. فالملاعق التي تأتي من هذه الأماكن المقدسة يقدّرها الحجاج وغيرهم كثيراً، والشيخ يتجول على القرى اليزيدية بالملاعق، أو يعطيها للحجاج ويتلقى مقابل ذلك أعطيات من المال، أو خروفاً أو عنزاً أو حتى دجاجة. ليست هذه أثماناً بالمقابل، لكنها هدايا، وبهذه الطريقة بدا أن الشيخ استنبط طريقة لكسب العيش. عندما عدت إلى بغداد كنت أمتلك واحدة من هذه الملاعق، وقد زَيَّنَهَا واحد من أصدقائي الشرطة بنقش.

في وقت لاحق من النهار زارتني سيدتان: ضيا كوته وضيا روزه: وهما بالترتيب ـ كابانا ـ أو رئيسة الدير ـ وراهبة مبتدئة. وصلت الاثنتان والمغزلان بأيديهما. كان مع ضيا كوته جلد صوف خروف أبيض على ذراعها وكانت الراهبة الجديدة تغزل الخيوط للفتائل. كان عليَّ أن أنادي جدان كي يترجم لنا، لأنهما لا تعرفان أي لغة سوى الكردية، لكنه كان مترجماً سيئاً. فإذا أصبحت المحادثة أكثر من «ما هذا؟» و«ما ذلك؟» فكان يفسر طبقاً لأفكاره أو كان يخفق ويقهقه بعصبية. بقيت السيدتان وشربتا الشاي معي، ثم غادرتا، وظهر الفقير مباشرةً ليقوم بجولاته ومعه طبق الفتائل المشتعلة، التي كان قد أشعلها بجمرة أخذها من موقد نار القهوة: كان استعمال الكبريت يعتبر تدنيساً. لاحظت أن الشيخ ـ عندما كان يشعل غليونه ـ كان يستعمل حجر الصوان والصوفان.

تقدم الفقير ريشو بسرعة، يتنقل هنا وهناك على قدميه الحافيتين صاعداً الممرات الصخرية والطرقات المرصوفة، يضع فتائله في الأماكن المعتادة التي سوَّدتها قرون من الإنارة، يقف بين حين وآخر كي يزيل بعض الزيت بمغرفته. كانت نتيجة خدماته أنه عندما كانت الشمس تترك الممر الضيق، كانت ألسنة لهب صغيرة تقفز إلى الأعلى مثل الأزهار في كل مكان وتنطفئ حالما تُستنفَد الفتيلة، وعندما تسقط خيطان متفحمة ـ صغيرة وهشة ـ إلى الأرض أو عندما تُطفأ. ظننت أن النسّاك الذين كانوا يسكنون هنا كانوا يرون في هذه الألسنة رمزاً للحياة الإنسانية، سدس ساعة من الحياة ثم انطفاء أسود إلى أن يصب الخادم الإلهي زيت الحياة من مخزونه الذي لا ينضب.

بعد أن مر بقليل، انطلقت ضيا كوته والراهبة المبتدئة في زيارتهما المسائية إلى المزارات في الوادي. بعد أن ألقيت نظرة عليهما وهما تنزلان، تبعتهما من مسافة حذرة، وعندما وصلت إلى الفناء أمام المعبد رأيت الصغرى ـ المبتدئة ـ تصلي عند باب المزار المفتوح، تحدق نحو وميض المصابيح الباهت في الظلمة في الداخل. كانت تصلي ويداها ممدوتان، وراحتا كفيها نحو الأعلى، ثم انْحَنَتْ إلى الأرض وقبّلت حجر العتبة؛ ثم الحجارة بجانب الباب، ثم الجدار الخارجي في أماكن متعددة. انتقلت كالطيف في أنحاء فناء المعبد، واضعة شفتيها على حجر هنا، وحجارة زاوية هناك وبعض الأحيان على أحد حجارة الرصف بطريقة منهجية، كما لو أنها ببساطة تقوم بالروتين المعتاد. سمعت صوتاً طفولياً من مساكن الراهبات يقول إن الطعام جاهز. كانت ترافق ضيا كوته دائماً فتاة صغيرة وكانت ـ كما أخبرتني مامه ـ ابنة أخيها. لم تُبدِ المبتدئة أي إشارة تدل على أنها سمعت؛ ولم تسرع. هناك في الأعلى، عند الغسق شاهدت الراهبة العجوز على العشب تذهب للعشاء، منحنية تمشي ببطء، أما أنا فتساءلت إذا كانت ابنة أخت رئيسة الدير الجميلة كتب عليها حياة العبادة هذه. وإن كان الأمر كذلك فهل ستنتهي مثل هذه المخلوقة المسنة المشابهة لنورن (إحدى آلهات القدر الثلاث السكندينافيات). لن تنتهي ضيا كوته بهذه الطريقة على ما أظن. جاءت إلى هنا أرملة وخلفت حياتها وراءها وهي إضافة إلى ذلك أكثر ذكاء بكثير من أن تصبح القشرة الفارغة التي كانت كل ما بقي من أختها المسنة. بعد كل عواصف حياتها العلمانية هي في أمان هنا، وابتسامتها ابتسامة من وجدت الملاذ والسعادة.

جاء إليَّ حجي ـ الولد اليزيدي ـ بعد ذلك بقليل ونظرة حزن على عينيه البنيّتين. لماذا لم آكل؟ لماذا رفضت اللحم والدجاج اللذين أرسلها الفقير لنا؟ شرحتُ له أنني كنت قد أكلت واستمتعت بالأرز والبرغل واللبن الرائب وماء النبع، لكن يجب ألا ينزعجوا من رفضي تناول الطعام لأنني لم آكل من ذلك الطعام أبداً، ولا في بيتي الخاص.

سألوني «هل أنا صائمة؟» وذلك بسبب وجود دافع ديني هنا لمعظم الأمور.

«لا»، قلت وحاولت أن أوضح أنني أفضل الوجبة التي لا لحم فيها. دهشوا من ذلك، وأظنهم في النهاية فسروها بسبب نذر معين. ألا يصوم اليزيديون قبل ابتلاع التراب المقدس؟

بينما كنت واقفة في الفناء الأمامي في تلك الأمسية، رأيت كوكب الزهرة (Venus) راكباً سماء الليل.

«ليلى!» قال جدان وهو ينظر إلى الأعلى.

بحث عن «مجنون»[1] في السماء، لكننا لم نستطع أن نرى نجوماً أقل لأن ليل الربيع كان لا يزال نيراً.

قال جدان: «يقولون إن هذين كانا عاشقين وإنهما عندما توفيا، أصبحا نجمين بقوة الله. يقولون في الصيف تذهب «ليلى» إلى الأماكن الحارة مثل بغداد، لكن «مجنون» يذهب إلى البرد، إلى الجبال. والاسم الحقيقي للولد يا خاتون، نسيت، المجنون لم يكن اسمه الحقيقي، فقد سمي هكذا لأنه كان مجنوناً في حب ليلى».

---

(1) مجنون، ممسوس.

أجبته: «يا جدان! أعرف الحكاية. قرأت أنه بحث عن ليلى في كل مكان وكان يراها في الأزهار وفي الغبار نفسه لأن صورتها سكنت قلبه وكانت تتراءى لناظريه دوماً».

«نعم تلك هي الحكاية!».

نظرنا لحظة إلى ليلى، تتهاوى في السماء الصافية، ثم تمنيت له ليلة طيبة، وصعدت إلى سكني قرب الماء المندفع، وخلدت إلى النوم فوراً.

## الفصل الثامن عشر

# مكان هدوء لا حدود له

«ما قصدنا الجنان ولا حُورَها

قصدنا نظرة من أجلها».

الشيخ عدي بن مسافر،

«كتاب فيه ذكر النفس»

استيقظت بعد الساعة الرابعة بقليل، ولما رأيت أن السماء تتوهج باللون الوردي القرنفلي، لبست بسرعة سترة دافئة، لأن هواء الجبال قارس عند الفجر، وتجولت في الخارج، أمشي بهدوء بينما كنت أمرّ بالنائمين المتلفعين ببطانياتهم حول قطع من جذوع الأشجار السوداء من أمسية الأمس.

لم أتقدم في الفناء، بل صعدت إلى منصة حجرية صغيرة خلف شجرة نبتت هناك قبل المزار. وكما في الليلة السابقة، كان باب المعبد مفتوحاً، وفي عتمة الداخل شع نور اللهب الأصفر الثابت المنبعث من مصباح زيت زيتون. هنا ـ كما من قبل ـ وقفت إحدى السيدات البيضاوات ـ هذه المرة ضيا كوته ـ تصلي كما صلّت

الراهبة المبتدئة في الليلة السابقة، تواجه الشرق والمصباح في الداخل ينتصب في وسط طريق الشمس المشرقة. عند هذه المرحلة تذكرت، بالرغم من أن القوال قد أخبرني أن اليزيدي يجب أن يتجه نحو الشرق في كل وقت صلاة، أن الراهبة المبتدئة كانت قد وقفت في المكان نفسه تتجه إلى الجهة التي توجهت إليها رئيستها في هذه اللحظة. لم أكتشف إن كان المصباح يرمز إلى الشمس، أم أن الأولوية هنا لقداسة المزار. لكن عند الفجر كانت القِبْلة مشابهة لأن المعبد كان موجهاً كالكنيسة المسيحية التي ـ ربما ـ كانت هنا يوماً ما. بينما كانت الراهبة تصلّي وتنحني عند العتبة، جاء هر أصفر ومسح نفسه برقَّة على ثوبها الأبيض، وقوَّس ظهره وضغط رأسه عليها. كانت حركاتها تشبه تماماً حركات الراهبة المبتدئة في الليلة السابقة، وكان التجول في المكان المقدس هو نفسه من حيث تقبيل الحجارة المقدسة والمرور من مكان إلى آخر، والهر يتبعها وقوراً منتصب الذيل.

في هذه الساعة من الفجر كان هناك صمت مطلق باستثناء أصوات الطيور البرية، التي لم تكن أغانيها المفاجئة لتحية النهار تُسمع إلا للتو فوق تدفق واندفاع المياه المتسارعة. وقفت هادئة جداً مختبئة تقريباً تحت شجرة التوت، وراقبت هذا الشكل الإنساني الهادئ وهو يتحرك غير مدرك لوجودي. مرت من اليمين إلى اليسار تقبّل حجراً مسوَّداً بعد آخر، والهر الأصفر يتوقف عند كل واحد كأنه مساعدها. فجأة مرّ الشيخ وعندما رآني هناك متجهة نحو الشرق، ابتسم لي ابتسامة خجولة لطيفة. رأيته يتنقل هنا وهناك في الفناء الأمامي عندما كنت عائدة، يقبل الحجارة المقدسة، في الضوء الخافت، لأن الضوء الأصفر الذي غزا المرتفعات العليا لم

يكن قد وصل إلينا بعد. وعلى الصخور فوق غرفة الضيوف عندما وصلتُ إليها، رأيت ابن الفقير ريشو الصغير - سليمان - وهو طفل في الثامنة - يصعد التلة وحيداً يضغط بشفتيه على حجر مقدس بالطريقة المستغرقة نفسها كما يفعل الكبار منهم.

إزاء هذه الصلاة الصامتة العفوية، وهذا التبجيل المميز الذي لا يتوقف للأمكنة المقدسة، أستطيع أن أجد شيئاً أكثر إثارة من الصلاة الجماعية لحشود منظمة تجمعت تحت السطوح لتصلي أو تنشد من الكتب، أو من مواعظ تلقى على رعية كاد الملل أن يصيبها وقد أجلست على مقاعد المعبد بارتياح. عندما ارتديت ملابسي وصعدت في الوادي سمعت الطيور تطلق غناءها الصباحي في سرور مستمر طويل. كنت راضية عن نفسي لأنني جئت كي أنزل في هذا المكان في وقت لم يكن فيه أي حج أو عيد. كانت زوجة الفقير، التي تحب الحركة والبهجة، بليغة عندما وصفت لي عيد تجمع الخريف الكبير، عندما يحتشد الآلاف في الوادي، وتكون الأكواخ الحجرية ممتلئة بالحجاج ذكوراً وإناثاً، والفناء الأمامي يكتظ بالباعة المتجولين لكنه تحول الآن إلى بازار بلدة مؤقت. وصفت لي البهجة التي تعمّ الباحات حيث يرقصون الدبكة بأذرع متشابكة يدورون ويدورون فوق حجارة الرصف الرمادية، والمير اليزيدي وأبناؤه يراقبون من المصطبة حيث كان رجال الشرطة في هذا الصباح لا يزالون نائمين.

وكنت أحب أن أشاهد العيد أيضاً، لكنني كنت مسرورة أنني جئت لأنزل هنا عندما كان المزار في حالته العادية من العزلة. وأنا مسرورة أيضاً أنني نهضت باكراً ورأيت المزار في أقدس لحظاته عند الفجر الأول. لأنني عندئذ اقتنعت أن بعض اليزيديين، العاجزين عن

الإفصاح والذين يلفهم الغموض بشأن عقائدهم الخاصة ومبادئهم، يمتلكون إلى درجة نادرة موهبة ـ حساسة مثل هوائي الحشرة ـ تجعلهم يدركون الأشياء خارج العالم المادي. إن لهم الموهبة في أن يكونوا هادئين وهم يتعبدون، وهي جوهر الديانة بالذات. ومن بين جميع الأماكن المقدسة التي زرتها، خلال ستين سنة من الحياة في الشرق والغرب، يبدو لي وادي الشيخ عدي هذا ـ وهو محجة واحد من أكثر شعوب العالم التي اضطهدت وشُوِّهت الحقائق عنها إلى حد بعيد ـ المكان الأكثر جمالاً وقداسة. هنا قد يجد المرء روح الكأس المقدسة، أو ربما روح الورع الفرح لقديس أسيسي (Saint of Asisi). يبقى هنا شيء غيرَ ملوث، خالداً وجميلاً: شيئاً هادئاً كهدوء النفس وصافياً كصفاء الروح.

وبينما كنت جالسة على المصطبة أتناول طعام الفطور، رأيت ضيا كوته والراهبة المبتدئة تعودان نازلتين عن المصاطب الصخرية في ضوء الشمس الساطعة وفي أيديهما باقات من الأزهار البرية. ذهبت فيما بعد لزيارتهما أحمل هدية من ثلاث تفاحات استرالية ذات خدود حمراء. لم تستقبلاني في منزلهما بل وضعتا لي وسائد على جدار المعبد، بجانب الحية السوداء مباشرة، وجلستا بجانبي على حجارة الرصف ولفتّا لنفسيهما لفافتي تبغ، فقد كانتا تعتقدان أن التدخين ليس خطيئة. كانت لدي أسئلة كثيرة أودّ طرحها، لكن كالمعتاد أفسدت ترجمة جدان السيئة الجهد المشترك. كان شرطينا الطيب، عندما وجهت لهما سؤالاً، يود أن يجيب عنه بنفسه من جهله، بالرغم من قولي «سلهما» أو «أخبرهما». لكن كياستهما ونيتهما الطيبة ساعدتا جهودنا المتعثرة. ومن جديد ألح عليَّ جدان كي أدخل المعبد، وعندما أعطيته الجواب نفسه كما فعلت من

قبل، أضفتُ: «ادخل أنت يا جدان!»، فقد كان واضحاً أنه يريد فعل ذلك.

أجانبي بحزن شديد: «لكن ياخاتون! لن يسمح لي الفقير بالدخول دون كرامة»، وبكلمات أخرى دون أجرة أيضاً.

أعطيته مئة فلس ودخل، بعد الطقس المعتاد بتقبيل العتبة والحجارة. انضمت إلينا مامه وطفلها، وبينما كنا جالسين هناك بهدوء، ظهر كردي كهل في الفناء وغليونه في يده. أمرته ضياكوته، بسلطة هادئة أن يخلع حذاءه قبل أن يقترب. أطاع ثم جلس قرب باب المعبد بعد تقبيل الحجارة المقدسة. ثم أخبر ضيا كوته شيئاً ما بصوت جاد وأجابته بتفصيل تام: استفهمت من مامه عن معنى المحادثة. بدا أن الرجل ـ وهو مسلم ـ كان من عادته أن يأتي إلى مزار الشيخ عدي من أجل بعض الغبار العجائبي الذي وضعه على إحدى ساقيه المصابة بالهوى (هنا آلام روماتيزم). وكلما كان يضع منه كان يشعر بالارتياح. لكنه الآن يطلب النصيحة بشأن الهوى في معدته (أي ألم المعدة). هل من الواجب شرب الشاي؟ هل سيؤذيه هذا الطعام أو الشراب؟ أخبرته ضيا كوته أن عليه أن يأكل قليلاً وأنه عندما يشرب الشاي يجب أن يكون خفيفاً وغير حلو على نحو زائد، ثم إذا دلك معدته بتراب شيخ عدي مع الماء «فبقوة الله» سيشفى.

لدى عودة جدان، حاولنا من جديد أن نتحدث بمساعدة أخرى من الولد حجي ومامه. سأل عن الماء الذي يُشرب كسِرٌ من الأسرار المقدسة، وأجابت ضيا كوته أنه في هذا الوقت من السنة الذي يتجول فيه القوالون ومعهم السنجق، أي تمثال الطاووس المقدس، كانوا يأخذون الماء في طبق خاص من بئر شيخ عدي ويعطونه للمؤمنين

كي يشربوا من الطبق. هذا يلمح إلى طقس من الأسرار المقدسة لكن عندما أدركت أنه دون مساعدة مترجم كردي أو كفء لا أستطيع أن أفعل إلا القليل، نهضت وقلت إنني صاعدة إلى الجبال.

قالت ضيا كوته: «سنذهب معك» ونهضت معي. وهكذا بدأ بعض منا الصعود على طريق الحج الملتوية التي تمر بجانب بعض المزارات، والتي كانت بالية ولكن وعرة. وبعد قليل انعطفنا نحو درب نما عليه العشب يؤدي إلى الأعلى على نحو شديد الانحدار، بجانب طبقة بارزة من الصخر وأشجار سنديان وبطم مقدسة. وبعد أن صعدنا إلى الأعلى وصعدنا، بدت الوديان والتلال تحتنا في مشاهد دائمة التغير تتسع على نحو متزايد. وعندما توقفنا عند منعطف صخري ظللته شجرة متدلية، شاهدنا سلسلة جبال يكسوها الثلج تنتصب في نقائها خلف قمم مغطاة بالثلج بكميات أقل. «الثلج»، قالت ضيا كوته، تشير لي إلى هذه الثلوج. «في بافرا الكردية». كانت بيني وبينها حكاية مختلفة مسلية هي أنها كانت تعلمني اللغة الكردية. رأينا تحتنا درب الوادي ـ يشبه الحية الملتوية المرسومة على المزارات اليزيدية ـ الذي كان عزيز وسيارته قد جهدا عليه. أشارت ضيا كوته إلى قرية كردية تحت، مغاره (Mugharah)؛ وقرية أخرى تستريح على التلال أتروش (Atrush).

بعد الاستراحة صعدنا من جديد، وكانت السيدتان البيضاوان تدلاننا على الطريق برباطة جأش ولم ينقطع نَفَسُهما أبداً، لأنهما لم تفعلا شيئاً سوى الصعود والهبوط عن التلال. وعند الوصول إلى القمة، جلسنا واسترحنا من جديد وشاهدنا الجبال، سلسلة بعد سلسلة، والوديان الزرقاء بينها. كانت قمة التلة ـ بالرغم من أنها

كانت شديدة الانحدار ويصعب الوصول إليها فإنها لم تُشرّف بإعطائها اسم الجبل الرفيع ـ مغطاة بأشجار قصيرة اقتلعتها الريح، وبالكثير من الأزهار والأعشاب. مشينا إلى صخرة كبيرة منبسطة محاطة بجدار حجري دائري خشن، له مدخلان شرقي وغربي وكلاهما منخفض بحيث يتوجب على من يريد الدخول أن يزحف. وهذا المكان الذي جوفته يد الإنسان خزان مستدير لاستقبال ماء المطر. جوانبه مقعرة؛ يصعب القول إن كان من صناعة قديمة أو حديثة نسبياً. على أي حال، هو مكان مقدس، قبلّت ضيا كوته وضيا روزه المدخل وحجارة العتبة والصخور حول الخزان. من المحتمل أنه مزار للشيخ شمس مشابه للمزارات الأخرى على قمم الجبال. انحنت ضيا كوته كي تجمع بعض الأعشاب وأخبرتني أن النساء اليزيديات يتعلمن استعمال الأعشاب والعقارات النباتية البسيطة، وهو عمل شعبي متناقل من جيل لآخر، وأن قليلاً من النساء الذكيات لم يكن يعرفن أيّ الأعشاب كانت مسهّلة، وأي منها ملطفة للحمى وأي منها مسكنة للألم.

اندفعنا نحو الأسفل، في هذه المرة على الوجه الأكثر مواجهة للغرب من التلة، والتقينا بطريق الحجاج في نقطة أكثر ارتفاعاً، في المكان الذي كانت صخرة كبيرة قد ثُبتت بالملاط ودُهنت بالكلس لتكون علامة للحجاج أنهم من هذه النقطة يتوجب عليهم أن يخلعوا أحذيتهم ويسيروا حفاة. وعلى مسافات من هذه المسيرة ـالتي تشبه مسيرة السرطان ـ من حيد إلى حيد، رأينا تحتنا سطح المعبد المنبسط الذي ينمو عليه العشب تعلوه قبابه الثلاث المخروطية البيضاء وأبراج المزارات الأخرى ترتفع من القاع المورق، كل ذلك يبدو مصغراً بسبب المسافة. أراني حجي بقعة

سدد منها رام كردي ماهر، في الربيع الماضي، على المير بينما كان جالساً على السطح تحت. لكن هذا القاتل المزعوم لم يصب قلبه، بل أصاب الأمير في ذراعه. بدت تلك طلقة بعيدة على نحو مستحيل، لأن الأشخاص من هنا كانوا يظهرون كالذباب بحيث إن هذا الكردي ـ إن كان كردياً ـ لابد أنه كان رامياً ممتازاً. لكنني سمعت أن المهاجم لم يكن من ديانة أخرى، بل يزيدياً ينتمي إلى فئة اغتاظت من احتكار المير للمال الذي يتم الحصول عليه من جولات الطاووس المقدس. يقال إن القليل فقط من هؤلاء الأمراء كانوا يموتون على فراشهم.

* * *

وعندما عدت إلى غرفة الجلوس نزلت لأملأ كأساً من الماء النازل، لكن أحد الواقفين بجانب الماء قال: «عوافي» وهو هتاف يجب قوله دوماً عندما يشرب شخص آخر لإيصال أمنية له أن تكون جرعته صحية. والماء بارد ولذيذ.

كنت أستريح أقرأ عندما فُتح الباب ودخلت السيدتان البيضاوان تحملان أطباقاً نحاسية مطلية بالفضة ومملوءة بالجوز واللوز والتين اليابس. وعندما رأت رئيسة الدير أنه ليس لديّ شيء أكسر به الجوز، خرجت وعادت بحجر، وكسرت واحدة على الأرض. طلبتُ إليهما أن تبقيا فجلستا على الأرض الحجرية ـ وهي أبرد من البساط، كما قالتا ـ وفتلتا الخيوط البيضاء بأصابع ناعمة. أخذتُ من ضيا كوته ربطتها من الصوف وحاولتُ أن أقلد حركاتهما، لكن الخيط انقطع والمغزل لم يدر بهدوء كما كان يفعل في يدها، فتابعتْ عملها وهي تضحك. كانت محادثتنا عرجاء وصعبة، لكن بمساعدة جدان ونوايانا الحسنة المشتركة

اقتربنا من الفهم المتبادل. أخذت لهما صورة وهما تغزلان ـ للأسف بسبب شيء من شرود الذهن لاحقاً، أفسدتها بأخذ صورة أخرى فوقها. لن أكون قادرة على إرسال النسخة التي وعدت بها، «كي نرى ماذا نشبه» هكذا قالت السيدتان البريئتان اللتان لا تستعملان المرايا.

تمّ التفاهم بيننا بالرغم من الكلمات، وعندما سألتاني عن ابنيّ وسمعتا أنهما كانا جنديين وأن ابنتي منهمكة في العمل في مكان بعيد، أبديتا تعاطفاً معي وقالتا إنهما ستصليان من أجل سلامتهما، وكان هنالك شعور أصيل في عيونهما ونظراتهما. وبالرغم من أنه ليس لديّ صورة لهاتين السيدتين الكريمتين، فإنني سأحتفظ بصورتهما في قلبي، وهما الناعمتا الصوت الطاهرتا الثوب.

سألتهما ـ عن طريق جدان ـ إن كانتا قد اختارتا حياتهما بمحض إرادتيهما، أم لأن عائلتيهما قد أرادتا ذلك. «بمحض إرادتي» أجابت ضيا كوته، مبتسمة بهدوء وهي تغزل، لكن الراهبة المبتدئة بقيت صامتة.

عندما نهضتا للذهاب ـ ربما من أجل صلاة الظهر ـ تناولتُ وجبة غداء ممتازة من اللبن الرائب والخبز والجبن وتفاحة. كان النور مناسباً لتصوير مزار بير حجالي، وعندها أخذت صورة إرضاء لرغبتي. صعدت التلة ومعي كتاب كي أجد المكان الصحيح للقيلولة، لأن غرفة الضيوف التي صبت الشمس أشعتها فيها طوال النهار، كان حارة عند الظهر وبعده. تمددت في ظل شجرة، وجعلت صخرةً وسترتي وسادةً لرأسي. وفي جميع الأنحاء من حولي كانت تنمو زهرات الحوذان القرمزية ونبات البيقية الأرجواني والبقدونس البري، والحوذان البري والسوسن

والفربيون وبعض الأزهار الصغيرة التي لا أعرف أسماءها. وبينما كنت مستلقية هناك باسترخاء، استطعت أن أرى برج الشيخ شمس الأبيض بمواجهة الخضرة على التلة التالية، وكانت كراته الذهبية تتلألأ في الشمس. كان صوت خرير الماء بعيداً لا يكفي إلا لحدوث صوت مرافقٍ لصوت اندفاع الماء، همسات مستمرة سمعت من خلالها أصوات الشحرور وطيور أخرى لا يعرف إلا الله ما هي، لأن أصواتها اختلطت في سمفونية ربيعية مع طنين النحل. كانت النحلات مشغولات جداً على الإفريز المعطر بعبير الأزهار، وكان طنينها يختنق في اللحظات التي تتسلل فيها إلى داخل جرس الزهرة. مكان بهيج. شعرت بالنعاس وأخذتني إغفاءة لذيذة.

## الفصل التاسع عشر

# أحاديث مع مضيفِيَّ

«تأكد أنّ من تنظر إليهم ليسوا أشراراً ولا أولاداً لأشرار».

ثيو كريتوس/الأنشودة الرعوية XXII

في الليلة السابقة كنت قد جلست فترة مع الرجال قرب النار المتراقصة على المصطبة تحت، وكانت المجموعة تتألف من ثلاثة رجال شرطة، والشيخ وحجي والولد اليزيدي. تحدثنا عن البلدان والمدن.

سألني الشيخ: «هل لندره(*) في انكلترا، أم انكلترا في لندره؟».

وسألني أحدهم «ما مقدار ضخامة لندرة؟ هل هي كبيرة كبغداد، أم أكبر؟».

ثم عن الحرب. «هذه الحرب، الآن، لماذا لم يتحقق السلام؟

(*) الأتراك يلفظون كلمة لندن لندره. (المراجع).

ألم يمضِ عليها ستة أشهر ولم يتحقق شيء حتى الآن. إن شاء الله، إن شاء الله، لن تصلنا الحرب إلى هنا. لكن السكّر أصبح غالياً جداً؛ وكما تعلم خاتون، نحب الكثير من السكر في الشاي. . (كانت هذه شكوى دائمة).

ثم انتقلنا للحديث عن النجوم والشهب، وقال واحد من الرجال الأكبر سناً إنه قبل الحرب الأخيرة ظهر نجم ضخم ـ أبو الذنب ـ في السماء. كان ساطعاً جداً والذنب كذلك.

ذكّرته أن مذنب هالي قد ظهر قبل سنتين من الحرب وقلت إنني عندها كنت أزور فلسطين، حيث صلّى الناس طوال الليل ظناً منهم أن نهاية العالم قد اقتربت. والتفتُّ إلى الشيخ وسألته: «ماذا تقولون عن نهاية العالم وعن يوم القيامة[1] ؟».

كان يجلس وساقه محشورة تحته، نصفه في ضوء النار ونصفه في ضوء النجوم وأجاب بحذر قائلاً: «نحن نقول إن هذه الأشياء في يد الله، وإننا كبشر لا يمكننا أن نعرف».

هنا كانت الجلسات قرب النار جيدة للحديث وهنا أصبح منفتحاً. إنه ينتمي إلى رتبة متوارثة: «الفقيران»[*]. والولد الذي يولد في هذه الطبقة ليس بحاجة إلى أن يصبح فقيراً، بل يتخذ المهنة بملء إرادته. هناك تعليمات أولية وتدريب، وبعدها يصوم الشاب الراغب في دخول الأخوية مدة ثلاثة أيام قبل أن يُمنح «الخرقة» وهي سترة صوفية خشنة تُرتدى فوق الجلد؛ في الأيام الغابرة ـ قال الفقير ـ كان

---

(1) resurrection.

(*) كلمة فقير تجمع بالفارسية والكردية والأفغانية على فقيران ومنها كلمة (طالب) طالبان. (المراجع).

يُطلب إليهم الصيام أربعين يوماً. هذه السترة ـ وهي شارة الفقير المقدسة ـ سوداء اللون، دائرية حول العنق، ومدروزة بصوف أحمر تصل حتى الوركين؛ وتنقسم على جانب الجسم من الخصر إلى تحت، وتثبت حول الخصر بحزام مقدس. وهي بطول واحد من كل الجوانب، وليست أقصر من الخلف، كما يذكر السيد روجر ليسكوت في كتابه عن اليزيديين. وهي تحاك من صوف الحمل الصافي وتصبغ بمنقوع أوراق الزرغوض والغزوان (البطم). «تغلى الأوراق مع الصوف ثم ـ بمشيئة الله ـ يصبح الأبيض أسود».

أثناء صومه وتعلمه أسرار المهنة، يبقى الفقير المتدرب في البيت ولا يجوز أن يقترب منه أحد. وعندما تنتهي الفترة يأخذ حماماً حاراً ويمنحه «أخوه الآخر» الخرقة، ويضع أيضاً عليه الحزام الصوفي القرمزي المحاك، والذي يدور مرتين تقريباً حول الخصر، وخيطاً مقدساً من صوف أسود وأحمر مفتول حول عنقه. هذا الخيط ـ الذي يدعى المفتول ـ لا يجوز أن ينزع أبداً. لا يجوز أن يرتدي الفقير أي شيء أبيض أو أن يرتدي أي شيء بين جلده والخرقة. قال الفقير ريشو إنه عندما ارتداه للمرة الأولى، هيّج الصوف الخشن جلده، لكنه الآن تعود عليه. منذ اليوم الذي يصبح فيه فقيراً، يجب عليه ألا يقص لحيته لكن الرأس يُحلق، وخلع الفقير ريشو عمامته (بوشي) (Pushi) وقلنسوته الصوفية السوداء (كوليك) (Kullik) كي يريني رأسه.

في الأيام الغابرة ـ قال ـ لم يكن يسمح للفقراء بالقتل، لكنهم اليوم يسمح لهم بقتل خروف أو دجاجة عند الضرورة. سألت ما إذا كان هناك عدد معين من الخيوط في الحزام، فأجاب بالنفي. والتقشف في هذه الرتبة غير قاس. الفقير لا يجوز أن يشرب

الكحول ولا أن يدخن، لكن الشاي والقهوة غير ممنوعين، ولا تكون ثيابه الشتوية مثل الصيفية لأنه في الشتاء يرتدي سترة دافئة، السخمة ـ (Sakhma)، وسترة قصيرة خارجية حمراء فيها جدلة سوداء (الدمايري=Damiri).

يعتبر الفقير شخصاً مقدساً وله مزايا. لا يجوز أن يحدث في حضرته أي شجار، وإذا وصل بعد بدء الشجار، فإن النزاع يجب أن يتوقف فوراً. وحتى إذا أُحضرت خرقة في غيابه وعلقت على الشجرة، فالمعروف عنها أنها توقف العراك. وللفقير سلطة أن يضرب رجلاً بالقدر الذي يريد ولا يجوز لأحد أن ينتقم أو يرفع يده ضده، لأن ضرب الفقير خطيئة. «إن قداسة الخرقة تحميه» قال جدان.

يلي الخرقة في القداسة ـ التي يمكن أن تزال وتغسل عند الضرورة ـ هناك المفتول (Maftul) ـ وهو الخيط المقدس الذي وصفته أعلاه، والذي يجب أن يغسل بينما يكون الشخص مرتدياً له، فلا يجوز أن يخلعه أبداً.

وفي مناسبة أخرى سألت الفقير عن الصيام والصائمين. كان يمكن أن يعرض هذا الموضوع على بساط البحث بسبب اهتمامهم بوجبتي الخالية من اللحم. ذكرت له أن «ليسكوت» يقول إن الفقراء يصومون اثنين وتسعين يوماً في السنة.

«هذا خطأ». أجاب الفقير ريشو. «نصوم ثلاثة أيام في بداية كانون الأول عند «عيد الروجا». (عيد الشمس في بداية كانون الأول)». لا نصوم في رمضان لكننا نحتفل بعيد الفطر (عيد الضحية) والبيرم كأعياد ونبدأ عيد الضحية قبل يوم من المسلمين، بحيث يدوم أربعة أيام. نحن نسميه «عيد الحجية».

سألت عن «عيدا عزي». عيد يزيد.

أجاب: «ذلك العيد وعيدا روجي هما واحد. لأنه يأتي بعد يوم من ثلاثة أيام الصوم. أما بالنسبة لعيد «سارساله» (Ida Sarsaleh) فهو العيد الثاني من حيث الأهمية في كل السنة. (كان هذا عيد الربيع الذي شهدته للتو في بعشيقا).

سألت عن عيد الموتى الذي ذكره ليسكوت، وأخبرني أنه كان مشابهاً لعيد الربيع.

كان الجميع متشوقين كي يخبروني عن العيد الكبير (Ida Jema'iya=عيد الاجتماع) عندما يسافر العالم اليزيدي جميعه إلى شيخ عدي. يبدو أن الوادي الهادئ يصبح عندها مدينة، ويتحول هدوءه إلى «كرنفال». يؤوي كل سطح وكل مغارة الحجاج، ويخيم الكثيرون منهم أو ينامون على جانب التلة متلفعين بلحاف. تكون جوانب الوادي في الليل مغطاة بالأنوار المتلألئة. يأمل الفقير ريشو أن يحصد محصولاً وبعد ذلك يعوض لنفسه عن نفقات استئجاره السنوي. وكما ذكرت في مكان آخر، في هذا العيد تجري التضحية بالثور المكلل بالأزهار. يحدث هذا العيد «عيد الاجتماع» في أيلول ويجب أن يتزامن مع عيد السنة الجديدة عند المانداثيين.

والحديث عن الأعياد والصوم أدى بنا إلى الحديث عن أعياد وصيام الديانات الأخرى. اعترفت أن امتناعي عن بعض المأكولات لا علاقة له بالديانة. قال الفقير: «النسطوريون يصومون كثيراً وصيامهم صعب. لا لحم ولا بيض ولا حليب ولا زبدة ولا دسم يمكن أن يمر من بين شفاههم، وفي الربيع يصومون بهذا الشكل مدة خمسين يوماً.

علقت: «بالرغم من ذلك معظم الكهنة الآشوريين بدينون وجسام. «إن تقواهم» قال الفقير بوقار «هي التي تسمن أجسامهم بقوة الله».

* * *

أثناء الجزء الأكثر برودة من النهار ذهبت لزيارة القسم الجنوبي من الوادي، لأنني لم أكمل رحلتي للفحص المنتظم. سر جدان أن يريني مزار الشيخ الذي تنتمي عائلته إليه بالوراثة؛ أي الشيخ سجا الدين. يُذكر أن هناك مزاراً مكرساً لهذا الشيخ بين بعشيقا وبحزاني وأن السيت غولي تدَّعي أنها تنحدَّر منه ومن الملاك جبرائيل الذي تجسد ليؤسس العائلة. كان مزاره هنا في شيخ عدي دون برج، لكن القوس المثلث للمدخل كان مزيناً بحلية معمارية على شكل شارات عسكرية ما أعطاه مظهراً نورماندياً. والغبار المأخوذ من هذا المزار يستخدم للتخلص من الآفات. فإذا ابتليت المحاصيل بالجراد، يُرش قليل فوق الحقول فتهاجر الحشرات. وإذا أصبحت الفئران مصدر إزعاج في مستودع أو مخزن حبوب، فإن قليلاً من الغبار يذرُّ في المكان يجعلها تفرّ فوراً. هكذا يقول حجي وجّدان.

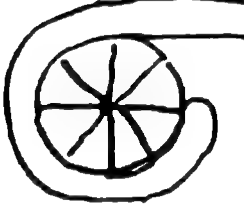
أراني الولد اليزيدي الذي كان يرافقنا ثآليل على يديه وقدميه. أليس معي أي مرهم لشفائها؟ أخبروني أن الثآليل تحدث بسبب تماس قدم الشخص ببول الضفدع، «والله، هنا، نمضي حفاة وهناك الكثير من الضفادع في كل مكان في العشب ومن الأمر السهل المرور بجانبها».

والمزار التالي الذي زرناه كان الشيخ محمد. كان الباب قوساً

ثلاثي الرؤوس، ولكن لم يكن هناك أي شيء يستحق التعليق في هذا المزار. فوقه مباشرة، مزار بير هاسيل ماما(أو مامه؟) مزين بمشط، وغوبال (عصا معقوفة) يحيطان بشكل يشبه النجمة وتصاميم أخرى تقليدية.

إلى جانبه على جانب التلة هناك شجرة بطم قديمة جداً، ذات ساق غليظة جداً. والمزار التالي هو مزار الشيخ ماند، وهو مبنى أكثر فخامة، جرت عليه إصلاحات سيئة. ومن الغريب جداً أنه لم تكن هناك أي حية مرسومة على جدرانه، بالرغم من أنه مكرس للشيخ الذي يعرف عن سلالته أن لهم سلطان على الأفاعي. والغبار من هذا المزار ـ حسب ما قال حجي ـ جيد للأمراض من جميع الأنواع، لكنه لا يستعمل على نحو خاص لشفاء عضة الحية.

يخيم الظلام سريعاً في الوادي، ووقفنا كي ندع الفقير يمر بسرعة أمامنا ومعه وعاء الزيت والفتائل المشتعلة. علمت أن وعاء الزيت كان يدعى «شيرا» والمغرفة الخاصة بالزيت المقدس «كافتشك». أغلقت دفتر ملاحظاتي وعدت.




*Decorative designs at Pir Hasil Mama.*

تصاميم (ديكورات) في پر حسيل مامه

فجأة ظهرت ضيا كوته على مصطبتي، تصحبها زوجة الفقير التي لفحتها الشمس، مامه، وطفلها ذو العينين السوداوين. عملت مامه ـ التي كانت تتكلم العربية بلهجة بحزاني ـ مترجمة. كانت ضيا كوته قد جاءت لتوبخني لأنني كنت آكل طعامي الخاص بدلاً من ذلك الذي حضّرتاه في مسكنيهما. لماذا لا أقاسمهما طعامهما في كل مرة تأكلان؟ «لكنني آكل واستمتع بطعامكم فعلاً» قلت محتجة، وأخبرتهما أنني استسغت طعم اللبن الذي أرسلتماه لي على الغداء.

لكنهما لم تقتنعا. «إنك تأكلين القليل». قالت مامه وهي تقيس بإصبعها «إنك تأكلين بهذا القدر ونحن نريدك أن تأكلي بهذا القدر»، ووسّعت المسافة ما بين ذراعيها وهي تضحك. «هذه الليلة» قالت، «صنعنا لك دولما خاصة دون أي لحم فيها، بحيث تستطيعين أن تأكليها دون أن تقترفي أي خطيئة».

شرحتُ من جديد أن السبب الوحيد لعدم تناولي اللحم هو أنني ـ كامرأة مسنة ـ وجدت ذلك مناسباً لصحتي. أجابتا باستغراب: «لكنك لست مسنة جداً».

أجبتهما وأريت يديَّ ست مرات لضيا كوته: «ستون».

«وأنا» أجابت معارضة بالكردية، وفهمت ما قالت: «أنا في الثامنة والأربعين، أربعون. . . . .» ورفعت ذراعيها أيضاً، «وثمانية».

كررت: «هاشتا. يعني ثمانية».

«ها» قالت مبتهجة: «إذن بدأت تفهمين اللغة الكرمانجية».

أجبتها أنني عندما كنت شابة تعلمت في بلادي لغة الغجر وأنهم كانوا يقولون: هاشتا لثمانية، فاستغربت المرأتان ذلك.

قالت ضيا كوته إنني يجب أن أعود إلى هنا في الصيف، لأن الطقس عندئذٍ يكون بارداً ولطيفاً والدنيا خضراء والماء يبقى بارداً كالجليد «تلك صفة خاصة في مائنا» أوضحتْ، «وهي أن الماء في الشتاء دافئ، وفي الصيف بارد كالثلج».

ومن جديد طلبت إليَّ أن أخبرها عن ولديّ الجنديين. وبالرغم من أنها لم تسمع شيئاً عن هتلر كان لكلمة «جنود» وقع بشع على مسامع اليزيديين الذين عانوا من المعاملة الوحشية وهم يقاومون الخدمة العسكرية. ثم أشارتا إليَّ كي آتي معهما إلى الفناء قرب بيت الفقير، وهناك جلست على بطانيات ذات ألوان بهيجة بينما غادرت ضيا كوته مع الراهبة المبتدئة للقيام بجولتها المسائية في الأماكن المقدسة.

كانت الدولما لذيذة. سمعت أن الدولما قد دخلت مؤخراً في حفلات كوكتيل لندن، لكن خشية أن يكون من يقرؤون هذا الفصل لا يعرفون الدولما، أقول إنها قطعة صغيرة لحم (أو سمك) مع الأرز وبعض أعشاب النكهة ملفوفة في أوراق كرمة غضة ومنقوعة في الماء المالح، وتطبخ في زيت الزيتون، وكل قطعة منها بمقدار إبهام اليد. أشك أنهم بارعون في طبخها في انكلترا: وحتى طباختنا الهندية لا تستطيع أبداً أن تحقق الطعم الكامل.

في فناء دار الفقير كان الشيخ قد جلس طوال النهار يصنع ملاعقه. وبينما كان يقف بين كومة من الشظايا، أراني أدواته. بدأ صنع ملعقته، فقطع من كتلة قطعة بالحجم المطلوب. وبدأ يقصها حتى أخذت شكل ملعقة غير صقيل. فعل هذا «بفاس» صغيرة،

وهي فأس خفيفة ذات شفرة حادة لها نصاب ومقبض تشكل زوايا قائمة مع الشفرة وموضوعة في وسط الطرف غير الحاد. وبعد ذلك، استخدم أداة لها شكل الخطاف، لها شفرة عريضة حادة لصنع الجوف في الملعقة. ومن أجل الكشط والصقل ومن أجل أي زخرفة على مقبض الملعقة العريض المسطح، كان يستخدم السكاكين العادية. كانت الملاعق تصنع من أجل غَرْف اللبن أو البرغل، وهما مكوِّنان رئيسان في الوجبات. أخذ رقيب الشرطة الكردي ـ وكان جالساً في مكان قريب ـ ملعقة انتهى صنعها منذ لحظة وحزز عليها تصميماً بسيطاً وأخبرني أنها مخصصة لي. في تلك الأثناء تحدثت مع الشيخ عن الموت والدفن وواجبات الشيخ والبير في مثل تلك المناسبات. كان راغباً حقاً في إعطائي المعلومات وشرح معناه بقطع من خشب السنديان: «هذا هو الميت»، «هذا هو الجدار» وهكذا.

عندما يموت أحد الرجال، قال، يذهب الشيخ يرافقه بير إلى بيت الميت ويغسل الجثمان، بالصابون والماء الساخن، ثم يضع فوق العينين المغمضتين قليلاً من تراب شيخ عدي (بركة). تُلبِس النسوةُ الجثمانَ الثياب، ويعطين الكفن إلى الشيخ. وهو يتألف من تسع أذرع من قماش الخام الياباني. يخيط الشيخ والبير هذا القماش ليكون كيساً كبيراً يوضع فيه الجثمان، القدمان أولاً. يمزق الشيخ قطعة من الطرف المجاور للرأس ويستعملها لربط فتحة الكيس، ويعقد هذه القطعة على نحو جيد. ويُحمل الجثمان إلى القبر على نعش. إن كان المتوفى امرأة، فإن القبر يُحفر إلى عمق عنق الحفار وهو واقف في الحفرة؛ أما إذا كان رجلاً فإن أعلى القبر يجب أن يكون بمستوى صدره. ثم يتمّ بناء حائط قصير

على كلا جانبي القسم الداخلي من القبر، ثم تصنع كوة (لحد) وراء الرأس، لكن الأطراف الأدق عن الرأس والقدم، على ما يظهر، لا تغطى بحجارة البناء. يُهال الحصى والتراب على الجثمان بعد وضعه في القبر بمواجهة الشرق وفوق كل ذلك التراب. والجثمان لا يستلقي على ظهره بل على أحد جانبيه.

بالانتقال من الموت إلى الحياة، وصلنا إلى الحديث عن المهر، وبدأ الحاضرون يغيظون مامه بشأن مهرها. «زوجها» قالوا، «لم يدفع لها كثيراً». بالرغم من أن المهور قد تبلغ مقداراً كبيراً. قال جدان إن المهور غالباً ما كانت أكثر بكثير مما يستطيع الزوج الشاب تحمله. قابلت مامه مزاحهم بروح طيبة، وجلست وكان ثدياها الفتيّان عاريين، ترضع ابنها الجميل. جلست نسيبتها ـ زوجة والد حجي ـ معنا أيضاً. كانت قد انتهت للتو من إرضاع ابنتها الرضيعة غولي. انضمت ضيا كوته إلى المجموعة وجلست تصغي إلى الحديث، وتبتسم بلطف. كانت الرضيعة غولي نحيفة وشاحبة، لكن روحها لم تكن تناسب جسمها الضئيل. ابتسمت، ضحكت، قرقرت وبادلتني ملاطفتي بالملاطفة، رافسة بساقيها الصغيرتين وفاتحة فمها في ابتسامات طفولية عريضة.

صرخوا «إنها تحب الخاتون»، ولما كانوا يعرفون أن لي أطفالاً، لم يخشوا العين الحاسدة: ألم أوزع تعويذات ضد العين الشريرة على الجميع؟ وتكلمت ضيا كوته أيضاً مع الأطفال بلغة كردية لطيفة. كان جميع الأطفال في هذا المكان، سليمان الصغير وابنة أختها الصغيرة، يحبون ضيا كوته حباً جماً، وهي التي لها طريقتها الأمومية ـ ومن دون شك كان لها أطفالها في حياتها العلمانية التي تركتها.

## الفصل العشرون

# عاصفة في الوادي

«...السحب الممطرة التي تتدحرج

تحت ضغط رياح الجنوب...».

«ويهطل مطر العاصفة من السماء بينما يزحف الليل...».

ثيوكريتوس، الأنشودتان الرعويتان XXII,XXV

كان يوم الثالث والعشرين من نيسان يوماً رمادياً ملبداً بالغيوم، وتساءلت هل سأرى الوادي غارقاً في المطر. في وقت مبكر من النهار خرجت ومعي حقيبة عملي وبدأت أرفو بعض الجوارب وهي عملية أثارت اهتماماً كبيراً عند مامه، التي سرت كثيراً عندما تلقت زوجاً غير صالح من الجوارب هدية. تَفَحصّتْ مكبات الخيوط والكشتبان والأشياء الأخرى التي كانت تحتويها الحقيبة بعناية.

وبينما أنا جالسة مشغولة، سمعت عن موكب متقدم على طريق الحجاج. ثبت أنهم كانوا سكان لاليش، أو معظمهم، وصلوا كي

يروني. لم يكن باستطاعتنا الحديث - بالرغم من أنهم أتوا لرؤيتي بالفعل - لأن لغتهم الوحيدة كانت الكردية، وغادرت مامه لدى اقترابهم. تقدم ولد صغير جذاب وقدم لي بعض اللوز الأخضر والبيض. لم أستطع أن أقدم له بالمقابل إلا بعض البسكويت الحلو، ولم أستطع أن أقدم لهم أي قهوة أو شاي لأن ميخائيل لم يكن حاضراً كي يحضّرها، وهو الوحيد الذي يستطيع أن يدبر أمر البريموس. جلس ضيوفي في صف طويل متواصل، وجهاً لوجه معي. ولأنهم مسلمون، لا شك أنهم كانوا يتساءلون ما الذي أستطيع أن أعمله في الوادي اليزيدي، لكنهم لم يستطيعوا سؤالي. جلسوا هناك فقط وبدؤوا يحملقون دون أي ابتسامة. كانوا محدقين لا تطرف لهم عين، هادئين بحيث إنني بدأت أشعر كالحشرة تحت المجهر. ولما وجدنا أن اللغة العربية والإيماءات غير مجدية، هربت فوراً إلى غرفتي بفرضية كاذبة: إنهم - ربما - لم يأتوا لرؤيتي، ولكن عندما عدت بعد حوالي نصف الساعة، رأيتهم لا يزالون جالسين هناك هادئين محدقين، ودون أي شك يتوقعون القهوة التي لم تكن ستصل في وقت وشيك. خرج الأمر من يدي، فأدرت وجهي نحو ممر جبلي، وهربت من دون كياسة. من المحتمل جداً أن سمعتي قد انخفضت كثيراً بين قرويي لاليش.

بينما كنت ذاهبة، مررت بجدان مستلقياً تحت شجرة منهمكاً في لعبة شطرنج مع صديقه الشرطي. لم يرياني، وكان لديّ شعور أنني أتهرب من واجب عندما وصلت إلى الممر الجبلي، لأنني عندما غادرت المزار وجدت دون تفاخر أنهم يلاحقونني. فسّر لي الشرطي هذه المراقبة بالقول إن الجبل لم يكن آمناً: فالخارجون على القانون موجودون، وهؤلاء كانوا مسؤولين أمام المير عن

سلامتي. لكن هذه المرة استطعت الهروب، وبعد أن مشيت مسافة ما على الممر الذي كان يؤدي إلى القرية على نحو أكيد، لأنه كان قديماً، جلست إلى جانب قاع سيل فارغ. لم يكن هناك أي اندفاع أو هدير للماء، لكن الطيور كانت تغرد كما تفعل في الأيك الانكليزي تماماً في شهر أيار، وكانت أنغامها بهيجة على مسامعي التي اعتادت طويلاً على عدم سماع تغريد الطيور في جنوب العراق. طار شحرور كبير أصفر المنقار من شجرة وظننت أنني سمعت بجانبي صوت عندليب. لم يكن هناك أي حضور لليمام الجميل. كان الهديل الدائم المزعج غائباً هنا. يبدو أن الحمام واليمام لم تبنِ أي أعشاش لها في الوادي.

باستثناء الطيور، كان هناك صمت، لا يقطعه إلا صوت الريح المُسكِت، يعلو ويهبط كالنفس في شجيرات السنديان، أو خشخشة طير أو سحلية أو ضفدعة في العشب والنباتات. مرة، سمعت صوت قطع جذور ونظرت بين الجفنات على أمل أن أرى خنزيراً برياً، لأن الحفريات غير المنتظمة لقطيع من الخنازير كانت واضحة على جانب التلة في اليوم السابق، لأن الخنزير ـ إن كان هذا خنزيراً ـ كان مشغولاً جداً، فلا يتحرك ولا يظهر نفسه. كانت الصخور والجروف الصخرية ترتفع منحدرة حتى السماء على كلا الجانبين، لم يكن الوادي سوى ممر ضيق.

كنت متأكدة أن بعض الفراشات التي رأيتها كانت نادرة، لكن إضافة إلى هؤلاء الغرباء كان هناك قواقع السلاحف المنتشرة البيضاء والزرقاء (كانت زرقتها هنا أكثر لمعاناً). كانت الفراشات البيضاء القشدية أو الملونة بلون أصفر برتقالي ذات البقع موجودة بكثرة وكذلك الفراشة البرتقالية المنقَّطة بالأسود، ذات الحافة السوداء

والبيضاء على الجناحين. وعلى جوانب الطرقات كانت هناك نباتات الحوذان والجويسئة والبيقية، من مختلف الألوان، ولسان الثور والمنثور البري، وقش السرير، والبقدونس البري، وخيميات الأزهار، نباتات السحلبية، والزنبق، ونجم بيت لحم، والحوذان القرمزي، وشقائق النعمان، ومجموعة كبيرة من الأزهار التي لم أعرف أسماءها. مثل الخلنج[1] ذي الزهرة الشفافة البصلية التي يفرقعها الأطفال اليزيديون كما يفعل أطفالنا للفوقس الحويصلي (طحلب أسود) عند شاطئ البحر؛ وكذلك نبات له أوراق سميكة فضية وأزهار تشبه الجرس تنحني نحو الأسفل لا تبعد كثيراً عن لسان الثور[2]. تكمن غرابة هذه الأزهار الأخيرة في أنها ذات ألوان متغيرة، بالرغم من أنها تصنف مع النبات نفسه، وغالباً ما تكون على الساق نفسها.

* * *

كان هناك إحساس بالتوتر في الجو. شعور بالعنف الوشيك، كما لو أن شيئاً ما يقترب خلسة. وتعمق الظلام في عين سيفني ومعه بريد وجريدة. قرأت الأخبار، لكن أخبار الحرب بأحاديثها عن الدمار والموت بدت غريبة جهنمية وغير محتملة. وعندما وضعت الجريدة جانباً، قلقة، ارتفعت رائحة البخور إلى المصطبة، وتذكرت أن تلك الليلة ليلة الأربعاء، لأن الناس هنا يعتبرون أن الأربع والعشرين ساعة من اليوم تبدأ عند الغروب ويعتبرون مساء الثلاثاء جزءاً من الأربعاء. في هذا المساء وفي ليلة يوم الجمعة

---

(1) يقترح السيد غست أن هذه قد تكون Leontice leontopetalum.

(2) من المؤكد تقريباً أنها Onosma alboroseum.

(مساء الخميس)، يصنع اليزيديون إنارات خاصة لأن كلا الأربعاء والجمعة يومان مقدسان. أسرعت إلى المعبد، ورأيت رئيسة الدير، داخل إطار خمارها الأبيض، تقوم بجولتها لتكريم المزارات، بينما كان الفقير قد غادر ومعه صحنه المشتعل. كان البخور قد أضيف هذه الليلة وارتفع عبيره وخيوط دخانه الملتوية في الهواء المشؤوم الذي لا ريح فيه. مررت بجانب ضيا كوته، التي قابلتني بابتسامة لطيفة، وذهبت عبر الممرات المقَّوسة وصعدت بعض الدرجات حتى وصلت إلى شيخ شمس. كانت ألسنة اللهب تحترق في كل زاوية. مثل ألسنة نار رسّامي العصور الوسطى التي تصوَّر في رسوم أحد العنصرة. حتى بينما كنت جالسة على قاعدة المخروط، كان كثير منها يتذبذب في هبات صغيرة للريح الباردة المفاجئة. في هذا الهدوء وعلى خلفية أنغام المياه الجارية، سمعت على نحو غير مميز صوت رقيب الشرطة - الذي أعرته جريدتي البغدادية، يقرأ بصوت مرتفع من الصفحة العربية آخر نشرات أخبار الحرب من أوروبا. في الأشجار المجاورة للمزار، كان تغريد العصافير الخائفة الهامس يحكي عن عاصفة قادمة.

بينما كنت عائدة على طريق الحجاج، مررت بجانب المزار ذي المخروط الذي ينتصب فوقه مباشرة مزار الشيخ مُشلَّح (Mushellah)، «الشيخ المتعري». لماذا أو كيف اكتسب هذا الشيخ مثل هذا الاسم هذا ما لم أسمع عنه أبداً. وبعد ذلك توقفت لحظة قرب المزار الذي يقع تحت الأرض المرتفعة التي أضرم عليها الرجال نارهم في الليل. يدعى هذا المزار شيل ميرا (Cheyl Meyra) ويتألف من غرفتين وساحة واحدة ومدخل مقوس، مزين بوردة وشمس وغير ذلك من التصاميم وقد محاها الزمن والعوامل الجوية.

في الظلام المتجمع رأيت من ألسنة اللهب أكثر مما رأيت في الليالي السابقة: مثلاً في الممر القوس الذي يؤدي من الفناء الأمامي إلى فناء المعبد الداخلي كانت هناك أربعة مصابيح إلى يسار الدرجات، وثمانية إلى اليمين ومصباح على كل جدار. سمعت في الفناء الداخلي صوت واحدة من الراهبات البيضاوات تنشد أمام باب المعبد المفتوح. كان الصوت خافتاً وكان الغناء من المفتاح الكبير كموسيقى اليزيديين الدينية، ما أبرزَ هدوء الطبيعة المتوعد بالخطر. وحتى بينما كن أصغي إليه، سمعت قصف الرعد المقترب، وزقزقة مضطربة لسرب من طيور الوروار تمرّ في الأعلى. لم أقترب أكثر من ذلك، لئلا أزعج صلواتها، بل جلست على واحد من المقاعد الحجرية في الطريق المغطاة، بينما تسلل جدان حول فناء المعبد حافياً يقبل الجدران المقدسة. وفجأة انضم إلينا الشيخ، الذي توقف عن النحت في ذلك اليوم. سألني: «هل لديكم الكثير من الأديرة في لندن؟».

فوجئت بالسؤال، وأعطيته إجابة غامضة: «هنالك عدد منها»،

«يا خاتون، هل زرت دَيرَي ربان هورموزد ومار متي؟» عندما أجبته أنني فعلت، علق بالقول: «حسناً فعلت».

«كم هو جميل صوت هذا الغناء» علقت بدوري.

«نعم، حقاً»، أجاب باختصار، «إن التقوى شيء جيد».

كان من الممكن أن يستطرد في حديثه المبتذل، لولا أن قاطعه دوي رعد فوق رؤوسنا مباشرة. هربت إلى غرفة الضيوف لأن قطرات من الماء ثقيلة انهالت فوق رؤوسنا كثيفة وسريعة، وفوراً تحولتْ إلى

وابل من البرد. كان ضجيج البرد وهو يهوي على سطح الغرفة الحديدي مُصمّاً للآذان. دوّى الرعد ذهاباً وإياباً وتردد صداه بين التلال، لكن ضجة البرد على السطح غطته تقريباً، وكانت تبدو كهجوم عدد من المدافع الرشاشة. وبين الحين والآخر كان دوي هائل يضيف دوي مدافع ثقيلة، ونور بنفسجي يومض ويضيء ظلمة الغرفة. لو أنني كنت أريد أحداً أن يسمعني في هذا الصخب لتوجب عليَّ أن أصرخ. وفجأة بدأت قطرات مطر تنزل من خلال بعض الثقوب في السطح. نشرت معطف المطر على السرير ووضعت الحوض على الأرض وفتحت مظلة في مكان آخر وبذا أصبحت في جفاف تام. عندما خفتت الضجة والمطر قليلاً، جاء إليَّ أحد رجال الشرطة ليرى كيف تسير أموري، وخلفه مباشرةً جاء حجي ومعه طبق كبير من الأرز والدجاج.

وأخيراً حدث هدوء. توقف المطر؛ أصبح أخف وأطفأت الشمعة التي كان عليَّ أن أشعلها في وقت أبكر. لكن السماء خلف شجرة التوت على المصطبة كانت لا تزال شديدة الزرقة والسواد. أشار الرجال إلى سماء صافية عند الشفق إلى الشمال وتنبؤوا راغبين أن تكون العاصفة قد مرت وأنهم سينامون في الخارج كالعادة. «ماذا يهم لو تبللت الأرض؟» قالوا: «إن مطر الربيع مفيد ولا يؤذي أحداً».

وصل يزيدي عجوز يرتدي قبعة من لباد مستديرة بيضاء آتياً من طريق الحجاج بينما كنا نتحادث: كان قد جاء من عين سيفني ومعه أنباء جيدة: بعض اليزيديين الذين كان قد أُلقي القبض عليهم وأودعوا السجن، مَثلوا اليوم أمام القضاء وأُخليَ سبيلهم. صرخ الجميع «الحمد لله»، وكذلك الشرطيان وأنا، بالرغم من أنه ليست لديّ

أي فكرة عن تهمهم. عندما سألت، أخبروني: «تهمة كاذبة» كما لو أن ذلك حدث عادي. وعندما خيم الظلام على نحو كامل، استمر البرق يومض وينطفئ. وفجأة وبعد أن أويت إلى فراشي مباشرة، سمعت طلقتين من بندقية في مكان قريب. خرجت وفتحت بابي وسألت عما حدث.

«لص، لص». صرخ أحدهم بصوت منفعل، وصرخ شخص آخر: «يا خاتون! لا تخافي».

حدث كثير من اللغط والصراخ تحت، لا أكثر، لذا عدت إلى فراشي وخلدت إلى نوم هادئ، لاستيقظ على صوت تسلل في الغرفة. مددت يدي إلى مصباحي اليدوي ـ لقد كانت إحدى قطط المزار. وعندما نهضتُ استدارت مسعورة وانطلقت من خلال لوح النافذة الزجاجي محدثة صوت تحطم. «ما هذا؟» جاء صوت قَلِقٌ من الأسفل.

«مجرد قطة. لا تخافوا». وضحك الجميع.

وعند منتصف الليل كان المطر يقذف السطح من جديد بوابل شديد. كنت مرتاحة لأن معطفي المطري كان فوق السرير والمظلة فوق الوسادة، لكن المجموعة على المصطبة حول رماد النار اعترفوا بهزيمتهم واحتشدوا في الغرفة الصغيرة التي كانت تقوم مقام المطبخ تحت. على العموم، كانت ليلتنا مضطربة، لأنني كنت مضطرة للنهوض مرات عدة لأتفحص أصوات قطرات ماء متساقطة وأنقل ثيابي أو الأشياء الأخرى إلى بقعة جافة. وعند الصباح كان هناك وميض ضئيل من نور الشمس، لكن تلا ذلك عودة أخرى للعاصفة التي وصلت مع كل مدفعيتها من الرعد والمطر والبَرَد الذي كان يتألف من كرات جليد كبيرة كانت تنط

عن السقف والمصطبة وتتدحرج في الزوايا لتذوب في كومات صغيرة. دام ذلك حوالي عشر دقائق قصيرة ثم ظهر الشيخ شمس نهائياً، وعانقت ريح لطيفة الأوراق المغسولة جيداً والتي كانت تتلألأ من الرطوبة. وظهرت السماء زرقاء صافية.

## الفصل الحادي والعشرون

# داخل المعبد

«هذه أشياء لا يراها الذين لا يؤمنون»

ثيوكريتوس/الأنشودة الرعوية XXVI

وهكذا بدأ يومي الكامل الأخير. وافق معي رقيب الشرطة وهو يناقش أمور الليلة الماضية أن اللص ـ مهما كان يبدو ذلك مثيراً ـ كان لصاً خيالياً. كان الولد اليزيدي قد رأى شخصاً يمشي خلسة ويذهب نحو الباب، وصرخ «من هناك، من هناك؟» وهرب الشخص. كان من الممكن أن يكون ذلك قروياً متأخراً يبحث عن ملجأ. لكن المطاردة كانت حامية، وبعد كل التفحص الكامل لجميع أماكن الاختباء حول الباحات أُطلقت بعض الطلقات لمجرد إعلام السارق ذي النية الشريرة بما ينتظره إذا حاول أن يقوم ببعض الحيل. هذه الانفعالات مبررة لأنه منذ فترة قصيرة هوجمت القرية وخسرت ثلاثة رجال. كان معروفاً على نحو سري أن ذلك كان بفعل ضغائن قبلية، لكن لم يكن من هاجموا أو من هوجموا يرغبون في الكشف عن نزاعاتهم الخاصة، لذلك تمّ الاتفاق على

إلقاء المسؤولية على بعض اليزيديين الأبرياء الذين اقتيدوا إلى السجن. وجرى تدبير شهود ضدهم، لأن القرية بكاملها كانت معنيّة بالقضية، ولذلك حكم عليهم بفترات طويلة من السجن.

في اليوم السابق كنت قد أعلنت للفقير أنني في الغد سأزور معبد الشيخ عدي، وعندما انطلقت للقيام بالزيارة، كان مستعداً لي. خلعت حذائي قبل مسافة ما من الداخل وعرضت أن أخلع الجوارب أيضاً، لكنه أكّد لي أن ذلك غير ضروري. لذلك بعد أن دست على العتبة العريضة والعالية والتي جعلتها القبلات ملساء، خطوت إلى داخل المعبد المظلم.

من الغريب أن الشعور بالأرض المقدسة، القوي في هذا الوادي المورق، وعلى جوانب التلة المليئة بالأزهار، يغادرك وأنت تدخل برودة المعبد نفسه. في البدء، يبدو لناظرينا مهمَلاً، ونقاط الشحم من زيت الزيتون والوسخ على الأرض تؤثر على الزائر الأوربي تأثيراً سلبياً. في الداخل ظلام دامس، والضوء الوحيد يأتي من ثقوب في الجدار الجنوبي السميك. صفائح البترول موضوعة على الأرض تحت المصابيح الحديدية ذات الشفاه الأربع، لكي تستوعب القطرات. البناء مقسوم إلى صحنين متوازيين؛ وضريحا الشيخ عدي والشيخ حسن البصري موجودان في الهيكلين في الصحن الشمالي، لكن ضريح الشيخ عدي يعلوه سقف على شكل قبة مركَب على أقواس في زوايا الغرف، والجدران مغطاة بالبلاط على نحو مميز، وقد غيّر الزمن والرطوبة ألوانها، وسقط بعض منها. جزء من الملاط وحجارة البناء في هذا الهيكل الصغير وقعت على الأرض؛ وفي الواقع يحمل المكان مظهر الإهمال والضعف. هناك كتابة باللغة العربية على

مدخل الضريح الفخم كتبت بانحراف، كما لو أن البنَّاء لم يكن يعرف القراءة، وهناك قليل من الزخرفة. والقبر نفسه مغطى بقطع من الحرير الأحمر والأخضر، وقد ذبلت ألوانها وعلاها الغبار. كانت هذه القطع معقودة؛ وبينما كنا واقفين قرب الضريح قبَّل الفقير وجدَّان العُقد بكثير من الورع.

هناك باب في الهيكل يؤدي إلى ضريح الشيخ حسن البصري، وهذا أيضاً كان مغطى بقطع من الحرير المعقود مثل تلك التي على ضريح الشيخ عدي. حسب السيوفي، كان الشيخ حسن البصري[1] هو الاسم الذي اختاره اليزيديون ليخفوا اسم شيخهم الأسطوري الشيخ سن (Shaikh Sinn)[*] ـ كما يقول ـ والذي يزعمون أن الله دعاه إلى الوجود أمام الملاك جبرائيل. هذا الشيخ خلق ولداً لنفسه، فقد كان أكثر طهراً من أن يتخذ امرأة كزوجة له. وذرية الشيخ حسن البصري يُنظر إليهم كمقدسين على نحو مميز، وكان فن القراءة والكتابة في وقت من الأوقات مقصوراً على هذه العائلة من الشيوخ وعند كل زواج يجب أن يكون شيخ من هذه العشيرة حاضراً. وبالعودة إلى الصحن الشمالي من جديد، بحثت عن الباب الذي يؤدي إلى السرداب، لكنه كان محجوباً بالكامل،

---

(1) Siouffi JA XX 7me Série: بالنظر للاحترام الذي يبديه اليزيديون للكواكب وتكرار تصوير قرص الشمس والقمر في الشيخ عدي، خطر لي أن الشيخ سن - ربما - ليس سوى إله القمر - سن - الموصوف بكثرة في الأسطورة الماندانية.

(*) سين: إله القمر في عبادات ما بين النهر والجزيرة العربية لذلك كان (القمر) مذكراً و(الشمس) مؤنثة في العربية والعبرية... وأصبح التاريخ (قمرياً فليس من الممكن أن يكون «الإله الكبير» أنثى!؟ (المراجع).

بالرغم من أن باباً آخر دخلت منه لاحقاً كان حراً. على الجدار الجنوبي، إلى جانب فتحات الضوء التي ذكرتها أعلاه، كان هناك باب ذو قوس مزخرف، مغلق الآن، وكذلك ثلاث كوى ذات أقواس. على الطرف الغربي من المعبد، إلى يمين الباب حالما يدخل الشخص، هناك خزان في الأرض، عمقه متر أو أكثر، من الممكن أنه كان حوض تعميد، عندما كان المعبد كنيسة وهو يستعمل الآن ـ حسب أقوال الفقير ـ «للاغتسال». لكن لعلمي بتعصبه السري، قبلت هذه المعلومة بارتياب.

وبالعودة إلى الطرف الشرقي، طلبت أن أنزل تحت المعبد ففتح الفقير الباب ـ الذي كنت قد رأيته عند الطرف الشرقي، وليس ذلك الذي كان محجوباً ـ دون أن ينبس ببنت شفة. قادنا هذا إلى بعض الدرجات، عند أسفلها دخلنا الممر المسقوف جزئياً والذي يسير عند قواعد الجانب الجنوبي بالكامل للمبنى الموصوف في الفصل الخامس عشر. هنا ينفتح من حين لآخر ممر متهاوٍ، يظهر منه الماء النازل بسرعة على المنحدر في حوض حجري ضحل. وقفت فجأة وقلت للفقير: «لكن ليس هذا الذي طلبت رؤيته».

أبدى الفقير علامات الانفعال، «ليس هناك شيء آخر والله ليس هناك شيء آخر».

قلت له: «عندما جئت إلى هنا، جلبت معي رسالة من المير تقول إنني يجب أن أرى كل شيء. والآن تخفون عني ما أنا تواقة لرؤيته».

«ألم نُرِكِ كل شيء؟ خاتون! لقد رأيتِ كل المزارات، كلّها. ذهبتِ إلى كل مكان، ورأيتِ كل شيء».

«اسمع»، قلت له. «أنا لا أطلب شيئاً جديداً. عندما جاءت

مِس بل (Miss Bell) إلى هنا شاهدت السرداب الذي تحت المعبد، الذي يتألف جزء منه من كهف والجزء الآخر من مبنى وفي الوسط يجري ماء، وهو مظلم كليةً».

تمتم الفقير «لقد رأيتِ كل شيء». قال إنه لم يسمع أبداً بـ«مس بل» وكان واضحاً أنه لم يصدق أنها زارت المكان. ونظر حجي وفقير لبعضهما بانزعاج. وبعد ذلك خطرت له فكرة رائعة.

«سأريك يا خاتون» أعلن ذلك في خطوة من يخالف. «تعالي».

رجعنا من حيث أتينا نسير على الطريق المغطى، وفي الجدار فتح باباً. وهنا خلعت نعالي مرة أخرى، بالرغم من أن المدخل المنخفض والمظلم كانا ملوثين بالشحم من نقاط الزيت القديمة. «يجوز»، فكرت متأملة «أن يكون هذا المدخل الجانبي للسرداب».

أخذتنا انعطافة حادة إلى غرفة، يملؤها الماء جزئياً، تستعمل مستودعاً لخزن جرار الزيت. قال حجي وهو يكذب بطريقة ممتازة، «نحن لا نُحضِر أحداً إلى هنا، فهو مقدس جداً جداً».

كان صمت، ثم نظرت إليه مباشرة وقلت: «حجي! ليس هذا ما أردت رؤيته».

استدار مطأطئاً وعاد إلى ضوء النهار. قلت للفقير «أنا آسفة لأنكم رفضتم إدخالي إلى هنا. لو أنني علمت أنه لم يدخل أحد إلى هذا المكان من قبل، لكنت رضيت؛ لكنني أعلم ما تحت المعبد، وأن آخرين قد زاروا المكان». انتظرت. لكن وجه الفقير كان فاقد الحس وخالياً من التعابير، ولم ألح على هذا الأمر، فأنا لا أضغط في هذه الأمور. وعندما عدنا في صمت إلى الفناء الرئيس، انحنيت واستدرت مبتعدة بوجه متهجم وغادرت.

طوال النهار كانت الوفود تتوالى. أولاً جاءت مامه الثرثارة ومعها رضيعها باران بين ذراعيها، مهتمة بجدية، تظن أن القماش الحريري الذي وعدتها به لا شك قد تعرض للخطر. «لماذا سيدتي غاضبة؟ يقولون إن السيدة غاضبة!».

«أنا لست غاضبة يامامه، بل آسفة لأنهم لم يفعلوا ما طلبت، ولأنهم أنكروا عليّ ـ وأنا صديقتهم ـ وجود مثل هذا المكان».

وصل جدان ـ المضطرب ـ كمبعوث، وقابلني بشرحٍ مشابه. كان حجي يتجول حول غرفة الضيوف ـ وهو نادم حقاً ـ فقد كان شاباً لطيفاً. قال جدان لو أن الشاويش كان موجوداً، فوالله لما كان حدث ما حدث (وهذا قد يكون صحيحاً). «لن يكون المير مسروراً عندما يسمع هذا» ـ ،أضاف بأسف. لكن الفقير بقي مسترسلاً في عناده كالصخرة أمام كل المحادثات.

ومن جديد عاد الوسطاء إلى المهمة. «أنت غاضبة»؟

«لا» أكدت لهم. «لكن خاطري مكسور قليلاً».

إن «الخاطر المكسور» أمر خطير. إنه يعني شيئاً أكثر من جرح المشاعر، يعني أن هيبة الشخص قد تأثرت، وأنه قد تلقى صدّاً لا يستحقه، وهو يدرك أنه لم يكن يعامل بالكياسة المعهودة.

وبعد ذلك كانت عاصفة من الاحتجاجات. حضرت السيدتان البيضاوان منزعجتين قليلاً، كي تلقيا الزيت ـ لا زيت الزيتون ـ على المياه العكرة كي تلطفا من حدة الموقف. وأخيراً وصل الفقير شخصياً، وكان وجهه الشاحب قاسياً كالمعتاد. وأخيراً اعترف بكل شيء، وقال إنه لن يسمح لي بالدخول. «أنا لم آخذ حتى نسائي إلى داخله». (بتأكيد قلق من مامه). «أنا لم آخذ المير نفسه إلى الداخل.

لا احد سوى هؤلاء». وأشار إلى المرأتين البيضاوين، «والبابا شيخ والشاويش ونفسي هم من دخلوا ذلك المكان، وبالله! بالله، إنه مقدس جداً بحيث إنني عندما أسير هناك ترتعش يدي».

يكمن جزء من القيادة الجيدة في الاعتراف بالهزيمة وتحويلها إلى أفضل المزايا. كان هذا هزيمةً وقَبِلتُها وفكرت فيها.

بعد الظهر، صعدت وحجي الجبل على الجانب الشمالي من الوادي ومشينا هضبة صفراء من كثرة أعشاب الـهوك ويد وقرمزية من الحوذان. كانت هنا أشجار أيار تزهر، جلسنا نستريح قرب واحدة منها ونظرنا إلى المزارات تحتنا.

اعتذر حجي المسكين مرة أخرى. «لا يسمح لأحد» قال «ولا حتى لليزيديين بالدخول إلى هذا المكان» وأعلن من جديد أنه لا هو ولا حتى زوجة الفقير نفسه قد وطئت أقدامهما هذا المكان. تذكرت أنه في كتاب ( Amurath to Amurath: رحلة على ضفاف الفرات) تحكي مس بل أنه عندما أخذتها عمة الأميرة وكانت يومها رئيسة الدير في هذا المكان وأدخلتها إلى سرداب الينبوع المقدس، توقفت السيدة البيضاء في منتصف الطريق وبصوت مخنوق سألتها: «ألست خائفة»[1].

عدنا، وبعد تناول الشاي وجدت الفقير منطلقاً كالعادة ومعه صحنه وفتائله المشتعلة ومغرفته، وفكرت ملياً برفضه. فكرت به بسخط أقل. ذكَّرت نفسي أنه من عرقٍ كان ضحية قرن كامل من

---

(1) عندما زار الدكتور ويغرام هذا المعبد مرة عند اضطهاد اليزيديين وجد المكان مهجوراً ودون حراسة ودخل الكهف المقدس. أنظر The Cradle of Mankind, 1914 الصفحة 200.

التمثيل الخاطئ والكراهية. ورأى الآن الديانة المعززة لشعبه تهددها المدارس والخدمة العسكرية وكل ذلك كان بالنسبة له يهدد نسيج ديانته. رأى سرية المزار المقدسة تهددها الطريق الجديدة ـ التي كان يجري بناؤها من عين سيفني إلى الموصل، ويقرّب هذا العالم المدنّس على نحو خطير. حتى الآن كان هذا الوادي، الواقع في جبال الهكاري محمياً من الطبيعة، وعندما زارته غرترود بل قبل الحرب الكبرى وقبل اختراع السيارة، كان اليزيديون لا يزالون آمنين في عزلتهم، تحميهم تلالهم الصغيرة وعدم إمكانية الوصول إلى المكان. إضافة إلى ذلك، أخذتها عمة الأمير ـ وهي امرأة من عشيرة أمراء، والعائلة التي كانت دوماً على علاقة ما بطبقة الموظفين وبالعالم العظيم[1].

لكنه ـ أعني الفقير ـ شخص عديم النفوذ، ومع ذلك فهو كاهن لديانة عمياء ذات إخلاص عنيد، رجل موثوق. والعالم الملوّث يتلمس طريقه عند الجدران المتداعية التي يحاول الدفاع عنها، ثم ألم أرَ بنفسي مدى اهتمام الغرباء بالإجحاف الذي تعرض له اليزيديون وكيف ينتهكون ـ عن دراية، وأحياناً بعبث ـ قوانين المحرمات اليزيدية؟ بالمختصر، يرى الفقير فيَّ أول الغزاة من ذلك الجمع الكبير من الطائشين الذين يهددون كل ما يعتبره مقدساً.

لذلك كان عقلي في هدوء عندما صعدت للمرة الأخيرة إلى

---

(1) عندما عدت إلى بغداد صرحت ميرا ونسه أنها لو كانت موجودة لكنت رأيت زمزم - كما كان يدعى الينبوع المقدس - وحتى يضفوا على هذا المكان هالة من القداسة في عيون المسلمين، يعلن اليزيديون أن للماء ارتباطاً تحت الآرض ببئر زمزم المشهور في مكة.

الشيخ شمس ونظرت إلى الوادي تحتي، بأبراجه البيضاء التي ترتفع بين المروج الخضراء التي غسلها المطر. ووجدت أنه أمر جيد أنهم منعوا عني زيارة قدس الأقداس، مزار روح الماء معطي الحياة، الديانة الحقيقية والروح الحارس للمكان. ولا عجب أن جوَّ القداسة كان غائباً عن المبنى في الأعلى وأن حتى قبر الصوفي الذي علَّم وعاش ومات هنا، بدا فارغاً من دون معنى. المزار الحقيقي كان قرب قلب الأرض - لأنني أظن - مثل المانداثيين - ذوي الديانة السرية والمقنَّعة - أنهم ينظرون إلى الماء كواحد من أطهر رموز الكون وهي الحياة والأبدية. وبينما كانت تخطر هذه الأفكار في ذهني، سمعت صوتاً كنت قد سمعته للمرة الأخيرة في انكلترا النائية. كان صرخة رسول الربيع والانبعاث.

- «كاكو، كاكو!!»[1][*].

---

(1) صوت طير الوقواق (cuckoo).

(*) في العراق هناك أنواع عديدة من الطيور يُطلق على أحد أنواعها اسم مختي، وهذا النوع يغرّد بطريقة كاكو وهناك أبيات من الشعر الشعبي العراقي يقول: كوكتي واين اختي بالبصرة تشرب ماء الله وشتاكل باقلا. (المراجع)

# خاتمة

كان الصباح الأخير وكانت حيوانات التحميل قد وصلت أثناء الليل. كان حيواني فرساً بيضاء، وكانت تركض إلى جانبها مهرة كستنائية اللون عمرها شهر واحد، ذات غرة بيضاء على جبهتها. ودعت الجميع ووزعت آخر مؤونتي وأهديت آخر هداياي. كانت هناك قطعة حرير صقيل (ساتان) لمامه، التي لمع الفرح في عينيها عندما استلمتها. وكانت هناك هدية للشيخ الذي أصبحت ملعقته في حوزتي الآن، وهدية نقدية وبعض العطر لحجي، الذي حاول أن يرفض لكنه غلب على أمره. وكانت هناك تعويذات ومال لشراء التبغ للباقين. حوّمت مامه الطماعة ـ حولي بينما كنت أحزم الحقائب، كانت تأمل حتى اللحظة الخيرة أن شيئاً آخر قد يخرج من حقيبة المفاجآت تلك. لكن آخر قطع الشوكولاته والحلي الصغيرة كانت قد أهديت ولم يكن لدي أي مسهِّل يناسب سليمان. لقد طلبت ذلك من وحي اللحظة الأخيرة.

قلت: «لكن لديك غبار من المزارات وهناك أعشاب على الجبال». طلب جدان بتواضع خرزة للعين الشريرة، أو حتى اثنتين؛ لأنه كان يخشى أن تختفي جميعها قبل أن نصل إلى الموصل. أخرجتها وتم تقاسم الباقي بين الشرطة والخادم

ميخائيل، الذي كانت لديه ابنة طفلة بحاجة للحماية[1]. تجمع الجميع على المصطبة، يتمنون لي رحلة سعيدة، ويطلبون إليَّ العودة لحضور العيد الكبير. كانت السيدتان البيضاوان هناك (ما عدا نورن إشارة إلى «آلهة القدر» التي كانت دون أدنى شك على جدارها الرمادي، تحيك فتائل لمصابيح المعبد وتغزل أشراكاً عنكبوتية في عقلها العجوز المشوش). ابتسمت لي ضيا كوته بلطف كبير. طلبت إليها أن تتذكرني في صلواتها في المزار، وقالت إنها ستفعل. كان وداعها قلبياً وكريماً.

بقيت الزيارة الأخيرة للمعبد. قمت بها بطريقة بالغة التهذيب، وقفت منتصبة صامتة عند باب المزار المفتوح، حدَّقت في الداخل لحظات، بينما كان الفقير ـ حارسه ـ يقف بوقار عند الحية السوداء، متيقظاً وراغباً في أن يكون ودوداً من جديد. وضعت تقدمة على العتبة، وبصوت رصين طلبت نزول بركات الشيخ عدي على ذهابي وإيابي. انحنى جدان وقبَّل العتبة بحماسة للمرة الأخيرة وتلقى التبريكات نفسها، بالنغمة نفسها والكلمات نفسها. بعد ذلك عدنا، وعندما قلت وداعاً للفقير ومددت يدي له. كان الأمر كما لو أنه لم يكن أي خلاف بيننا أبداً.

«في حفظ الله». قال.

---

(1) وجدت واحدة بعد عدة أسابيع في حقيبتي وأفرحت بها قلب جندي جزائري عربي، كان قد جرح أثناء التراجع في دنكيرك، أعطيتها له في مستشفى إنكليزي وكان قد فقد إحدى ساقيه.

«نتركك في حفظ الله!» مشينا معاً وانطلقنا على طريق الحجاج، والحيوانات المربوطة بمقاودها والمحمَّلة وراءنا تشق طريقها بحذر خشية أن تزل حوافرها على حجارة الرصيف البالية.

## الملحق: أ

# عادات الزواج

حالما تحدث العلاقة، تخرج العروس من غرفة الزوجية وتعرض على أصدقائه الثلاثة في الخارج منديلاً ملطخاً، دليلاً على عذرية الفتاة. وسألت ـ عما سيحدث إذا لم يكن هناك أي دليل على العذرية. «حدث ذلك في حالة فتاة عرفتها» قال مخبري. «قد يكون ذلك بسبب حادثة سقوط عن حيوان أثناء الركوب، لأن النساء في الجبال يركبن الحيوانات، أو ربما لسبب آخر. قلت لهم إن ذلك ليس بالضرورة إشارة على عدم العفة. لكنهم لا يلقون بالاً لهذا، غطوا الفتاة بحجاب أسود وأرسلوها إلى قومها. أحياناً، إذا لم يجد الشاب أي إشارة على العذرية لكنه يحب الفتاة ويريد بقاءها، فقد يأخذ إبرة أو سكيناً ويسحب قليلاً من دمها ليلطخ المنديل ويرضي أصدقاءه».

هذه العادة ليست مقتصرة على اليزيديين، بل تتم ممارستها في كل أنحاء بلاد العراق.

## الملحق: ب

# الولادة

تدعى القابلة «دابير» (Dapir) وهي بالعادة امرأة مسنة تعلمت الفن من «دابير» أخرى. وحتى الآن، لم تصل القابلات اللواتي تعلمن الطرق الحديثة إلى قرى التلال. في حالات تعسر الولادة يجري اللجوء إلى السحر مثل ما أشرت إليه، وتُعطى السوائل لكن حسب أقوال حجي لا يدخل أي شيء إلى المهبل. وعندما يولد الطفل تقطع القابلة الحبل وتربطه بخيط من القطن - أبيض أو أزرق - وتضع قطرة عينية أو قهوة جافة على الجرح. تضع بعض القطران على رأس الطفل، وإذا كان وجه المرأة قد ظهرت عليه ندوب أثناء الحمل، فإنهم يدلكون قليلاً من الدم من الحبل على وجنتيها. وإذا لم يبد الطفل أي علامات للحياة، فإنهم يأخذون رغيفاً مسطحاً من الخبز البيتي (وهو رقيق ومقعر الشكل، لأنه يخبز على سطح مقعر)، ويذرونه مع قليل من الحليب من ثدي الأم وقليل من دم الحبل، وينفخون الهواء نحو الطفل. لا يستعمل أي شيء لهذا الغرض سوى الخبز. وإذا تنفس الطفل بعد ذلك، فإن الخبز يوضع جانباً بحذر ويحفظ دائماً في مكان سري آمن.

يغسلون الطفل بالصابون والماء الساخن ويضعون قليلاً من القطرة العينية على أجفانه ثم يقمّطونه بإحكام. يدفنون المشيمة (هافال بوتشوك) في البيت أو بقربه، عادةً في القبو. يجب أولاً لفها في قماش أبيض ويمررون إبرة فيها خيط في قطعة القماش كي يثبتوها. وفي حالة المرأة التي يموت أطفالها في الطفولة، يلفون المشيمة أحياناً في ثوب الطفل ويدفنوها عند عتبة غرفة الأم، بينما تُتِمُّ القابلة بعض الكلمات مثل: «لأنك مدفونة هنا، فإن الولد (أو الفتاة) سَيعَيش».

تستلقي الأم مدة سبعة أيام بعد الولادة. ولحمايتها من الهجمات الشيطانية توضع عصا الشيخ إلى جوارها في الفراش، وكذلك غربال فيه شعر معقود جلبه الشيخ. في داخل هذا الغربال توضع السكين التي قطعت الحبل السري، ويحاط الفراش والغربال بحبل معقود. تحت وسادتها يوضع قليل من غبار الشيخ عدي، بالإضافة إلى زر أزرق فيه سبعة ثقوب، وحبة فاصوليا سوداء ومقصّ. يبقى المصباح مشتعلاً في الليل. ووجبة الأم يجب أن تكون ساخنة وحلوة، وفيها الفلفل وكبش القرنفل والزبيب وتطبخ مع كثير من الدهن (زبدة غنم مذابة). وإذا زار أحدهم المرأة المستلقية، فإن عليه أن يأكل شيئاً إلى جانب الفراش وإلا تلا ذلك شر ما. لا يجوز أن يغادر الطفل البيت حتى يمر أربعون يوماً، ولا يرتدي ثياباً جديدة، بل يُلبسونه من ملابس قديمة لأطفال آخرين.

وحتى بعد سبعة الأيام من التطهير الموصوفة في الفصل الخامس، لا تعتبر الأم خالية من التلوث حتى يمر أربعون يوماً، وقبل تطهيرها لا يجوز أن تزورها امرأة في فترة الحيض أو امرأة

أنجبت طفلاً حتى يكون الطفل قد بلغ الأربعين يوماً من العمر وإلا فإن حادثة ما قد تحدث لطفلها. إن أي قماش بلون فاتح أو فاكهة تدخل البيت من السوق قد تؤثر على صحة الوليد: إذا اصفّر فقد يكون قد أصيب باليرقان، وإذا احمرَّ فقد يكون قد أصيب بالحمى. (هذا الاعتقاد لا يزال سارياً في العراق. في الجنوب يسمى «كبسه» أو «تشبسه». انظر مقالتي حول «النساء والمحظورات في العراق» في مجله «العراق»، مجلة مدرسة الآثار في «العراق»،(المجلد الخامس 1938 الصفحة 155 وما يليها).

في إحدى المناسبات أخذني حجي إلى فتاة يزيدية كانت قد أجهضت. كان ذلك ابنها الأول. والفتاة نفسها التي كانت مستلقية على أرض الغرفة وعليها غطاء خفيف، لم تكن أكثر من طفلة. ستنهض وتعمل في اليوم التالي. تعاطفتُ معها وأعطيتها شيئاً يجلب الحظ الجيد، فأحدث ذلك ابتسامة لطيفة على وجهها. وحجي ـ المشوش كالعادة ـ أراني كرة طينية على شكل البيضة مصرورة في قماش أبيض على أحد الرفوف. كان هذا الجهيض. كانت قد غسلته ووضعت بعض القار على رأسه، ثم أحضرت طيناً وغطته بالكامل. وعندما تأخذ الفتاة حمام الطهارة فإنه سيوضع على رأسها لكي تنجب طفلاً آخر. يعامل الحبل السري كالعادة، أي: يصرّ في قماش أبيض ويدفن مع الإبرة والخيط. لكن الجهيض يدفن في البيت قرب حجر العتبة، بعد الاحتفال الموصوف أعلاه، مع حجر يوضع فوقه في قبره الصغير تحت تراب البيت. وهكذا فإن الأم المحزونة «تذهب وتجيء فوقه» وتحبل وتنجب ولداً حياً.

*** 


فتاة يزيدية في ملابس الاحتفال


بداية الرقص خارج المرقد



امرأة يزيدية تغزل



نساء منتحبات حول المعبد في بعشيقا

رقص الدبكة في ساحة الشيخ محمد

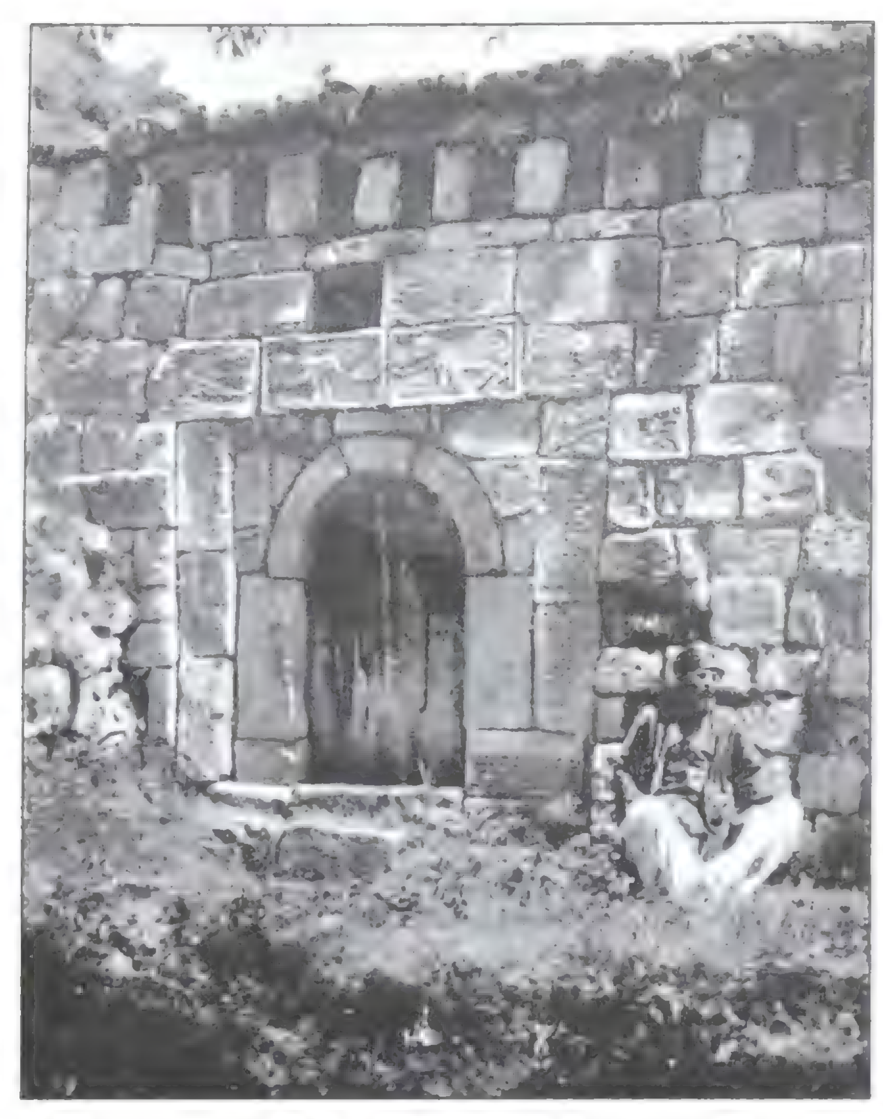
منظر من الخارج لمرقد الشيخ محمد في يوم الاحتفال



منظر من الامام للشجرة المقدسة
،فقير علي،



امرأتين ترتديان ملابس قومية، ،يلاحظ الحزام
الفضي الذي ترتديه الفتاة على اليمين،



مرقد بير حجَلي

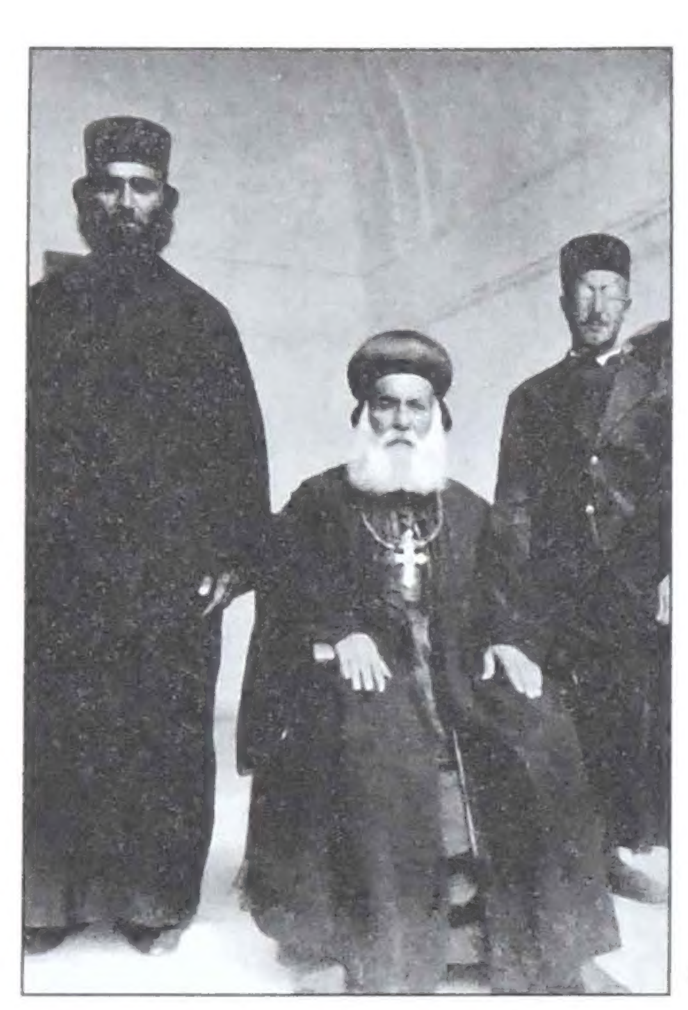


مرقد كادي بِلبان



مقام الشيخ ماند في بحزاني

منظر من الشارع لحوش بيت يزيدي في بحزاني



مطران دير مار متّي



إمرأة يزيدية وابنتها

مرقد الشيخ محمد في يوم الصلوات

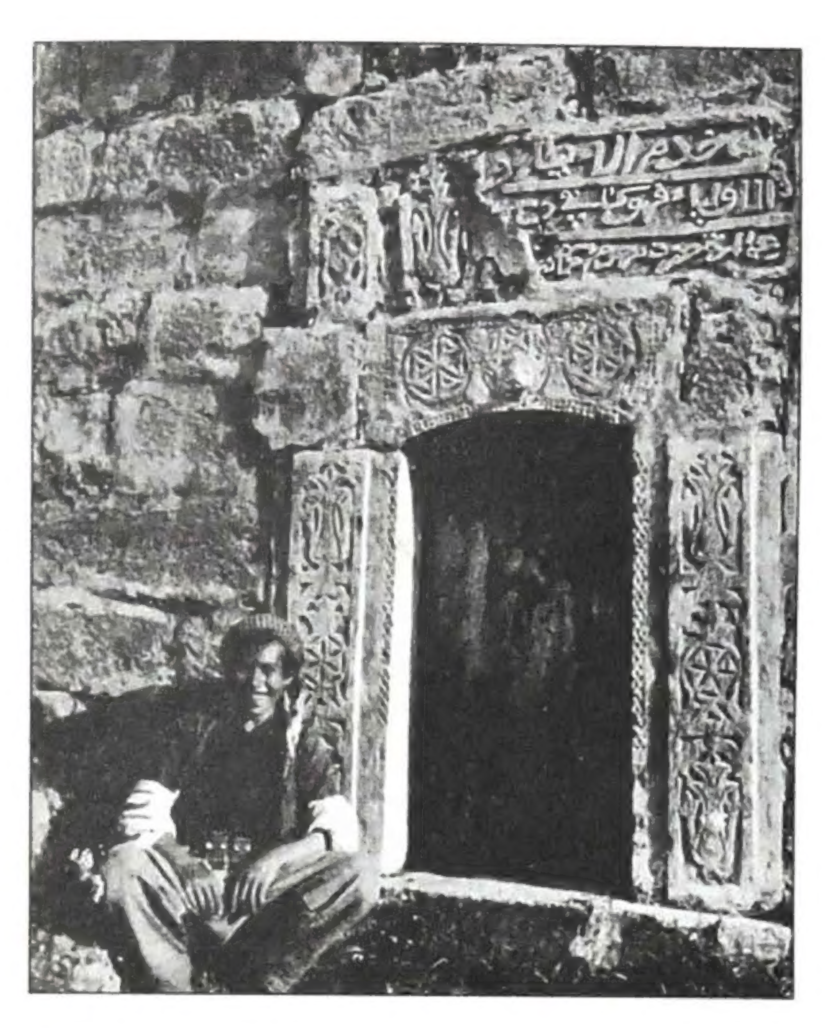
حوض ماء الغسيل في القرية، بعشيقا



امرأة على مسبح الغسيل في رأس العين



رأس العين تقع خلف الصخور الامامية حيث
يوجد المكان المقدس



باب الى صالة المعبد المعمداني النسائي (حاجي يجلس أمام باب المعبد)

الوادي المقدس للشيخ عُدي